

أسعد الجبوري

التأليف بين طبقات الليل

- رواية -

من منشورات اتحاد الكتاب العرب

١٩٩٧

كل الحقوق
محفوظة

لاتحاد الكتاب العرب

الغلاف للفنان :

- أنت تعمل على تخريب اللغة، عندما لا ترى فيها سوى شجر الرماد.
- ولكن أخبرني، كيف أصبح الخوف نباتاً في الأعماق. أليس هو الآخر الذي فرض علينا تفوقه على أرض تلك البلاد؟
- لم ير الماوردي غير حزمة من الأشعة، وهي تنشق عن مرآة الغرفة، لتصطدم بوجهه وتحوله إلى قطعة من السيراميك.
- طيب. ليكن وجهك هكذا على الدوام. على الأقل ، فإنه لا يصاب بتلك الارتعاشة المفزعة، حينما تعبر فوقه الأشباح.
- والانتظار.. أليس هو أولى ممرات الإهانة، حتى لو كان روائياً؟
- قلت ذلك لنفسى وأنا أدخل الليل.
- كانت السنوات الطويلة التي مضت عليك في الهاهنا والهاهناك، قطيع غيوم تهول في حقول المجهول. لكن القطرات التي تنزل من أثنائها، لم تكن إلا هذا الحبر الذي تفوص في طوفانه حياتك الثانية. فالأرض التي لديك، ليست كما تكون الأراضي. والوطن الذي تبقى فيك، ليس غير مجموعة من الذكريات.
- هل سقطت في الوهم؟
- نعم. أوليس هو الغصن الذي خرج من جسد الواقع، ليصبح أطول الأيام في تاريخنا؟
- بئس هذه الثثرة.
- و لكنها أصبحت برأس عال، و بقديمين أسرع مما لدى العدائين في الماراتون السياسي.

(١)

كانت العاصمة.. تفوح برائحة الموت. و كأن حرارة عظمى تمزق جثثاً لا حصر لها. فالنهار واقف كقطار طويل مُعطل. و عيون البشر دقيقة، يساقط الماء من فوق وتحت جفونها بكثافة الصمغ. فيما المقاهي أشبه بالمقابر، تستقبل رواداً تكاد أن تكون أشكال قاماتهم من قالب واحد. عيون نصف مغمضة. شوارب غير منتظمة أشبه بخيوط البلاستيك. رقاب منتفخة كالقرب الجلدية التي يصنع الفلاحون فيها الزبدة. و بطون محشوة بالقطن منعاً لخروج مثل تلك الأصوات التي يعاقب عليها القانون الاجتماعي. وأفواه مفتوحة تتطلق منها الغازات والأدخنة والهمهمات. أما الجدران، فقد كانت مليئة بصور الحاكم ونائبه، صورهم فقط.

كان يدرك منذ طفولته أنه وُلد في نهر ما على أرض العُلجوم. لم يعتره الشعور بالاستقرار. فكان مزيجاً من الأحلام التي تطير به خارج حدود مساحة الققص، أو ما كان هو يسميه بالمترب المربع الواحد. فلقد تحرر من التصحر مبكراً. لأنه يريد العالم، لا على صورة النسيج الدخاني الذي يتحكم بالمخلوقات. بل عالم صنيع من الفنتازيا على غرار الكون الشعري للمخيلة. فكان، كلما قرأ كتاباً، قذف به إلى النهر. و كأنه بذلك يُعيد تكوين حبر جديد، أو يغسل الكتاب من محتوياته قدر الإمكان. فليس لدى الماوردي ما يستحق التقديس، لا تلك الأفكار التي بدأت تنهار على ضفافه كأشجار الصفصاف، ولا البطولة التي يتقلدها المؤلفون السياسيون، و هم يتحدثون عن الطفولة الأيديولوجية وأقواس النصر ومخازن الأحزاب وعلب حفظ ثقافات الشعوب السرديين.

لقد أخذته روحه بالبحث عن تلك الفراديس الغائمة طويلاً. بيني وبهدم. يخطط ويمزق. يطير ويسقط. أشبه بمن يطير فوق الأرض، ويحس بأنه يخوض في مغطس من الحمى. فيما كان الإرهاب الرسمي يتمدد مثل قضبان الحديد تحت حرارة الشرق. و كأن الدمار هو السحر الوحيد الذي رافق بدايات الماوردي في أرض العلجوم. فهل هو عصر تلف الدماغ في البنيان البشري؟ أنه السؤال. و الماوردي لا يحب الأسئلة، أو الأمطار السوداء كما يحلو له أن يطلق تلك التسمية عليها.

هكذا كان يعتقد طوال سنوات عمره. فهو يفسر العالم بالطولة المستديرة التي يقابل شخصها بعضهم لبعض، دون سواتر وأحجية و خنادق وكواليس من أجل التفاوض وتقسيم المخلوق البشري إلى حصص ومقاطعات. وحتى هذه اللحظة، لم يأسف الماوردي على شيء يذكر. لا على المدرسة التي غادرها قبل أن يتعلم منها تقليم أظافره بشكل سليم. ولا على الطفولة التي سرقتها كتب المكتبة العامة مبكراً. ولا على الخدمة العسكرية، التي أنهى فيها الفترة الإلزامية لمدة ١٨ شهراً بارداً في الجيش. ففي ذلك الزمن، لم تكن هناك حروب ولا من يحزنون. لأن الحكم كان منهماكراً بحرب الاغتيالات السياسية وتصفيات الخصوم، تلك التي أغرقت البلاد بطوفانها الدموي منذ بداية السبعينات.

لقد كان النسيان أفضل للرأس من هطول الأفكار كالمطارق. لأنه نعمة. كما تعلم الماوردي ذلك من أغنية سمعها عن مطربة عربية، كانت تغني في مطعم لمدينة تقع فيما وراء البحار.

"هذا أوان الذبول الانتولوجي في العقل بعد خريف الأيديولوجيات."

جملة جميلة كان يرددها الماوردي قبل دخوله عالم السرير، لا شيء، إنما ليقتع عيونه بالاستسلام للنوم الحضاري. فجسده كاملاً، لم يعد مستعداً لبلوغ هذه القناعة منذ سنوات طويلة. وهو إن أُنْع العينين لغواية النوم وهيأت أفعالها للإغلاق، رفض الدماغ هذه الفرصة التي يرى فيها اعتداءً عليه، لأنها تجعل منه أشبه بالموظف الذي يحال على التقاعد، وهو لا يريد ذلك أبداً. لذلك لا بد من التحايل:

"اشرب يا ماوردي حتى يغرق الدماغ بمحلول الحرير الأبيض تماماً، فيسقط في جبّ النوم."
أصبح الماوردي يدرك جيداً، أن تموجات الحياة في الليل، أقرب إليه من النهار.
"الليل زخرفة، فيما النهار مأهول بالرخام الثقيل الذي يشبه الجثث."

ومن هنا كان يميل للعزلة في مكان ما من الليل. مكان لا تقب فيه للخوف من تأليف شخص أقياء، لا يشبهون تماثيل الشمع اليومية التي تتحرك، وتذوب تحت حرارة الشمس بسهولة.

"على المرء أن لا يصنع شمس من تلك المصابيح المنارة في الشوارع، أو تلك التي تقف خلف زجاج النوافذ. بل أن يبتكر لنفسه حزمة ضوء من المعرفة، على الأقل لإنارة الذات أثناء عبور المضائق الحرجة أو المهلكة. أه، ما أتفه كلام الفلسفة هذه الأيام. أن تصنع شمساً أو بطيخاً أحمر من المعرفة وتثير الآخرين وذاتك.. أليس هذا وهماً؟"

إن الصمت الذي تخندق في أعماق الماوردي طوال السنوات الطويلة، كاد أن يأكله و يبتلع عظامه، فقد أصبح وكأنه كاتب نصوصه المنتخب على أرض التيه. فقد اعتاد أن يقول في نفسه:
"شهرة الصمت ولا شهرة البوح. والمشي في قاعة صامتة، أفضل من الشلل على قمة تتنازعها الرياح، وقد تلقي بها إلى صناديق النفايات في أية لحظة."
"أبقى صامتاً يا ماوردي.. وقد اجتازت التماسيح ممر الرقبة، وامتدت اعناقها إلى نفق الأحشاء"

ظل الماوردي صامتاً كعادته. جبل لا تهزّه الرياح. لكنه كان يضحك. وهو يرسم في نفسه صورة من صور أبطال الإغريق.

لم يكن للحقد من ثياب يرتديها. فالذين عاشوا زمنه، يعرفون نزعتة الأرسنقراطية في الصداقة والحبّ والكتابة. فقد ألقّ الجنون باللغة الداخلية، لتصبح شبكة موسيقية بين الحواس. وتتكسر للسياسي لصالح الفني اللامتاهي. فالفن هو النبيل المقدس على الأرض. وهو النهر الذي يمد لسانه بجرأة إلى البحار العالية.

لذلك.. وقبل أن يقتنع الماوردي بالخروج من بلاد العُلجُوم والتوجه نحو حدود الشمال. كان يعتقد بأن الكتابة مقياس الأمن الذاتي والسلامة السياسية. لا مقياساً للإبداع والعملقة. فأن تكون كاتباً أو شاعراً مشهوراً هناك، يتعين عليك دخول السجن في بلدك، لأتفه الأسباب. أو قبول الموت في أية لحظة تختارها لك الحكومة. فمن يكتب في بلاد العُلجُوم، ليس الكاتب أو الشاعر، بل السلطة. بعقلها الأمني. لذلك، الفرار من القفص الذهني والجسدي معاً، أمر لا بدّ منه.

"أرض العُلجُوم.. تخرج الأنبياء بمظالمها. فكيف الحال بالنسبة لواحد مثلك؟"

ليس من خيار.. إلا أن تذوب كفض الملح. فأنت لم تخلق من أجل زنزانة. ولا السباحة الحرة في أحواض الأسيد المخصصة لمن يراد تنظيفهم من على أرض العُلجُوم. فالحكومة تريد

إنتاج جيل من العبيد، لذلك لا بد من القسوة. لأنها القانون. فالمرء لا يعتبر عبداً دون سوط، كما يبدو!

تذكر الماوردي رجلاً كان يعرفه. رجلاً وديعاً تسيطر عليه نزعة الأبهة و الفخامة. وجلّ طموحه، يقوم على فكرة شراء مقهى من مقاهي المدينة، فقط من أجل أن يعلق صورة كبيرة له على جدار صدر المقهى. وعندما نال مراده، وافتتح المقهى، لم تمكنه الحكومة من تعليق صورته الشخصية في المكان الذي كان يحلم به. فذلك ممنوع!

الأمر الذي دفعه لإحراق المقهى وصورته ذات يوم، ليقل عائدًا للعمل في الريف. لأن المدينة لم تحقق له ما كان يرغب به.

"ليعن أبو المدينة الفاضلة و السلطة الفاضلة و الصور الفاضلة."

أتذكر المشهد يا ماوردي، وأنت في مثل اللحظات العصبية؟

لا. انسى المقهى والصورة، ولا تغرق داخل حوض الذكريات أكثر فأكثر. فلن تتفعل الآن تلك المتعة. ألا تحس بأن الخوف يملأ الجسد بدلاً من الدم. فكن حذراً. ولا تدع ذكرياتك تسرح بك في غابة الشوك. فأنت لو وقعت في الحفرة الكبيرة، سيمزقون حتى أفكارك و خيالك.

هل تنسى الشاعر الحصري في موقف الإفلاس، يوم قرر الانتحار لعدم قدرته على تأمين سكرة الليل.. فنزل إلى ضفة النهر بهدف التخلص من الحياة، ومُنع عن فعل ذلك، لأنهم طلبوا منه أن يرمي بنفسه من على الجسر، لا أن ينتحر وفقاً لما خطط لذلك هو بنفسه! وهل تنسى ما قاله الحصري لناصحيه آنذاك:

"اللجنة على بلد فقدنا فيه حتى حرية الانتحار!؟"

إذا.. لا بدّ من اجتياز الحدود يا ماوردي. دع هذي البلاد لمن هم أقوى منك. وأترك نفسك للكتابة. فالبلد ستنتسخ تحت عنف طوفان الإرهاب والحروب. جرب حظك في مكان آخر من هذه الأرض. فأرض البلد الذي ولدت عليها، كأنها رهينة لغضب الآلهة، وربما ستبقى هكذا لوقت طويل قادم. اذهب وراقب البلد من بعيد. فالذين اجتازوا الحدود، ليسوا رهائن الخوف وحده. بل لأنهم لا يرغبون الاستسلام للموت المبتل، بعد ما أصبح الإعدام أقل عقوبة في بلد العُلجُوم!

لن تحميك قوانين وشرائع مسلّة حمورابي يا ماوردي. فالحضارة الممتدة إلى آلاف السنين، كأنها ريش عصفور تمزقه الكلاشكوفات التي باتت يستخدمها المسؤولون في الصيد. فلا تجعل من نفسك مسخاً. ويكفيك أن تكون حياً، فيما لو استطعت اجتياز الحدود.

وفما لو وقعت في قبضة الأمن، فستدرك كيف تكون الحضارة! الزنزانة الانفرادية التي تحشر فيها مع الحشرات. وماكينات عصر الرأس. والحزام الكهربائي الذي سيرسل فيك ملايين الاهتزازات التي تقذف حياتك بعدها كالبصقة على البلاط. هذا الفصل الأول، وسيتم قبل دفعك للاعتراف. وما لا تعرفه عن السجون الأخرى، أفضل مما لو عرفت.

كان رأس الماوردي يعمل كخلاط الفواكه. وفجأة وجد نفسه في حانة قرب جسر كان على نهر يطل منه القصر الرهيب. احتسى كأساً صغيرة من العرق الزحلاوي، وتوجه نحو محطة القطار: إلى آخر مدينة في الشمال. إنها المغامرة الأولى وربما الأخيرة يا ماوردي.

"لا ضمان لحياة ما في العُلجُوم!!"

قالها الماوردي وقلبه كمنفضة أعقاب السجائر. جمر ودخان ورماد. فيما عيناه مليئتان بدمع متجمد. إنه لا يريد لدموعه أن تفضحه أمام المسافرين، على الرغم من الليل وخفوت المصابيح في القطار الذي كان يتلوى كالأفعى في بلعومه طيلة الرحلة.

إلا أن الساعات الأخيرة من الظلام تكاد تبلغ نهايتها. والماوردي لم ينام.

فقد وضع عقرباً تحت جفنيه لئلا يفعل ذلك. فيما العجلات تهرس جسده من أخصم القدم إلى الرأس.

- ها، قد تحولت إلى سندويشة مفانق لا تشبع طفلاً يا ماوردي.

- ولكن. ماذا يضع الباعة مع المفانق لكي تكون لذيدة بهذا القدر؟

- الكاجب.

- أه، و لكن من أين لي هذا الكاجب الآن؟

مع وصول القطار إلى المحطة، شعر الماوردي بأن رأسه يختض بالكاجب. حتى أنه تحسسه بيده، خشية أن يكون الأمر كذلك فعلاً. لف جسده بالمعطف الثقيل الذي ليس لديه من متاع سواه، مستعداً للقفز من القطار في لحظة التوقف الأولى. إلا أن بدأ أمسكت بكتفه الأيمن من الخلف.

"ها قد قذفت حياتك يا ماوردي كالبصقة على البلاط."

قالها وقد تحولت قامته إلى جذع شجرة فاحم و ملتهب، وكأن صاعقة ضربتها توأ.

- هل لك أن تمسك طفلي لأنزل الحقيبة من على الرف.. رجاء؟

- أنا أمسك؟ لا أستطيع.

قالها الماوردي، وقذف بجسده إلى خارج باب القطار كالخرقة. كان يمشي ويتصبب عرقاً على الرغم من برودة الطقس، مردداً كلمات تلك المرأة:

"هل لك أن تمسك طفلي لأنزل الحقيبة؟"

"ما علاقتي بالطفل والحقيبة والكلام الفارغ. يلعن أبو الطفل وأمه و الحقيبة."

"ثم لم تحمل حقيبة وهي في رحلة داخل البلد؟ نحن نساقر إلى الخارج ولا نحمل معنا حقائب!"

"هل تزوجت بنت العاهرة، لتتجب طفلاً يجعلني فحماً في مثل اللعنة التي أنا فيها؟"

"اللعنة.. هي ضاجعت ابن الكلب لمدة تسعة أشهر. وأنا سأحمل لها طفلاً لتُنزل هي الحقيبة."

"بل. ماذا لو كانت تلك المرأة تحمل حقيبتين مثلاً؟ ربما سميتي زوجاً لها قائلة: إمسك ابنك يا

رجال!!!"

نحن أكثر البلدان إنتاجاً للأحلام، و أقلها استهلاكاً. فكانن ما بين النهريين مخلوق حالم. عقله مُركَّب على هيئة خزانن الثياب. و لكن لتعليق الأحلام وطويها وترتيبها ومنع الغبار من الوصول إليها.

لكن تلك الخزائنة، سرعان ما تتفلش من كثرة ما تراكم فيها من ثياب. نتيجة للتناسل و قلة المساحة وطول الانتظار. ونسل السلالة التاريخية من الأحلام، لم يحقق نصراً. فسقطت أرضاً كثمار متعفنة.

كنت تعتقد بوجود أحلام لا يطالها الصدا أو الموت. لكنك الآن، ترى بأن العصفور الذي لا يطير، سيتعفن في عشه، مثله مثل الهواء، عندما يصبح راكداً لا يثير إلا الاختناق.

كانت البناية الشاهقة مغطاة بالثلوج. وربما هي الوحيدة التي كانت مُعلقة بالأفق آنذاك. ولم يكن ليظهر منها غير تلك المصابيح المهشمة التي تقذف ذلك الشخص المار تحتها بالصراخ الجاف.

(٢)

كان صباح المدينة التي وصلها الماوردي صباحاً متجهماً كوجه شخص خارج لتوه من مسلخ لذبح الحيوانات. فالشتاء يمشي على قفاه في الشوارع، والبرودة مؤثرة لأنها تبتث الهواء في الرئة على هيئة نشارة من الألمنيوم. فيما الناس كتل متحركة، لا يمكن الكشف عن هوياتها من كثرة الأغصية التي تلتف فيها الوجوه والأجساد.

"أين أنت الآن أيها المهرّب الدولي؟"

قالها الماوردي وهو يبحث الخطى نحو ذلك الزقاق التي أخذت هندستها شكل الأمعاء الدقيقة من المدينة.

- حتماً. سيكون غارقاً في تخته الوثير، وهو ينحت في بقرته السمينة قبل الخروج للعمل!

- كلا. فعادة المهربين ليست هكذا. إنهم ينامون خارج بيوتهم من أجل الطوارئ.

- إخرس يا ماوردي. فأنت لا تفقه شيئاً. فقد يكون عنوان المهرب خطأً. أو قد يكون انتقل إلى منزل جديد. أو قد يكون مطارداً من قبل مفارز الاستخبارات. لكثرة ما هرب من بشر إلى خارج الحدود. أو قد تكون زوجته قد قتلتها للاستئثار بأمواله.

"اللجنة على حظك يا ماوردي". قالها وهو يضغط بإصبعه على زر الجرس.

بعد لحظات.. انشق الباب عن فتاة في العشرين من العمر وهي ترتدي قميص نوم أحمر أو خمرياً. المهم أنه بلون الكاجب، سرعان ما سحبته من يده قبل أي سؤال، وأدخلته غرفة الضيوف، الأمر الذي أربك الماوردي وأعادته إلى حالة الكاجب التي داهمته البارحة في القطار.

فتزويج قلبه من هذا التصرف الفجائي الذي لم يحسب له حساباً.

"أهو بيت المهرّب حقاً؟ أمي ابنته؟ أخته؟ أم من؟ وأين هو بعد انقضاء ساعة من الانتظار وحيداً في غرفة الضيوف؟"

- أهلاً. حبه الفتاة و قدمت له القهوة مع ابتسامة لا غبار عليها. قد يتأخر زوجي بالوصول إلى البيت بعض الشيء، و لكن لا تقلق فكل شيء سيكون على ما يرام. اعتبر نفسك في بيتك. خذ حريتك في التصرف بكل شيء.

- و لكن يا سيدتي..

- لا تكمل الحديث. فنحن نعرف عنك كل شيء، فالشخص الذي سلمك عنوان بيتنا، لم يبخل علينا بالمعلومات. اسمع. أنت تخدم بلدك بالهروب من الفاشية. و نحن نخدم بلدنا بتهدريك منها. هذه نظريتنا التي نروج لها: نفرغ البلد من الحطب. بعد ذلك لتُشعل الديكتاتورية النار في ثيابها.

- هذه نظرية فاخرة...

- أرجوك. الكلام لا يناسب وضعك النفسي الآن. قم معي لأدلك إلى الحمام، فالدوش الساخن قد يروض مخاوفك، ويجعل منك رجلاً صالحاً. هيا!

دخل الماوردي الحمام. وعندما استلقى في البانيو الأزرق وأدار مفتاح الدوش، شعر بتدفق وثقل المياه على رأسه وكأنها نفضت خام. حاول أن يصرخ لكي يزيج الجبال التي تستقر على صدره، لكنه عجز عن تحريك قطعة الصابون من مكانها.

- ما الذي يحدث بربّ السماء؟

قالها الماوردي قبل أن يسقطه النوم في البانيو، بفعل حبة النوم التي وضعت له في القهوة، كأسلوب للفضاء على الخوف والتوتر العصبي العالي الذي كان يسيطر على كيانه! بعدها.. لينقل إلى السرير الخاص بلا حراك.

عند حلول الساعة الثامنة مساءً، دخلت سيدة المنزل غرفة نومها. أنارت الضوء متوجهة نحو السرير الخرافي الكبير الذي يحتل مساحة كبيرة من المكان، وربما أقل بقليل من المساحة التي يحتلها العطر في الغرفة الملوكية.

"إنه النائم، وقد حلت عليه اليقظة لتناول العشاء مع الضيوف في الصالة المخصصة لمثل هذه الأغراض؟"

استفاق الماوردي بمجرد انتشار الضوء في الغرفة. فوجد جسده النحيل بين أغلبية حريرية وشراشف ومخدات، تبرق كلها بلون البحر. أما جسده، فقد وضع في دشداشة بيضاء فضفاضة، وبلا ثياب داخلية.

"لللعنة عليك يا ماوردي. من جاء بك من الحمام إلى هذه الجنة؟"

"ومن وضع جسديك العاري داخل هذا الكيس الحريري الأبيض؟"

تدفقت الأسئلة كما الدماء الساخنة إلى جمجمته. إلا أن سيدة المنزل، سرعان ما انتزعت من السرير. فمشطت له شعره أمام المرايا التي تتلألأ عليها صورة السرير من جميع الاتجاهات.

بعدها فتحت إحدى الخزائن المحفورة في الجدار، لتتناول منه وشاحاً أحمر اللون، وضعت على عنقه في شكل ربطة. وبعد الانتهاء من مراسيم الهندسة.. دخلت سيدة المنزل قاعة الطعام، وهي تمسك بالماوردي من يده على طريقة الكونتيسات، فنهضت نسوة خمس من مقاعدهن لتحيته.

كانت الصالة حارة. النساء بفساتين من الموسلين الأسود الذي تتطاير من خلاله الأنوثة المفزعة. والمقاعد من الكراسي المشغولة بالمخمل المائل إلى اللون البنفسجي. أما الجدران الأربعة، فقد غطتها الستائر السمكية من كل مكان، عدا الجهة التي يقع فيها موقد التدفئة الحطبي الذي يستقر فوقه تمثال من العاج الأسود لتمساح ضخم.

"أين أنت يا ماوردي؟ وما الذي يحدث لك من خرافات في هذا المنزل؟"

"أنت في الفردوس يا ماوردي. فلم تصف بلاد العُلجُوم بالجحيم؟"

"هذه النساء يكذبك. وهذه المائدة تكذبك. وهذا البطر والفتناتيا لا تجعل منك كذاباً وحسب، بل أفاقاً. ولماذا تحاول الفرار من النعيم الذي أمامك؟ هل سيكون المنفى أعظم مما أنت وفيه يا أين...؟"

جلس الماوردي إلى الطاولة في الصدارة. كان كرسيه مختلفاً عن بقية المقاعد. من خشب الزان المزخرف بالصدف. له يدان، وقد تم تجيده بجلد نمر. فيما جلست سيدة المنزل إلى يساره،

وهي ترتدي فستاناً حريزاً أبيض، نهايته السفلى مكشكشة. فيما كانت نهود النساء تتلألأ كمصابيح الفئارات خلف الثياب. أما شفاهن، فشلالات من عصير الكرز.

"ماذا ستأكل أولاً يا ماوردي: البط المحشو أم النساء المحشوات بالأثوثة الطاغية والرغبات التي تفوح من بقاع أجسادهن كالباسمين؟"

أحس الماوردي بأن دماغه يكاد يسقط أمامه على الطاولة ككتلة من نار. ودون شعور منه، امتدت يده لتلتقط قنينة من العرق الزحلوي. فتحها و كرع منها الربع مباشرة. أحست النساء بأن شيئاً ما حطم وقار الجلسة. وقد جلب ذلك لهن بعض الرواق و البهجة. كأس من العرق يكسر عفة الصمت. فما الذي يكسره لتر منه؟ قال ذلك في نفسه، وهو يستعرض مقاطعات الجمال التي أمامه.

و بدأت كؤوس الخمر دورتها الأولى على الجميع. هذه أفضل طريقة.

"وبالخمير.. نستطيع أن نحافظ على قطع غيار العقل، قبل أن يتم استهلاكها بأفكار الجملة مبكراً."

"ولكنه مضر بالصحة يا ماوردي."

"ومن قال بأننا عبارة مثبته في قاموس صحة بلاد العجوم أصلاً!!"

قال ذلك الماوردي لإثارة ردود أفعال النساء. لأنه كان يحاول أن يشق بثرثرته غلاف العالم الذي هو فيه الآن فمع تدفق العرق والأغاني والحرارة التي يرسلها الموقد إلى داخله مضافاً إلى ما في روحه من فواجع وأحزان. جعلت منه أشبه بسمكة في أكوار يوم مليء بالشامبو. وها هو يريد القفز لالتقاط هواء العالم الآن. شعر بالاختناق. فنهض نحو الموقد محاولاً إبعاد رزمة من الحطب عن النار. فقامت سيدة المنزل في أثره لتراه يفعل ذلك و عيناه مشبعتان بالدموع.

- أهو الحطب أم النار؟ قالت سيدة المنزل وهي تحرق في عينيه مشجعة. أجابها الماوردي

- فقط من أجل إبعاد الحطب لتخف الحرارة قليلاً.

- لكن النار ستنتطفئ.

- وسنفقد الحرارة.. أليس كذلك؟ قال الماوردي.

- كلاهما لكليهما. ردت السيدة، وهي تدفع برزمة الحطب إلى داخل الموقد.

عاد الماوردي إلى مكانه وأشعل غليونه ذائباً في صوت أغنية فلكلورية كانت تتبعث من جهاز التسجيل. كان يشعر بأن الأغاني الجميلة تتحول في بعض الأوقات إلى ما يشبه المحاربيث التي تستعمل لقلب التربة. وها هي تفعل فيه ذلك في أرضيه تماماً.

"لا مفرّ من المحاربيث والعجلات والكاجب. هل يحتاج الهروب من الموت لكل هذا الذي يحصل لك يا ماوردي؟ ثم إلى أين ستفرّ والمهربّ غائب عن بيته حتى هذه الساعة التي قاربت منتصف الليل؟ فهل هرب هو الآخر؟ قالها لنفسه وهو يبتسم. وأضاف:

أين عواطفك إزاء النسوة. والتي كانت أشبه بالزلزال؟ أنت الذي دخلت تاريخهن على يد تلك الخيطة الجميلة. فعلمتكَ الجنس، يوم لم تكن قد بلغت الثالثة عشر من العمر؟ هل مات كل شيء في قلبك، وصرت لا تبحث إلا عن الملاجئ والأقبية ودروب الهروب؟ لا تقل ليس هذا هو الوقت المناسب. فيوم للهرس تحت عجالات الأمن. و يوم آخر للإنهراس في حب النساء يا ماوردي."

قطعت سيدة المنزل على الماوردي أفكاره التي ذهبت به بعيداً. عندما دعت له لأن ينزع الوشاح عن رقبته ويلقيه لنار الموقد. وعندما حاول الاعتراض على مثل هذا الأمر، قالت له السيدات:

"إنها تقاليد المنزل التي لا مناص منها!"

وفهم الماوردي فيما بعد اللغز. فالوشاح يقدم هنا كقربان للنار. أما هو فسيقدم كقربان لنيران أخرى.. ربما لسيدة المنزل!

"أجل.. إنها النار. فلا تكن في ضيق من أمرك. فاترك الحبل على الغارب يا ماوردي، وليحدث ما يحدث. اعتبر نفسك ميتاً في حادثة سقوط طائرة في المحيط الأطلسي. أو شهيداً في الحرب العالمية الثانية أو فيتنام. قل إن أمي قد أجهضتني وأنا في الشهر الأول. قل إن نمرأ كهذا الذي تجلس على جلده المسلوخ، قد طبخ لحمك بين أسنانه وأنت في رحلة سفاري في تنزانيا أو موزمبيق. اعتبر أن سور الصين قد وقع على رأسك وهرسه كرأس الباذنجان. قل عن موتك أي شيء، وخلصني يا ماوردي. فلن يكتب أحد سيرتك الذاتية. فمثلما نفقت أرواح الآخرين، ستلفظ أنفاسك أنت ولو كنت في الأبراج المشيدة."

نهضت النسوة الخمس من مقاعدهن باتجاه الماوردي. أربعة منهن حملنه وهو على كرسيه كالإمبراطور. فيما حملت الخامسة صينية من الفضة عليها مقص ومنديل أبيض. وتوجه الموكب نحو مكان مجاور لغرفة النوم.

إنها "غرفة النزهة"، كما قالت ذلك سيدة المنزل، وهي ترحب بالضيف الماوردي الذي ظل متمسراً على كرسيه كالمثال.

أخرجت إحدى السيدات علبة معدنية صغيرة من جارور كان يقع في زاوية الغرفة، ثم قامت بنزع الغطاء عنها، ثم دلقت بمحتوياته على ثوب الماوردي قائلة له بصوت فيه شيء من التهديد:

"هذا حبر الكتابة. ونحن نريد حبرك؟"

خيم الذهول على وجه الماوردي. "ما هذا الجنون الذي يحدث؟"

إلا أن سيدة المنزل، تناولت المقص من الصينية الفضية، وشرعت بقص الثوب الأبيض للضيف. من الأسفل إلى أعلى الزيق. وعندما تم ذلك، سارعت النساء إلى خلعه نهائياً.. لتظهر بعد ذلك جميع أراضي الماوردي عارية، كما لو أنها صحارى يبتلعها الصمت و الخوف.

"حان وقت الأجل يا ماوردي. فسوف تُقطع إرباً إرباً كالثور في هذه المؤامرة الدنيئة، كما قُطعت رقاب الكثير من الأمراء في قصور الكونتيسات. ألسن هنّ من طراز تلك النسوة ومن فضيلتهن؟!"

"كلا. فلا بدّ من أن تحتفظ برباطة جأشك. فهذه الطقوس، ليست أكثر من صور تتذكرها لأبطال من تلك القرون."

"ما عليك الاستسلام للنساء. فهن المكائد بعينها. فقد يقطعن جسمك عضواً تلو الآخر. وعندما ستستفسر عن معنى ذلك، سيجين: من أجل تسهيل عملية تهريبه عبر الحدود!"

"طيب. المهم أن تصل إلى هناك، فقد تجد من يجمع لك جسدك مرة أخرى."

"كل شيء يهون يا ماوردي. المهم أن تعبر الحدود."

"و ما أدراك.. فقد تقع في حبك واحدة من نساء بلدان ما وراء الحدود.. فما الذي ستفعله آنذاك؟"

"بسيطة. قل لها بأنك من المنتمين إلى جمعيات الحب العذري."

"لماذا كثرة التفكير يا ماوردي. فقد تصبح هناك نجماً من النجوم التي تفتخر بها لجان الدفاع عن حقوق الإنسان وما شابهها. وتكون بذلك قد نلت الفرق."

-أنهض يا ماوردي. قالت سيدة المنزل.

-أنهض ولم لا. أجب ماوردي وهو يحس بتحول ساقيه إلى قصب جاف.

-بماذا تشعر يا ماوردي الآن. هل أنت خائف؟ اقتربت منه امرأة وهي تضع أصابعها في شعره.

- ماوردي لا يخاف حتى وإن تحول جسده إلى لحم مفروم.

- ولم الفرم والقطع يا ماوردي. نحن لا نريد أن نفعل شيئاً من هذا القبيل.

قالت له سيدة المنزل وهي تبتسم تلك الابتسامة التي لا غبار عليها. فنحن رهانك. فلا تفكر بعكس ذلك.

- وما هذا الذي يحدث لي هنا بحق السماء؟ قال ذلك ماوردي بصوت مختنق، والدموع تتقافز من عينيه ككرات البلياردو.

- لا شيء يا ماوردي، إنها الفرجة فقط فأنت في مدينة العسكر العريقة. كل الرجال في واجب الخدمة. وهم بخلاء علينا يا ماوردي إلى حدود أنهم لا ينامون مع نساءهم إلا في المناسبات ولا يأكلون إلا من القصة. فقل ماذا تفعل نساء مثلنا، وهن في مثل هذا الوضع من الشباب والجمال؟

سمع ماوردي ذلك من سيدة المنزل، وكأنها سفينة تجهش بالبكاء. وبدأ يستعيد شجاعته بالتدريج.

"أهنّ يخدعني بإسناد دور البطولة لي في هذا المنزل اللعين؟ أم ما سمعت من كلام، هو هراء بهراء، وسيكون القادم أعظم؟"

"ولكن.. هذه السيدة متألمة حقاً. امرأة تلتهم النيران جسدها وأفاسها وثيابها. حتى أن نحياً خافتاً ينبعث من خلاياها باللؤلؤ .

تقدمت النسوة الأخريات خطوات من ماوردي، فشكّلن دائرة حوله، هو نقطة قطرها.

"يا رب.. حتماً سيأتي الرجل المهرب ويقتلني شر قتلة"

"كلا. فربما يكون هو متعلقاً بعشيقته، ويحاول التخلص من زوجته وزمرتها. آنذاك سأقنعه بضرورة تهريب النساء معي. سأعده بالكثير من الدولارات، عندما أصل إلى هناك. فالدولارات في العالم الخارجي كأشجار اليوكالبتوس. سألتقط الكثير من أوراقها. وحتماً.. سيقتنع الرجل و يقوم بشحننا سوية في سيارات تهريب الأغنام و الأسلحة و صناديق الشاي والسكاكر الأجنبية. بعدها سأخبر أُمي بأنني سأتزوج من إحداهن.

أجل. سأكتب لها ذلك في رسالة ستصلها وعلى غلافها طابع أجنبي عليه صورة أرنب أو سمكة. سوف توافق أُمي على طلبي حتماً. بعد أن تطوف على بيوت الجيران لمناكدة بعض بناتهم

اللاتي أعرفنهن. أجل ستقول أمي لهن، بأن ابنها أصبح يحكي بالأجنبي. وقد أصبح زوجاً لامرأة من الكريستال. ولن أنسى أن أخبرها أيضاً، عن كتبي التي صدرت في الخارج، و كيف لاقت الكثير من الرواج، وأن ابنها أصبح شهيراً أكثر من رامبو وعادل إمام".

- ماذا قررت يا ماوردي؟ سألت السيدة.

- أن نواصل الشرب يا نساء السماء. رد الماوردي بسرعة البرق، وهو يلتهب جنوناً.

خلعت النسوة فساتينهن، بعد أن سرت النيران في رؤوس الشموع الوردية التي كانت تقوم على الطاولة المستديرة، فتحولت غرفة النزهة إلى مكان يحلم بدخوله القياصرة. وعندما أخذت النسوة مواضعهن، كل واحدة على مقعد مكسو بالفراء، كانت السيدة، هي الوحيدة التي حافظت على بقاء نهديها كشلالين في غلافيهما، دون أن تترك الفرصة لعيني كي تبصرا مساقط أمواجهما التي بدأ طغيانها ينتشر في داخلي.

" ألم أقل لك يا ماوردي أن في الجمال قوة تدميرية لا تتحملها أعصابك؟ وأنت، مثلما سال منك اللعاب تشوقاً ولهفة على البنات في الماضي، سيُسبِل دمك وروحك ودماعك الآن. ست نساء وأنت. كأنهن أيام أسبوع لا ينفصل أحدها عن الآخر، حتى وإن أشعلت الحرائق في التاريخ."

- يبدو أنك قد أشبعت نوماً يا ماوردي. فانفض. لقد قاربت الساعة الثالثة بعد الظهر. همست سيدة المنزل، في أنه وهي تراقب عينيه نصف المفتوحتين بين أغطية السرير البحرية.

- ما الذي جرى برب السماء؟ سألتها الماوردي، وكأنه يوجه ذلك السؤال إلى المرايا التي تتعكس فيها صورته ممزوجة مع الجسد العاري لسيدة المنزل التي تمددت إلى جانبه خارج الأغطية.

- إنها الساعة الثالثة حقاً. وفي هذا المنزل. من أعادني إلى هنا، أنا الذي اجتزت الحدود الدولية ليلة أمس؟ صرخ الماوردي وهو يعود إلى سابق حالته النفسية من اليوم الفائت.

- لم تجتز الحدود الدولية بعد. أنت اجتزت حدودنا يا ماوردي فقط. قالتها السيدة وهي تحاول الإبقاء على الماوردي في التخت، لتعيد الطمأنينة إلى قلبه الخابط.

- لا عليك. أريد الخروج من هنا فوراً. سأعبر الحدود بنفسي، ودون عون زوجك الغائب اللامبالي.

- اهدأ يا ماوردي. فستكون خارج الحدود بعد أيام. هذا آخر ما عندي لأقوله. فقد نحتاج بعض الوقت لإنجاح الترتيبات اللازمة لترحيلك من هنا.

أسمعته سيدة المنزل ذلك وهي تغادر السرير نحو خزانة الملابس.

يا للمصير الأسود الذي ينتظرك يا ماوردي. ها أنت معزول عن العالم الخارجي بين حيطان المنزل. في حين يبحث عنك الجميع: الرجال القساة والمارة والشرطة وباعة الجرائد والمجلات والأصدقاء في مقاهي الشرب والثقافة وبائع السكائر والمكوجي ونادل المطعم وموزع البريد وصديقك السمراء التي ما تزال تحلم بوضع يديها كالسوار حول عنقك. بل وربما يسأل عنك حتى أصدقاؤك من الموتى أو المعتقلين في تلك الألفية السحيقة.

أجل يا ماوردي.. الجميع يسأل عنك في الخارج. بينما أنت وبين نساء لا تعرف عنهن شيئاً. ولا كيف سيفعلن بك في هذه الإقامة التي لم تخترها. هل هنّ معذبات حقاً يا ماوردي؟ وما علاقتك

أنت بهن؟ هل سيدفع بك زوجها المهرب إلى خارج الحدود، أم أنك ستقع في قبضته مثلبساً بمخدع الخيانة الزوجية، فيذهب رأسك بساطوره العملاق الطويل، لتتحول إلى نفاية في نهاية الأمر؟

نهض الماوردي من السرير. ارتدى منامة وخرج من غرفة النوم. كان الصمت يضرب المنزل. فلم يكن من أحد هناك سوى سيدة المنزل التي جلست إلى جانب جهاز التلفون، وكأنها تنتظر خبراً مفاجئاً تتوقعه. وما أن رأت السيدة الماوردي، حتى رسمت له ابتسامة جافة على شففتها لم يستغرب. فتقدم منها وكشكش شعرها بأصابعه. أمسكت له يده النحيلة المرتجفة، لتضع في أحد أصابعه خاتماً وهي تقول: "إبه للذكرى".

ومضيفة: "كانت قصائدك رائعة الليلة الماضية. وقد حركت فينا الزلازل يا ماوردي".

وأثناء ما كانت هي تحرك جهاز التسجيل لتبعث أغنية لفيروز. برن فجأة جرس الهاتف ويقطع الأغنية. تتناول السماعة وتتحدث بخفوت. فيما راح الماوردي يقرأ ما قد يطرأ على وجه السيدة من تفاصيل.

أعدت السيدة السماعة إلى مكانها. وتطلعت إلى وجه الماوردي، وسرعان ما أجهشت بالبكاء.

" يا إلهي. لقد بصقت حياتك يا ماوردي. فيبدو أن الأخبار سيئة. أين ستقر من هذا المكان الملعون ومن هذه المرأة اللعينة التي رمت بلحمك للضباح. كم قرأت من الكتب التي تحدثت عن مؤامرات النساء. وما أنت في الطريق إلى دائرة الأمن. أي فرع؟ الله أعلم."

فهنالك يا ماوردي ستعترف بكل شيء. حتى أذيتك ستعترف. ولو لم تفعل ذلك، فستُصر حتى ينفر الدم من جلدتها. ثيابك هذه، ستحول ورقاً للاعتراف. ستقول لهم أنني لمي لا أجد القراءة والكتابة. عندها سيقولون لك: طيب! سنعلمك ذلك بسرعة بواسطة الأستاذ التيار الكهربائي عبر دماغك. وأذاك يا ماوردي سنتقن كل اللغات بسرعة البرق. فالمهم أن تعترف. وتكتب حتى ولو بالخط المسماري. فالحكومة تعرف كل شيء عنك: كم خطوة قطعت قدمك منذ ولادتك وحتى الآن. وكم قصيدة من قصائد الضد في رأسك. وكم قميصاً ارتديت. ومع من نمت من البنات. ألم تدخن أنت سكاثر "سومر" طيب. الحكومة ستعرف ذلك من لون القطران الذي يغلف أسنانك. فأنت من حاول اغتيال الرئيس ونائبه. وأنت من تحرش بزوجة مدير المخابرات وأنت وأنت... أجل ستعترف بكل هذا وأكثر يا ماوردي. فأنت عميل كبير لدولة أجنبية. وأنت من يطبع ويوزع منشورات المعارضة. وأنت من يدبّر حوادث العنف والتفجيرات. وأنت من اغتال فلان وعلان. وأنت من يدبر شبكة تزوير الجوازات والوثائق الرسمية. بل ، أنت أيضاً من يهرب الناس عبر الحدود يا ماوردي. تقبض بالعملة الصعبة وتساهم بدفع نفقات مصاريف الأحزاب والمنظمات المعادية. ثم، ما المانع الذي يحول دون اعترافك بكل الجرائم التي سيلصقونها بك يا ماوردي؟ فربما سيصدقونك. فتخرج معافى كما دخلت. بل و يطلبون منك العذر والسماح عن هذا الخطأ. آنذاك، يحق لك توبيخهم. بل لطم وجوههم بالصفعات إذا ما رغبت. ولكن هل سيتسنى لك ذلك يا ماوردي؟ وهل ثمة من دخل تلك السجون، وخرج معافى؟ سيطحنونك كالسجق بالفلل الهندي الأحمر. إلى أن يصرخ كل عضو داخل الكيس قائلاً: أنا سأعترف أولاً.

هل تتذكر كيس الخيش الذي سيضعون فيه جسدك مع مجموعة من القطط البرية المتوحشة.. ويقومون بركلها بواسطة أذيتهم السمية وسيطاهم البلاستيكية الغليظة؟

أجل يا ماوردي.. سيضعون أمام فمك سطلاً واسعاً وعميقاً، كي تتقياً فيه جنسك البشري وثقافتك وأحذيتك ودماعك أخيراً. كل تلك المتقيئات، ستطفو أمامك في السطل. وقيل أن تنتهي من الاعتراف يا ماوردي، يجيئون بحبيبتك. أمك، أختك، ينزعون عنها الثياب ثم ... أمام عينيك حتى ينتفخ رحمها بألف طفل في الليلة الواحدة . أما إذا رغب القضاة الذين يجلسون أمامك في العتمة، دون أن ترى وجه أحد منهم. فلن يدعونك تتقياً دماغك بسرعة. فسيطلبون من أحد جلاذيتهم بإجراء اللازم. هل تعرف جيداً يا ماوردي ماذا يعني "إجراء اللازم" هناك؟

سيفتحون شقاً في صدرك . يضعون فيه بعض الحشرات تحت الجلد، ثم يعيدون خياطة الجرح. فما ستفعل آنذاك ..ويداك وقدماك مربوطة بحلقات الحديد في الجدار؟ كيف تزيد الحرية يا ماوردي .بسعر المكنسة أم بسعر الثوم؟

- ستغادرنا الليلة ياموردي .جملة غامضة قالتها له السيدة وهي تعانقه وتنتحب .

- إلى حفلة السلخ يا أبنة....؟لم تدع الماوردي يكمل .فاستطردت:

- كلا ياموردي .بل لاجتياز الحدود.

مادت أرض الصالون تحت قدمي الماوردي ،وهو يتصبب عرقاً. وفجأة حمل سيدة المنزل بين ذراعيه وكاد يطير بها كالنسر العملاق. فهذه المرأة رائعة وطيبة .لم تكن كما كان يظن بها من دقائق. امرأة لا تريد له شراً. وسوف لن تقوم بتمكين الحكومة من جعله نفاية. كان الماوردي يشعر بتطاير النيران من جسده.

" ربما هي الصاعقة التي سوف تأكلني نهائياً قبل الرحيل."

هكذا كان يردد الماوردي في نفسه. وهو يهتز ويغوص في موجة من الزيت على أريكة الصالون . وكأن سيدة المنزل بغمها، تحاول سحب روحه من تلك الأعماق السحيقة. كان يفعل ويبتكر ويقول مررداً

الغيبات كل ما تعلمنه من الفنون الجميلة رسم ونحت الصور والتماثيل العارية.

- هل سنتذكرني يا ماوردي هناك؟ أم ستبلغ بك الحماسة إلى حد وصفي بالمرأة العاهرة التي قضيت معها يوماً كامل الجنون، بين الرعب والحب؟ امرأة لم تكن تعرفها أبداً تؤويك في منزلها بعيداً عن عيون الرجال القساء، تحبك ليوم ونصف، ثم تقول لك وداعاً بعد ذلك!

ارتطمت كلمات السيدة في رأس الماوردي ارتطام الموج على حافة صخرية لخليج ضيق. فقد كانت تحمل بين طياتها كل ما كان يشغل باله، بعدما وجد نفسه أسيراً في مثل هذا الوضع الغرائبي القريب من عالم الفنتازيا الدراماتيكية. فلا وقت للأسئلة هنا، كما يعتقد الماوردي، لأنها قد تفسد كل شيء في المكان الذي هو فيه. وربما لن ترضخ السيدة للكشف عن العالم السري للمنزل. فيما لو كان الماوردي، حاول التنقيب عن الحقائق. فالبيوت أسرار. ولن تقوض السيدة ولا كذلك النسوة الأخريات اللعبة التي تجري هنا. فمتلماً دخلت بصمت يا ماوردي.. اخرج بصمت. فليس هذا المنزل هو ما تهتم به. ولو كان الشيطان هو الذي سيجملك على ظهره لاجتياز الحدود، فستركب ظهره لترحل. قل ذلك وكل شيء إذا رغبت. وليحل الخرس على كل قامتك الآن. اخرس. فأنت ما تزال تحتضن المرأة كالسور. ولم يأت المهرب أو الشيطان لنقل جسدك إلى الحدود. أنت هنا رفات يا ماوردي. وتحل عليك الشفقة، مثلما يفعل الناس الطيبون ذلك مع القطط الصغيرة المشردة تحت المطر.

- فاجأ الماوردي نهوض السيدة من بين يديه لثرتدي ثيابها.
- بالمناسبة.. هل تريد شرباً بارداً أم تتناول شيئاً من الطعام. ملتفتة إلى الماوردي.
 - كلا أفضل القهوة. هل تسمحين لي بإعدادها؟
 - و لكن لم تتناول الطعام منذ البارحة؟
 - لا أستطيع الآن. شكراً.

وفيما كانت السيدة تعد القهوة في المطبخ، سمع الماوردي جرس الباب يدق. فسقط قلبه من الهلع. لكن السيدة أشارت له بإصبعها نحو غرفة النزهة، ليختبئ بها. وفعل ذلك فوراً. ومن خلال شقوق ستائر النافذة المطلة على الصالون، راح الماوردي يسترق النظر لمعرفة من القادم. هل اكتشفوا المخبأ و جاءوا للقبض عليك؟ للحظات كان هذا الاعتقاد ما يساوره. وعندما فتحت السيدة الباب، سرعان ما دخل شخص بملابس عسكرية، شاب لم يتجاوز من العمر عشرين عاماً، كما خمن ذلك الماوردي. طفر قلب الماوردي إلى فمه.. وكاد يلفظه مع أنفاسه لولا أنه رأى السيدة تعانق الشخص وترحب به بلطف. فبدأت المخاوف تهدأ. بل تهبط مثل عداد سرعة السيارة عند التوقف. ولكن ربما يكون الشخص هو زوجها المهرَّب.. وإلا لما سمحت لنفسها أن تجلس أمامه وهي في هذا الثوب الشفاف الذي تتلأأ منه مفاتنتها؟!!

" غير شكوكك أيها الماوردي القذر. أنظر.. إنه يشرب معها فنجان قهوتك بدلاً منك يا ماوردي. أنظر.. إنها تتشغل عنه لنقرأ في الصحف التي جلبها إليها معه. حتماً السيدة مثقفة وشغوفة بالأخبار السياسية و الاقتصادية. وإلا لم تتركه وشأنه.. يفترس جسدها بنظراته، ثم يرتجف مثل تلك الارتجافة اللعينة. اسمع يا ماوردي: هذا المنزل غريب.

" طيب. عد بعد ساعة من الآن. وسأكون جاهزة!"

قبّلت السيدة الشاب وهي تودعه عند الباب الخارجي. لتدخل بعدها على الماوردي الذي كان غارقاً في مغطس من العرق الساخن.

" هل هي الغيرة يا ماوردي؟ قالت له ذلك وهي تشده للجلوس فوق الأغطية المبعثرة على أرض الغرفة."

" إنه غلام زوجي في الثكنة. أليس وسيماً؟" وبدأت السيدة تضحك، وهي تداعب شفتي الماوردي بحزمة من شعرها الذي تمسكه بيدها."

" إنه مخلص لي. ويجن في حبي. تصور أنه ورث هذا المنزل عن والده، ليتركه لي ولصديقاتي في أوقات النزهة السرية التي نمارس فيها طقوسنا للترويج عن النفس. أنا أتركه يفعل ذلك دائماً. ولو كنت قد منحته جسدي، لكانت الأمور قد وصلت إلى نهايتها معه!!!"

وماذا يفعل هذا الشاب؟

" إنه مرافق زوجي. يتجسس لي عليه. ويترصد لي أخباره طيلة أيام الأسبوع الذي يكون خلالها في المعسكر، عدا أيام العطل الرسمية طبعاً، والتي كثيراً ما يضمها الزوج إلى قائمة العمل.. فيعتذر عن الحضور إلى البيت. علماً بأن زوجي هو مدير المخبرات في المنطقة!"

وأضافت السيدة قائلة:

" اسمع. بعد ساعة سنكون معه في سيارة جيب تحمل رقماً عسكرياً. أنا سأعود إلى بيتي الواقع على الطريق، وأنت تغادر المدينة يا ماوردي لاجتياز الحدود. أقصد لمفارقتي."

قالتها وكأنها ستفقد آخر رجل على سطح الأرض.

يرن الجرس و يدخل الشاب الوسيم. فتقول له السيدة:

" هذا هو الشخص الذي حدثتك عنه. لقد وصل إلى هنا توأ. أريد الاعتناء به والحفاظ على حياته بأي ثمن. خذ هذه وثائقه فقد تحتاجها على الطريق."

تحدثت السيدة مع الشاب العسكري بلهجة حازمة. لنستقل نحن الثلاثة الجيب. ثم لتتطلق السيارة وهي تتبلع الطريق. و قبل الخروج من المدينة، وقف العسكري بسيارته، فودعت السيدة الماوردي بكلمات قليلة. لتدخل باب منزلها بعد ذلك و تختفي. ومن ثم لتتطلق الجيب من جديد بالصعود نحو الطرقات العالية بين الجبال.

أخذ الماوردي يتصفح جوانب الطريق على الرغم من صعوبة الرؤية في وقت مبكر من فبراير. لم تكن رؤية الأشياء بوضوح ممكنة، إلا أنه كان يشعر بمرارة تكاد أن تجعل من فمه باباً خشبياً. هل تكون هي آخر الساعات أيها الوطن. آه. ما أفسى أن أودعك ، أنا مثل طير عل خطوط هواء تلتهب بينها النيران. أي تاريخ سنكتب عنك فيما وراء الحدود؟

بعد مضي ساعة، بدأ الزلزال ينخر في معدته.. إلا أن الماوردي كان يقول لا بأس. فمرض القرحة ليس أشد هلاكاً من الفراق الذي بدأت حرارته بالارتفاع قبل اجتياز الحدود.

تناول سائق الجيب كيساً من النايلون من حقيبة كانت خلف المقعد. وقال للماوردي:

" تفضل، إنه مخصص لك من السيدة. طعام سفر."

انفجرت أسارير الماوردي، حينما سمع ذلك من السائق. فتقاسما السنديشات بنهم سوية. فيما كانت السيارة تلتهم الطريق كحجرة ضخمة وسط الظلام. غنّ يا ماوردي تلك الأغنية التي كثيراً ما أحببتها. حاول أن تكسر هذا الصمت وتنزع نفسك من الوحشة والأفكار المضنية التي تحفر رأسك.

كلا. لن أفعل ذلك الآن. قال ذلك الماوردي وهو ينظر إلى ساعته.

- كم بقي لك.. لنبلغ الحدود يا صديقي؟ سأله الماوردي.

- سنحتاج إلى ساعتين على أبعد تقدير. بعدها سيكون الأمر بخير.

- هل ثمة عقبات أمامنا؟

- نقطة تفتيش واحدة عسكرية على الطريق. أجايبه السائق، مناوياً إياه مغلفاً ورقياً.

تناول الماوردي ذلك وفض المغلف على ضوء عداد السرعة الخافت. هذه هي أوراقك الثبوتية إذن؟ وهكذا يكون اسمك يا ماوردي الآن؟ كل شيء جديد: اسمك الشخصي والعائلي، تاريخ الميلاد، المهنة، مكان الولادة، السكن، فقط صورتك يا ماوردي، لم تتغير. أليس هذا هو ما ترغب به يا أحمق؟!

أن تنجو بنفسك وتترك الآخرين في أتون الجحيم؟ لن يتحقق لك هذا الشرف يا ماوردي. فأنت الآن على الطريق. تسبق الريح للقاء مصيرك الذي سينتهي في نقطة التفتيش القادمة. فصورك ستكون منشورة لدى كل المفارز والنقاط. واسمك على القائمة. أجل اسمك في أول القائمة لأنه سهل وحروفه تشكّل أجمل مارش موسيقي يحبه الجنود:

" ماوردي.. ماوردي.. ماوردي."

بعد دقائق من العاصفة التي أكلت الماوردي وبصقت عظامه في الوديان السفلى. توقفت السيارة عند نقطة التفتيش العسكرية. كان يتفحص وجوه حراس نقطة التفتيش بنصف عين، وكأنه يتنفس غبار الأرض.

" الماوردي ليس هنا. الماوردي مات منذ قرون. الماوردي الذي تبحثون عنه سلمته امرأة للسلطات، وقد اعترف بكل الجرائم القذرة التي ألصقت به. لذلك فالماوردي المتهم بالخيانة العظمى. لا مكان له داخل سيارة الجيب العسكرية المحترمة التي تقف أمامكم يا حراس البوابة الشمالية لبلد العلجوم." هكذا حدث الماوردي نفسه.

" خذوا يا أولاد الكلاب. إنها سكاثر أجنبية لم تذوقوا طعمها من قبل!"

رمى السائق بعلب السكاثر إليهم، وهم يبتسمون إليه. وانطلق بالسيارة مخلفاً وراءه حاجز مفرزة المخابرات العسكرية.

" إنهم عناصر لطفاء. ومن الأصدقاء الذي أفضي معهم خدمتي العسكرية عند سيدي ضابط الأمن."

لم يكن الماوردي مصدقاً لما سمعه من السائق الذي معه.

" لماذا لم نقل لي ذلك أيها الشاب؟"

سأله الماوردي، وهو يغلي من الحنق. فقد فكر بقذف جثة السائق من النافذة نحو الوديان السحيقة.

- لو كنت أعلم بكل هذا العز الذي تتمتع به، لما تخثر دمي خوفاً من مفرزة الأمن!

- إنها أوامر سيدتي!

- أوامر!! سأله الماوردي.

- لم يحدث شيء. فيعد نصف ساعة تقريباً، سنصل إلى هناك. وأكون بذلك قد بلغت رضى مولاتي. ثم لم أنت خائف يا سيد؟ هل حدث لك مكروه. أنا لا أعرف شيئاً عنك. بل ولا حتى اسمك. لقد أمرتني سيدتي أن آتي بك إلى هنا فقط. وهذا كل ما أفعله كما ترى. هل ثمة خطأ ارتكبه كما تعتقد؟

- كلا. إنس الموضوع. فما تقلقني هي السرعة بين الجبال. هكذا تلثم الماوردي مضطرباً، وفكر بأن لا يطلع السائق على أية تفاصيل، عندما بلغه أنه لا يعرف شيئاً. ربما!

- هل تود سماع شيء من الراديو، أو أغنية من آلة التسجيل؟ سأله السائق دون أن ينظر إليه.

- ردّ الماوردي بالنفي.

أية أغان و أية رغبات لديك لسماع ذلك، وأنت تحت مدحلة الذعر. ربما بعد الحدود،، ستستمع إلى كل ما هو تافه من الحكى والغناء و الثرثرات. و سنقول بالطبع كل ما كان يقوله المغتربون في رسائلهم الموجهة إلى الأهل والأصدقاء:

" لقد أصبحنا نحب حتى طنين الذباب في الخارج. فالحنين في بلاد الغربية، ربما يبرر كل تفاهة نقترفها!!"

- وأنت. موجهاً كلامه إلى السائق: هل تحبّ الأغاني، أو سبق لك وأن مارست الغناء؟
قالها الماوردي لتقطيع الوقت. "شخصان لا يعرفان بعضهما بعضاً. ماذا تكون الأسئلة؟"
- ليس الغناء وحده، بل وهواية جمع الطوابع أيضاً. أجاب السائق مبتهجاً!

إذن. هذا الولد يحب السفر إلى الخارج. أليس كل من يمارس هواية جمع الطوابع، بنظرك يا ماوردي، لا بدّ وأن يكون من الحالمين بلف العالم. إذن يا ماوردي.. فربما ستعثر على هذا الغلام ذات يوم، وهو يتسكع في مدينة من مدن الخارج. كعازف قيثارة على الرصيف أو كمدمن خمر أو مخدرات.

- ولديك رغبة بالسفر نحو الخارج.. أليس كذلك؟

- ليس قبل أن أنهى خدمتي العسكرية. فكل الجنود والضباط والمراتب لديها نفس الرغبة. نحن نتحدث عن ذلك يوماً في التكنة. إلا أن الإفصاح عن موضوعات السفر للخارج ممنوع. لكن، ربما ستحقق كل شيء لاحقاً. فرغبات الناس هي حقائق المستقبل.

قالها السائق وهو ينعطف بالجيب نحو شارع فرعي يتناثر على ضفتيه القليل من البيوت التي كأنها مشيدة من الصخر، مشيراً بإصبعه: "هذا هو المكان". فهبطنا من السيارة ودخلنا. حانة صغيرة. يتوزع مقاعدها حوالي عشرين شخصاً. سحب السائق لي كرسيّاً من الخشب وقال: "تفضل. سأنادي العم."

من هؤلاء يا ماوردي؟ حانة وفي آخر الدنيا! ربما هم الذين يصححون مسار الحياة، ليعيدوا الأرواح الهاربة إلى نصابها الطبيعي والفني. ولكن الليل هنا، يسيل كمادة الغراء الأسود. وكأن الأرض التي عليها أقدامنا، ضربها زلزال ليخلف كل هذا الصمت في أثره. لا. فلتنكح حذراً يا ماوردي. فربما ستأخذ الخمرة بعقول هؤلاء، فيتشاجرون ويطلقون النار من مسدساتهم وأسلحتهم الأخرى، فتضيع عليك فرصة الهرب.

تقول تأخذ عقولهم الخمرة يا ماوردي؟

كلا. فكلامك سخيّف وضحل. فلو شرب الواحد من هؤلاء شلالاً من الخمرة، لما تحرك دماغه بوصة واحدة عن مكانها. فكأنهم يملأون رؤوسهم بشيء غير الأدمغة: بالصخر أو الهواء مثلاً.

" أهكذا أنت مقتنع يا ماوردي؟ ليكن لك ما تشاء. ولكن اعتبر بأن شجاعتك المفاجئة للسخرية من هؤلاء، والتي نزلت عليك الآن وأنت في هذا المكان المعزول عن العالم، هي دمية ضخمة لا تستطيع تقديم العون إليك في حانة أشبه بحانات شيكاغو. وأنت ليس إلا كاهة في زجاجة مقفلة."

- أهلاً بك. هل تفضل العرق أم البيرة؟ الدجاج المشوي على الفحم أم لحم الخروف؟

قال الرجل ذلك للماوردي قبل أن يسحب كرسيه ويجلس إلى الطاولة في جواره.

- هل من الضروري ذلك؟

- طبعاً. فأنت ضيفنا الآن. ولا بد من بعض الطعام قبل أن نرحل.

- ليكن العرق ولحم الخروف. العرق لإعادة تدفق الدم من جديد إلى الجسد، واللحم من أجل كبح تدفق العرق إلى الدماغ بسرعة. أليست هذه هي المعادلة، كي لا يتقوض الجسد بسرعة البرق؟ قالها الماوردي لإضفاء الطرافة على الحديث مع هذا الرجل الذي لا يبدو أنه بلا فائدة.

لم تطل الاستراحة طويلاً.. إلا وكان الجميع في سيارة اللاندروفر. مسلح إلى جانب السائق. واثنان في مؤخرة السيارة. وشخص ملثم و الماوردي في الوسط. وانطلقت اللاندروفر بالاتجاه المرسوم لها. كانت الجبال مظلمة على الرغم من كثافة الثلوج التي كانت تغطيها. مظلمة مثل قلب الماوردي الذي يغلي الدم في عروقه تحدياً للجليد الذي يغطي كل مساحة الجسد. ولم تمض ساعتان من الصمت المطبق الذي كان يغلفنا جميعاً، حتى بدأت السيارة تغرز عجلاتها في وحول الطريق.. كأن تلك العجلات وقد عجزت عن الإفلات من إحدى الحفر، الأمر الذي اضطرنا للنزول منها في محاولة لدفعها خارج المطب. ففشلنا. بعد ذلك قمنا بخلع سترنا السميك ووضعتها تحت الدواليب من أجل عزلها عن الطين، علّ السيارة تتمكن من الخروج، وحصل ذلك بالفعل. فواصلنا الانطلاق مجدداً ونحن تحت تأثير البرد الذي كان يدق مساميره في الحواس.

توقفت السيارة على تل يطل على نهر غاضب التدفق. وهناك أخبرنا المرافقون بالنزول. فقلعنا ذلك. بعدها توجهوا بنا نحو ضفة النهر، لنستقل تلك الدواليب المطاطية للتركتورات.. وقطعنا مياه النهر السريعة وأجسادنا كأنها من شرائح الصفيح. فبرد فبرابر يقص العظام ويعفن العقل.

كل شيء انتهى يا ماوردي. فما أنت وقد عبرت الحدود. كل شيء انتهى يا ماوردي. وها أنت تحت الأغطية وأمامك المواقف النفطية وجفونك من ريش ينطبق بعضه على بعضه لتخدم في النوم. فاحلم أيها الهارب كيفما اتفق. فالصباح الذي بدأ يشق الفضاء بأنفاسه، سوف لن يركلك لتنهض من أجل الاعتراف بشيء. ولهذا جهز نفسك لموهبة المنفى الجديد!

لم يقو دماغ الماوردي بعد، على استعادة توجهه. بل لم يخطر بباله حتى أن يحلم بشيء محدد. فالنوم سرقة كل مدخرات الخوف الكامن في علبة الرأس. ولم يبق هناك سوى فكرة واحدة: أن ينام لقرن من الزمن. وفي النهاية التي لا بد منها، سينهض الماوردي لرؤية مدن غير تلك التي كانت. وناس غير أولئك الذين كانوا. وعملة ليست كتلك التي كانت تتداولها الناس في الماضي. ليس هذا هو الذي يفكر بابتكاره لنفسه. بل هي الصورة التي وجدها تتجسده وهو خارج الحدود للمرة الأولى في حياته. فقد خرج دون أن يرث شيئاً غير الخراب. فالماوردي لم يرث شيئاً عن جدّه الذي بدّد ثروة العائلة بالزواج من النساء: ذلك الإقطاعي الذي باع أراضي البساتين، من أجل ارضائهن، فكوّن جيشاً من الأطفال، كي يكون الماوردي واحداً من أحفاده خارج الحدود!

هذه هي المحطة الأولى فالصفحات فارغة و عليك أن تملأها بالطريقة التي تراها مناسبة. أن ترسم ديكورا أو تكتب أو تصمت. فلا شيء سيسبب لك الدوار على هذه الأرض الجديدة. أو هكذا.. دع العقل يتمتع بهكذا فلسفة في الخارج القادم إليه تواء من ذلك الأسر الذي كان محروساً بالموت. تذكر أنك أشبه بنيزك نصف محترق سقط من كوكب آخر. وأن ما ترجوه الآن، ليس غير رغبة أن تعيد بناء نفسك بالحرية الملونة كطيارات الطفولة. وبالتقافة والطبيعة والغرائز والجمال والأفاق من جديد. وهو ما يمكن أن يعيد لذاتك الأنسنة، ولو بالتدريج. فكأن كل من يولد على أرض العلجوم، يصبح شهيداً وهو في القمات!

العراقي - مثلما منقسم هو على نفسه، ترى عمره مُقسماً إلى أجزاء تاريخية، تمتد على طول جغرافية الزمن. فزمن الطفولة والدراسة باهت ودون حوافز. وزمن السياسة والفن قلق مليء بالقسوة. وزمن السجون والمنافي، تسكنه احتمالات العدم المفاجيء. وزمن الراحة والاستقرار، أمر مشكوك بتحقيقه حتى في القبر. فهناك الكثير من البشر، لم يحصلوا على قبر أو شهادة قبر، لكون السلطة لا تريد معلماً لهم. لذلك تحاول الحكومات استهلاك العمر، سواء بالحرب المفتوحة أم بالحروب قصيرة المدى. وكذلك تفعل الأحزاب السياسية، وإن بطرق أخرى، ما دام كل حزب يحتاج إلى قائمة طويلة من الشهداء. فالحزب الذي تنقصه صور وأسماء لقتلى، يُعدّ حزباً ناقصاً!

ما من عراقي فاز بعمر مستقل، فالحياة التي نعيش داخل عواصفها، ليست حياة، بقدر ما هي زريبة يحكمها المافيويون الجدد. وبأن المصير الذي ما زلنا ننتمي إليه، هو مصير لا يرضي أقل الحشرات تفاهة وشجاعة في عالمنا.

- أنت من أحفاد الإرث التراجيدي. ومتطرف أيضاً.

- كلا. أنا من سلالة المنشار!

أغمض عينيه طويلاً ليسبح في فراغ التاريخ. نادى على المواطنة - فلم يرى لها أثراً في الأفق.

بعد زمن من مكوثه في تلك المدينة التي أحبها بجنون، وجد الماوردي نفسه في المطار. شجرة سرو ضربتها الشبخوخة مبكراً. فشعر وهو يتجه نحو قاعة المغادرة، بأن قدميه تخونانه. هل تعطل المشي فيهما، أما لأن جذورهما استعصت، فلا تريد لتلك الشجرة أن تحلق بعيداً، أو أن تنمو في غير الأرض التي تشبع برائحتها؟

"إلى أوروبا يا رجل.. فهو المنفى الأقل كلفة من حروب الضباع"

الطائرة أمامك ياماوردي. إنها تجثم على صدرك في مثل هذا الوقت من الليل. فمتلما جاء بك ليل وأنت تحت جناحيه، سيأخذك الليل من هنا على جناحيه، لتختفي مرة أخرى عن مدينة جميلة ما تزال تنمو في خلاياك كشجرة الكرز. وعن بشر بهم من الروعة ما لا يمكن لزلزال أن يمحوم من هذه الذاكرة، على الرغم من تكاثر المعاول التي بدأت تتقب في أراضيها، ربما بهدف تحطيم الكنوز القديمة، ولأنك كالعربة المجنحة ياماوردي، فكثيراً ما كنت تسبق أفكارك وخيالاتك العجلات التي تسير فوقها على طبقات الأرض.

وإذا كان المنفى القادم صعباً يا ماوردي، فلأنه قطعة تراب أكثر من ذكريات وتراث. ولا بأس من قبول عنصر الخداع هذا، فربما سيغري أفكارك بالتقدم خطوة نحو الخيال. فعالم اليوم في نسيج اليأس، ننفذ إليه وكأننا حقائق. فيما نحن أشبه بدلافين وضعت سوية داخل اكواريوم مليء بأسمك القرش. والجميع فيه جزء من السيرك، ولأجل الفرجة الدراماتيكية فقط.

قبل أن تقلع الطائرة البولونية، تحدث مدير الخطوط موجهاً كلامه للماوردي: اجعل من شخصيتك شخصية بلهاء. قل لهم لو سألوك في المطار الأخير: كوبنهاغن. إن واحداً لا تعرف اسمه، هو الذي أركبني الطائرة، وبأنك لا تعرف اسم الخطوط التي أوصلتك إلى مطار امستردام. وبأنك لا تعرف القراءة والكتابة. ولا تعرف كم دفعت بالضبط من أجل التذاكر. هذا أفضل لك!!

يا للهول! يبدو أنك أصبحت أمياً ومغفلاً يا ماوردي. ولم تعرف كم من الدولارات دفعت ثمناً لبطاقات السفر. بل ويريد منك مدير الخطوط هذا، إن تتمثل الغباء بصورة فظيعة! ولم لا؟ أوليست هذه ضريبة المنفى الأولى، لتصل ولتستقر هناك؟ فأنت لم تستقل الطائرة كسفير مندوب لدولة. وأنت لم تذهب كرجل أعمال أو بائع ذهب أو عقيق أو بترول إلى بلاد الفرنجة. فأنت مُهرب مثل كل البضائع الممنوعة، وليس غير. ستصل إلى هناك، لتضع الآخرين تحت الأمر الواقع. فأن تقبل لاجئاً في أوروبا، فذلك ليس لأن الفرنجة عالم مليء بالدوافع الإنسانية، بل لأنهم لا يسمحون لأحد ما بالتفريط بسمعة بلدهم الديمقراطية وعدم احترامها لحقوق الإنسان. وكفي هذا يا ماوردي. فالذي لا بلد له، أشبه بالنعال على باب المسجد، يستطيع كل عابر سبيل إحتدائه في الوقت المناسب.

في مطار وارسو.. رأيت مدير مكتب الشركة الناقلة معنا هناك. ويبدو أنه بعدما أنهى التفاوض مع شرطة المطار: هذه حصنكم وهذه حصنتنا وتلك حصنة الشركة، عننا للطائرة من جديد لنحلق في السماء المليدة بالغيوم. لا تخف يا ماوردي. فأنت لست أهلاً لأن تدفع بجسدك من السماء نحو الأرض أو إلى أعماق البحار. فمازالت لديك فسحة من التاريخ لتملؤها بنفسك. ولكن لا تقبل

كل شيء من التاريخ أو تبرر كلية الماضي كما يفعل البعض. هل صحيح يا ماوردي: أن الذين بنوا التاريخ كانوا جميعاً من سكنة المنافي في العالم القديم والمتحضر؟

لا تعرف ذلك أنت. بل ومن أين لك أن تعرف وأنت ستهبط بعد قليل في مطار امستردام، كي يدققوا في جواز سفرك المزور، من أجل الحصول على ختم جديد يضاف لبقية الأختام الأخرى التي كادت تخنق أوراق الجواز بأخبارها؟! هل ستفتد بجلدك، فتستقل طائرة الـ SAS دون أن ترتاب بك الشرطة والعمال والكاميرات ومسؤولو الترانزيت؟

ماذا سيقولون عنك وهم يفتشون الحقيبة اليدوية، فلا يعثرون إلى على كتب وأشرطة كاسيت أكثر مما تحمل من ملابس؟ هل سيصدقون بأنك ذاهب لنيل إجازة الدكتوراه؟ شرق أوسطي وذاهب كالسائح إلى بلاد الدانمارك؟ إن لم تقلح في ذلك ياموردي.

فسوف يرمونك على ظهر أول بغل، أول باص، أول طائرة، أول قطار، أول سفينة لشحنك إلى بلادك، بعد أن يرفقوك بملف يتضمن التهم الموجهة إليك، وفي مقدمتها: التزوير ودخول البلد بصورة غير شرعية، وإلى ما وراء ذلك من تهم جاهزة.. فتكون بذلك قد بلعت رمال كبريات صحارى العالم.

عندما اجتاز الماوردي مكتب تدقيق الجوازات، وحصل على الأختام اللازمة من قبل تلك المرأة الهولندية الجميلة مع التذاكر، شعر كما لو أنه اجتاز مثلث برمودا الذي سبق وأن سمع وقرأ عن الأحوال التي تقع فيه. لم يجلس في الصالة للانتظار، بل توجه فوراً إلى البوابة التي تؤدي للطائرة. وقبل الصعود إلى هنا، قام بتمزيق جواز السفر المزور، فرمى قسماً من أوراقه في صندوق للقمامة في مطار امستردام، فيما قام برمي القسم المتبقي في تواليت الطائرة بعد إقلاعها بربع ساعة، وعاد إلى مقعده لبحثسي البيرة الدانماركية.

إنها"بيرتنا الوطنية الفاخرة"

هكذا علّق الماوردي و هو يتذوق طعم الجعة الدانماركية للمرة الأولى، وكأنه دانماركي ابن دانماركي ومن سلالة اسكندنافية تضرب جذورها في قدم تاريخ الفايكنغ. ليس مهماً ما إذا كان مذاق البيرة طيباً أم غير ذلك. بل المهم أن تساعد على الاسترخاء بسرعة البرق.

هنا تذكر الماوردي عرق الزحلوي والعصرية والريان وشارع لنواس واللاتيرنا والعجلوني والبطريق. وكيف كان الأصدقاء يدلقون محلول الحرير ذاك في دواخلهم، ليتحول فيما بعد إلى كتل صخرية من النزاعات، التي كثيراً ما كانت تنتهي الجلسات بالمعارك والهزائم والترهات السياسية والثقافية والفكرية.

- فكر أولاً بديمقراطية الخمر أيها المتعاطي؟

- إنه لغة داخل اللغة.. أليس هو كذلك؟

- بل هو نص يخلق شخوصه الميثافيزيين، ويطلقهم أحياناً ليرثوا الأرض التي نحن عليها.

- ولكن.. هذا من اغراءاتك الشعرية.

- كلا. إنه مسرح وصفي. لا يختار ممثلاً تافهاً ليروي لمستمع أتفه منه.

- إنك تقول ذلك وكأنك روح الخمر.

- وماذا تقول لمن يعتبر القلق لا قيمة له كنافذة فلسفية، وليس مادة صالحة لهدم الفلسفة؟

- أنا أبنّي ذاتي تحت المطر . فهل لك أن تدلني على معنای بهذا الصدد؟

- قد تموت من البرد قبل أن تبلغ ذلك المعنى، ولذلك لا تكلف نفسك عناء تلك المشقة.

هبطت الطائرة على أرض الدانمارك. ولم يحدث أن سقطنا في بحر الشمال. ولم يحدث أن خطفوا الطائرة بنا إلى مكان ما من العالم. بل ولم يقمع النوم عيون الكابتن، ليطوح جثمان الطائرة منفضة كالذباية في أعالي السماء. إنها كوينهاغن التي لم تنتسم رائحتها بعد. فانزل يا ماوردي كآخر الركاب وتقدم ببسالة الفرسان نحو الشرطي الواقف هناك، وقل له: أنا الماوردي الذي لم يكن له من الأوطان وطن. ولم يكن له من الحرية غير التابوت. ولم يكن له من الأموال إلا القصائد والحقول التي تنهب كل مساحة الدماغ.

ولم يكن له من الشوارع غير هذا الحذاء الذي تمرّن كثيراً على تسلّق الجبال وبلوغ الوديان السحيقة والهرولة بين الأنقاض والأطلال والمشى على الإسفلت السائل كدموع العذراوات، وعلى الرمال الملتهية كثرات الأفعى.

أجل قل ذلك للشرطي الذي هناك. وأضف: بأن الحكومة قطعت لك رأسك. وجعلت منك الأحزاب شوربة عدس. والمهربون نخالة حنطة. وها أنت بينهم فتافيت جمر، تكاد لا تتحملها أقوى الأفران ولا أعتى المواعد، بما في ذلك جهنم.

قل لهم أنني متهم بقتل الرئيس. أجل ضربته بقبيلة لم تبق منه أثراً على الأرض. قل أي شيء. فإنهم سيصدقون كل شيء، حتى وإن أفتعتهم بأن تمساحاً يسد منافذ بلعومك. أليس هذا ما قاله البعض لك!!؟

عندما قاد الشرطي الماوردي إلى الغرفة المخصصة للتحقيقات في المطار، وجد نفسه ملتصقاً على مقعد طويل لمدة تجاوزت في زمنها الساعة. بعد ذلك نودي على الماوردي كي يدخل الغرفة لاستجوابه بواسطة المترجم. آنذاك، قال الماوردي قصة الرحلة من الباب وحتى المحراب، ودون أن ينكر ذكر توصية الرجل المتعفن الذي قبض منه ألوف الدولارات ليرسله على متن تلك الخطوط البولونية التي امتص القاتمون عليها دم ودمع وروح وأمواك الكثير من البشر، ممن يحاولون الطيران فوق أحزانهم. وكان المحقق يستمع بشيء من الذهول إلى مثل النيران التي تخرج من فم الماوردي. فلم يعتد من الآخرين سماع الأشياء بمسمياتها، كما أراد مدير الشركة من الماوردي، أن يفعل ذلك بكل صفاقة وغباء داعر، ربما لم يعهده أحد من قبل.

كانت السماء تبعث إلى الأرض مطراً في مثل هذا اليوم الرابع عشر من تموز عام ١٩٨٩.. في الوقت الذي تنهب فيه السيارة الطريق. إلى أين؟ لا يعرف ذلك الماوردي. إلا أن الصباح سرعان ما استيقظ ليكشف له أنه في معسكر كبير البناءات وتحيط به أسوار: "الساندهوم". المعسكر المكان لتجميع اللاجئين القادمين إلى دولة جلاله الملكة مارغريتا ملكة الدانمارك.

"وماذا في ذلك أيها الماوردي القادم من الشرق إلى هذا القطب؟ تناول فطورك، ودع الشرطة وموظفي الصليب الأحمر تعمل ما تراه لك مناسباً. فأنت اللاجئ، وليسوا هم. لا تمتنع أو تبدي اعتراضاً على شيء. لا على الأسئلة ولا على التحقيقات. ولا على طريقة إغراق أصابعك ووجهك وقدميك بالبحر لتصوير البصمات!!

لا تمناع. ففي وطنك يتم تشريح جثتك وأنت حي، ولا يعترض أحد على ذلك! وحينما كنت تريد الحصول على هوية شخصية أو جواز للسفر، كانت حكومتك تقوم بتصويرك بالوجه والمقلوب عشرين مرة، وأنت كالدباية، لا ترفع عقيرتك بالاحتجاج أو الامتناع أو الغضب. إذن.. اسكت يا ماوردي هنا، حتى وإن رغبوا بصناعة فيلم منك الآن.. ما الضرر من ذلك يا ماوردي إذا كنت عاقلاً ومن غير فئة الذين يتسترون على بصمات أصابعهم خشية وقوعهم في المطبات."

بعد التصوير وأخذ البصمات للأصابع و التحقيقات، زُود الموردي بهوية الصليب الأحمر.. وهذا يعني علامة طبية ونجاح هائل. أي أن من يحصل عليها، كأنه نال شهادة الاستقلال من حكومة بلاده القديمة!

وبعد ذلك جاء اثنان من الصليب الأحمر ليخرج وإياهم إلى غرفة السكن في الطابق العلوي من المبنى المعسكر.

"تم الآن إلى ما لا نهاية!"

قالها الموردي وهو يلقي بجثته تحت الأغطية. ويضيع داخل النوم.

"كم من القرون وأنت تملك هذا الصندوق الخرافي للنوم يا موردي؟ كل من يأتي الآن، ويسأل عنك، أو يطرق الباب، فبإمكانك ألا ترد عليه بكلمة واحدة. فأنت في خزانة من حديد. والمفتاح تحت وسادتك يا موردي. ثم أنت لست هنا. ولست هنا حقاً. ماذا كنت تريد من هذا العالم غير الوسادة. وها هو رأسك يرفرف عليها وكأنه علم لجمهورية نالت استقلالها تواً. ينام ويحلم ويفكر و يقول. كل نصوص الفلسفة والفكر والأدب تبنى على تلك الوسادة، وفي الليل بالضبط. فالبشري، هو من ينحاز لليل أولاً. إنها متعة، أن تكون وحيداً لتعمل وسط العزلة التي لا يشاركك فيها أحد من الدخلاء. بعد ذلك لتختلط الأشياء تبعاً، ولا فرق لذلك يا موردي.. الوسادة هي الوجه الآخر للرأس. بل هي الأرض التي تضيء الأفكار والأحلام والذكريات."

أحياناً تأخذني الصفة طويلاً وأنا أتطلع في وجه البطل الفار من النص.
وكانه حقل من حشيش الكيف. فتصاب أجهزتي الدقيقة بالبلادة. وأحياناً اسقط
بين الجمل الطويلة كالجنازة، تفضحني أميتي في النحو والصرف، فأرفع وأنصب
وأجر وفقاً لحركات المزاج، غير مُفرِّق بين الظاد الحكومية و الضاد الشعبية.
كما ينطبق الوضع ذاته على همزة إ أو أن، وكذلك على الألف الفستان والألف
التنورة. وهذه الخريطة كما قيل لي، لا تتعلق بفيروس دبّ في الشرائح
الإلكترونية للعقل، بقدر ما هي مراحل لخريف نفسي، يمرّ بالكلمات، فتعاني منه
اللغة ذاتها. لكنني لم أخذ هذا التفسير على محمل الجد، لأن موقف الصفة في
الكثير من الأحيان، لا يأتي بالشرف الرفيع للذهن، إلا قبل ساعات من وقوع
الزلال.

تطلّع الماوردي إلى الغروب، وأخذ معه لغته وهبط إلى المدينة.
"الكلمات ساحل صخري طويل... تهبط عليه رؤوسنا بارتظام. والروح
خيطة ينقطع، عندما يصبح الوطن مشرداً فوق أرضه"
- ماذا أقول لك؟
- قل أغلق غرفة النسيان، وهات الكلام من رنينه.
كلا. ثمة من يعجن الرمل بالدم في الداخل يا ماوردي.

(٤)

نهض الماوردي.. وما زال وجهه يحمل بعض ما تبقى من طبقات النوم التي لم تفارقه بعد. وكأنها الكلس الرطب. تطلع عبر النافذة فرأى مزيجاً بشرياً متنوعاً باختلافاته. هنود وعرب وأفارقة وصينيون وفيتناميون وأوروبيون وأمريكيون لاتينيون وباكستانيون وإيرانيون وأتراك. كأنه يعرف ذلك من خلال قراءة الوجوه بالفراسة. كل وجه يحمل جغرافية البلد الذي ينتمي إليه.

ها أنت يا ماوردي بين بشر من كل القارات. قالها وهو يتأمل المباني المنتشرة في هذا المكان القديم الذي كانت تبنى فيه السفن. والكبير في مساحته التي تضم بشر المنافي هؤلاء. كانت الساعة تقارب التاسعة مساءً.. لكن الشمس لم تنزل ترمي بخيوطها على شرف الأفق، وكأنها لا تريد مغادرة هذا المكان، كي لا يشعر الغرباء بالوحشة والنفي والعزلة عن تلك الأوطان التي قذفت بهم إلى المجهول.

"قد تكون ساعتني هي التي أخطأت التوقيت!"

قالها الماوردي وهو في الطريق إلى غرفة المرشد المسؤول عن المعسكر، والذي بدأ يرافقه بهدف التعرف على المطعم وغرفة الطباية والملاعب وقاعة الاجتماعات والمرافق الخاصة بغسيل الثياب والدراسة والرياضة. إلا أن مسؤول الصليب الأحمر، طمأنه على صحة توقيت ساعته تماماً. فالشمس لا تغرب أيام الصيف في بلاد الاسكندناف، إلا في ساعات متأخرة جداً، قد تبلغ منتصف الليل. وهذا ما راح يصدقه الماوردي بالتدريج، على الرغم من أنه كان يقوم بتكذيبه داخل نفسه أثناء مطالعاته للكتب المدرسية في الماضي.

- ماذا بعد.. وبلاد جلالة الملكة هنا، تمنحنا وقتاً إضافياً من الشمس التي فقدناها هناك؟

- ولكن حرارة الشمس التي كانت لدينا هناك، أقوى من هذه الهاهنا.

- ها أنت تبدو متحزباً وعنصرياً لشمس الشرق يا ماوردي؟

- كلا. ولكن النظام الكوني هو من يقرر ذلك. فنحن في بلداننا ضحية مزدوجة للمناخ والسلطات التي تكاد تجفف الدم في الأوردة والشرابين. بعد أن فقدت أحلامنا كل إيقاع.

- لكنك الآن مع أحلامك يا ماوردي. وكل هؤلاء الذين أمامك ومن حولك هم من ضحايا القمع والإرهاب والدكتاتوريات والحروب القذرة. الجميع هارب من الجحيم. السياسيون الذين تطاردتهم حكوماتهم. الكتاب والمنقون الذين لم يستنشقوا هواء الحرية. المعارضون للحروب والدماء والعنف. الفقراء الذين جعلت الأنظمة من جلودهم الأحذية والسياط. كل هؤلاء معك يا ماوردي. قضيتك وقضيتهم واحدة. ونضالك ونضالهم مشترك. هؤلاء سيصنعون التاريخ الديمقراطي الجديد في بلدانهم مستقبلاً.

لم تكن ليالي الصيف في الساندهولم مملة. فالعتمة شفافة إلى حد عدم الشعور بغيباب النهار. والبشر في مثل هذا الصيف التموزي، يفترون عشب الحدائق ومقاعد، أو يمارسون ركوب الدرجات واللعب بالورق والشطرنج وطاولة النرد ومختلف الألعاب الرياضية. هذا إلى جانب الصالة التي توفر للمشاهدين متعة رؤية ما يبثه التلفزيون من برامج ومسلسلات وأفلام. أما بعد

تناول وجبة الغداء، فترى الأغلبية من سكان المعسكر وهم ينزحون إلى مدينة مجاورة للتبضع أو النزهة وقضاء بعض الوقت في الأسواق و التمتع برؤية النساء الشقراوات. إنها العادة اليومية التي يمارسها الجميع بلا استثناء. فالمواطن الأجنبي هنا، يتمتع بكل وقته. داخل وخارج المعسكر. وقبل حصوله على إذن الإقامة المؤقتة حتى. لم تمض عشرة أيام على وجود الماوردي في المعسكر، حتى بدأت عيناه تلتقط الصور المصغرة، لتقوم بتخزينها في الذاكرة. ربما للذكرى على سبيل المثال.. وبدأ العالم الجديد بالتفتح في الرأس شيئاً فشيئاً.

"لا يمكن أن تنمو خارج هذا الأصبص المزدهم بالأزهار السوداء والملونة يا ماوردي."

"بأية طريقة يمكن قياس انتماء المخلوقات البشرية إلى بعضها البعض؟"

كانت كاميرا العين تزداد نشاطاً، وتفتحاً واقتحاماً للمشاهد في معسكر الساندهولم. كل شيء يكبر، وكأنه يملك قراراً بعدم الانكماش. أحزان الناس. تفاهات بعضهم. جنون آخرين. مخالقات زمر الوقاحة والاعتداء وتجاوز القوانين والتمرد عليها. أجل ففي كل يوم يزداد تراكم الصور في الذهن. أحداث متفرقة. معارك هامشية هنا وهناك. تحطيم الأثاث الموجود في القاعات والغرف. تهريب الأطعمة والمواد الغذائية إلى خارج الأسوار. المشاكسات مع موظفي وموظفات الصليب الأحمر ورجال البوليس. الضرب و الاعتداءات الشخصية.. وإلى ما هنالك من الصور المختلفة التي تحدث على مدار ساعات اليوم الواحد.

- ما علاقتك يا ماوردي بكل هذا الذي يغرز عينيك. أم أنك ضجرت من أحوال المعسكر بهذه السرعة؟

- عفواً. أتخاطبني؟

- إذا لم يكن لديك مانع من أن تكون صديقين هنا. أي في هذه الصحراء!؟

- كلا. ليس من مانع يحول دون ذلك. أنا الماوردي.

- وأنا فاتح الرملابي؟

- أهلاً. فرصة طيبة.

- حصل لنا الشرف في هذه المعرفة.

- سمعتك تصف هذا المكان بالصحراء يا رملابي. فماذا وراء ذلك؟

- وماذا في ذلك. فنحن ننتقل من صحراء إلى أخرى. وعالمنا ضيق كقوقعة الحلزون!

- ألسنت سعيداً هنا؟ على هذه الأرض الجديدة أقصد؟

- وهل يمكنك تقسيم السعادة يا ماوردي؟ فنحن كلما خرجنا من بئر، سرعان ما وقعنا في آخر. أي في الأعمق من الأول. حتى تكاد رئائنا تتمزق من الاختناقات. انظر. ماذا ترى أمامك. حولك. في داخلك. فوقك. إنها الغيوم وليس غير. وغداً سنكتشف كل عفونة بنفسك.

- أعتقد إنها فرصة ذهبية لتغيير الطعام.

ألقي الماوردي بالملعقة في الصحن الذي أمامه، وغادر مطعم المعسكر الذي كان يضح ويهيج باللجئين، وخرج من المكان وهو يثرثر في نفسه متسائلاً عن هذه اللعنة التي تعرف عليها قبل لحظات في المطعم.

"هل ستعود إلى نقطة الصفر من جديد يا ماوردي؟ أنت الذي هربت بجلدك من منغصات الحياة، لتضع نفسك وجهاً لوجه مع منغصات العالم الجديد. كلا. فالرملوي يكذب أنه يحاول تشويه الصورة في حياتك مرة أخرى. ولكن حذار أن تستسلم لمثل هكذا قذارات

فيما كان الماوردي يفكر بالرجل وأفكاره التي تسببت بتسميم وجبة الطعام في داخله، وجد نفسه فجأة في المبنى المخصص لغسل الملابس. فرأى البعض يغسل الثياب والأغطية، فيما رأى البعض يضع أيضاً، الأحذية في الغسالات ويدير أقراص التشغيل. وفجأة.. أفرغ ما كان في معدته من محتويات. بعدها توجه إلى الغرفة المخصصة له، ليقذف بجسده على السرير، كالدابة التي أجل ذبحها لليوم التالي.

"اللعنة عليك يا رملوي. كيف تريد تشويه المناضلين؟"

قالها الماوردي.. وهو يحس بأن معدته قد بدأت بالاستقرار في مكانها الطبيعي. تناول قرصاً من العدة التي تقوم بتجهيز النوم له، وراح في الرحلة السباتية التي تعود عليها لقمع الدماغ في الساعات الصعبة.

كانت الساعة التاسعة مساءً.. البشر في الخارج يمارسون مهن الليل. شرب القهوة والشاي أو البيرة في الحدائق وعند منافذ القواطع. أو اللعب بالورق ومشاهدة التلفاز. في حين كان المراهقون يطاردون الفتيات على الدراجات من مكان إلى آخر، بهدف الحصول على تحية أو غمزة أو قبلة خاطفة لا تؤدي إلى معارك الشرف بين هذه العائلة أو تلك.

(٥)

في صباح اليوم التالي.. انتبه الرملاوي إلى غياب صديقه الجديد. فهو لم يأت إلى المطعم. ولم ير له أثراً في الأمكنة الأخرى. لذلك قرر التوجه نحو غرفته، ليطرق بابها بأصابعه. لكن الماوردي لم يزل في سباته. وعندما اشدت الطرق على الباب، نهض الماوردي ليفتح، فإذا به وجهاً لوجه مع الرملاوي.

- أهذا أنت من جديد؟ قال الماوردي متذمراً بعض الشيء.

- نعم. خفت أن تموت جوعاً وأنت في هذا القفص، فلا يحس بوجودك أحد. لذلك جئتك ببعض الطعام الخفيف.

- تفضل. هل تشرب الشاي أم القهوة؟

- أفضل أن نتناول طعامك ونخرج إلى الحديقة. هناك نجلس.

أخذ الماوردي دوشاً سريعاً. بعدها تناول شيئاً من الطعام. وغادر الرملاوي الغرفة قاطعين الممر الداخلي الطويل الذي يفضي إلى الفناء العام للمعسكر. لم يجلسا كما كانا قد قررا. فالمصطبة القريبة من الممر الأول كانت مشغولة. فقررا السير مشواراً إلى ملعب كرة القدم. وهناك تعرف الماوردي على الدكتور الوراق، وهو أستاذ في القانون الدولي، كان قد تخرج من دولة أوروبية شرقية. وبعد دقائق معدودة.. ينتقل الماوردي مع الصديقين الجديدين إلى مصطبة قريبة من ملاعب الأطفال.

- كنت سمعت أنك أصبحت هنا منذ يومين؟ قال الوراق موجهاً كلامه للماوردي.

- وأرجو أن لا يطول بنا المقام هنا. أجب الماوردي.

- كل ذلك يتوقف ما قلته في التحقيق الأول الذي تم تسجيله في المطار يا ماوردي. رد

الرملاوي

-قلت الحقائق البسيطة. أجب الماوردي مبتسماً

- ولكن الحقائق لا تكفي. لا بد من الكذب والافتراء والتضخيم، كي ينجو المرء بنفسه من مطبات رفض اللجوء. عقب الرملاوي على ذلك.

- لم أكن مضطراً لذلك. فقد قلت ما حصل لي فعلاً، و فقط. وقدمت لهم بعض الوثائق بخصوص ذلك. ألا يكفي الأمر كما تعتقد؟ سأل الماوردي موجهاً كلامه للدكتور الوراق.

- الأوراق مخلوطة هنا يا سيد ماوردي. ومن الصعوبة بمكان تصديق ما يحدث. يأتي شخص مثلاً، ويعترف للبوليس ورجال الصليب الأحمر بأنه شخصية سياسية ملاحقة ومضطهدة من قبل النظام الذي يحكم بلاده. في حين يكون الشخص نفسه هارباً من الخدمة العسكرية، وليس غير! أو أن شخصاً آخر يدعي بأن حكومة بلده تريد تنفيذ حكم الإعدام بحقه، وهو مجرم في قضية جنائية لا علاقة لها بالسياسة لا من قريب أو بعيد!! وعندما يأتي شخص سياسي حقيقي. أو كاتب معروف ويدعي بأنه تعرض لاضطهاد وملاحقة وسجن.. لا يلقى الاهتمام المطلوب. فتصبح قضيته واحدة

مع قضية ذاك المجرم أو ذاك الهارب من الخدمة العسكرية!! إنها الحثالة التي باتت تفسد كل شيء. قالها الوراق وهو يطلق من صدره تهيدة ثقيلة.

- قد يكون هناك بعض التحامل على هؤلاء. أي ثمة من يحاول التشويه ولصق الاتهامات بالغرباء والأجانب. ربما هي حملة افتراءات فقط. رد الماوردي مستغرباً وهو يبط شفثيه.

- انظر إلى ذاك الشخص.. الوراق مكلماً الماوردي وهو يشير إلى شخص كان يقطع الحديقة المقابلة. إنه يدعي بالانتماء إلى أخطر تنظيم عسكري في الشرق الأوسط. لكنه فضل اللجوء إلى للدانمارك على البقاء هناك، وتنفيذ المهمات الإرهابية كما يسميها هو الآن. لكن البعض هنا، يعرف تاريخ هذا الشخص ومهنته الحقيقية ومن أين. فقد كان عاملاً في كراج لتفكيك السيارات وبيع قطع الغيار.

- ولكن لماذا يمارس المرء الافتراءات. هل عندما يكون ضعيفاً. أم هو المرض؟ سأل الماوردي.

- بل التعويض عن الهزائم والضعف. ربما هو الأقرب. أجاب الوراق.

- عندما يدخل امرؤ منا إلى هذا المكان عل قدمين اثنين، فإنه لا يرغب بالخروج منه إل وهو جثة أو ما يشابهها في أحسن الأحوال. فقد دفع واحدنا الكثير ليصل إلى هنا، ولذلك فمن الصعب تصديق مثل هذه المساواة في الحقوق، ما بين السياسي والمجرم والسافل والهارب والجائع والمنكف والأمي. لا كبير هنا، بل ولا أهمية لأن تكون صادقاً أو كذاباً أو بارعاً في الدجل. الجميع يبحث عن الإقامة. والإقامة وليس غير. أليس كذلك يا ماوردي؟؟ سأل الرملوي.

-كلا. لا بد من التمييز. وإلا تقع الكارثة وتحل اللعنة. هذا ليس دعوة للتمييز العنصري، حتى الطبيعة لها قوانينها التي تميز ما بين الفصول الأربعة. رد الماوردي.

- لا مكان هنا للمبدعين. الناس تتحول شيئاً فشيئاً إلى أشبه بالدواب. يأكل وينام ولا يفكر بما عدا ذلك. المبدعون هم على الدوام في الجحيم. قال الوراق وهو يهز رأسه.

- حتى وإن أخذوا بالعامل التمييزي بين السياسي ونقيضه. بين الأديب والأمي.. سيكون أنت قد انتهيت في مثل هذا الطوفان العجائبي. المهم أن تباشر بالاستعداد لذلك منذ الآن يا ماوردي!

- ها أنتما تقفان الأفاق في وجهي. بل وتردمان عيوني بالحجر ردماً. ضحك الماوردي وهو ينظر في وجهي الوراق و الرملوي.

- أنهض.. لقد حان وقت الأحلام؟

نهض الماوردي والوراق والرملوي باتجاه قاعات النوم، وهم يجرون أرجلهم، وكأنها مثقلة بالحديد. بعد ذلك بدقائق اختفى الثلاثة: كل في سريره.

في ملاجئ النوم.. يدخل الواحد منا في نفسه، لمواجهة الحقائق وجهاً لوجه. ولا يحتاج المرء للمناقشة والجدال. إن الغربية تجلو الشخص هنا، فيما أن يزداد تألقاً في وحدته، أو تصيبه حمى التوحش، فيعيش تحت ظلالها. والحياة المعاشة التي لدى الغرباء، ما تزال حتى الآن، أشبه بشجرة متخفية الثمار داخل كل جسد مظلم. البحث عنها صعب. والتقاط ثمارها يكاد يشكل معجزة.

لقد بلغت الحروب العسكرية والحروب المفتوحة ضد الديمقراطيات في العالم الثالث أوجها. فالدماء لم تجف على السواثر وفي الخنادق المنتشرة على طول الحدود والأجساد. ورائحة الجثث ما تزال تتطاير فوق الأنوف، على الرغم من اختفاء الدبابات والسكون الذي يغلف الأفق. لأن الأنظمة تفيرك الحروب على جبهاتها الداخلية الآن. حيث لا بد من تطهير الأجساد البشرية من الأرواح الشريرة: الحريات الديمقراطية. فالإنسان المطلوب إنتاجه، قطعة معدن في شعب من الروبوتات. لا إحساس له بالأوبئة التي تخلفها الآلة الحربية. ولا مشاعر تربطه بمن يحيط به إلا مشاعر الكراهية والاحتقار. إن هذا الإنتاج المغذى بالدماء الزرقاء، لا يكرس إلا نزعة الانتحار بالهجرة نحو المجهول. كل سيساق إلى المسلخ دون خيار منه. كأن الهروب هو الملاذ الذي يليق بمخلوقات العالم الثالث. وليس غير!

أليست هي فلسفة الحكومات الخلافة هناك؟

لم يستطع الماوردي الدخول في ممرات النوم، لا الضيقة منها ولا الواسعة. جلس أمام النافذة كشحاذ على عتبة الأفق.

« ماذا يمكنك فعله بعد الآن؟ ها أنت من جديد في عنق الزجاجاة مع بشر من كل الجنسيات. تنتظر اليوم الذي يظهر فيه اسمك على لوحة الإعلانات، وهو يرفرف كالعلم الوطني: مبروك ياماوردي. فقد نلت الإقامة!!»

كلا... لا تأتي الأشياء بشكل مبكر، كما كان يعتقد الماوردي. فقد يأتي العكس، ويقذف بجثمانك إلى الخارج. فما سمعته اليوم يحير الدماغ. ربما هو افتراء. ولكن دعك من هذا وذاك، وتأمل في السماء التي فوق رأسك. كم من الكواكب والمجرات والنجوم والعوالم هناك؟ ربما يكون فيها بشر أو مخلوقات لهم نفس مشاكلك. لست وحيداً أنت كطالب للجوء في هذا الكون. من الممكن أن تقذف هو اجسك وتخمد في التخت يا ماوردي.

وفيما النوم يتقدم نحو سريره كالنهر، يستيقظ فجأة على صوت مدو لتحطم البللور. يقف خلف النافذة لمتابعة الأصوات، فيرى شاباً يحمل جذع شجرة، ويقوم بتحطيم زجاج قاعات السكن، وهو هائج كالثور في الحلبة. كان الجميع يتطلع إلى ما كان يقوم به ذلك الشاب من النوافذ. ولم يأت أحد من الشرطة لمنع ما يحدث. فقد أنجز الشاب عمله وغادر المكان.

« غداً... سنتحطم عظامك يا هذا. سيلقون بجسدك في السجن حتى تتعفن أو تدفع ثمن ما حطمت... لا بد من العقاب.»

قال الماوردي تلك الكلمات محدثاً نفسه.

أنها ليست المرة الأولى التي ينفذ فيها العطواني مثل هذا الواجب الخطر والشاق. فقد تعود القيام بذلك بين فترة وأخرى. وكل ذلك بهدف الضغط للحصول على الإقامة. فقد سبق وأن رفض طلب الشاب مرتين. فعادر الدنمارك ليقدم طلب اللجوء في السويد وألمانيا، وحصل على رفض مماثل! وها هو الآن هنا، ليقوم بالمحاولة الأخيرة.

هكذا عرف الماوردي هذه المعلومات عن هذه الشخصية في اليوم التالي لبطل معارك الزجاج الشهير في الساندهولم! وكالعادة، فلا يطاله عقاب من أحد.. لأن القانون يحول دون ذلك على كل من هو في مثل وضعه!؟

« هل كنت تفعل هذا في بلدك؟ لو كنت فعلت ذلك، لكانت عظامك الآن كالنشارة في أفذر المزابل وأنتتها. بل، تكفيك خيزرانة شرطي واحد للمرور أو النجدة أو الأمن، ليجعل من جلدك حذاء، تقرأ فيه كل القوانين المطبوعة وغير المطبوعة. بل يؤلفون لك القانون المناسب بلحظة خاطفة! ليت شجاعتك كانت هناك يا عطواني!!»

ردد الماوردي هذه الكلمات وهو يشعل غليونه ليخلف طبقة كثيفة من الدخان فوق رأسه، كأنها غيمة حملت ما في داخله من تقزز واحتقار.

كانت الليلة الماضية هي الكابوس الذي فجر المياه السوداء في أول طبقات الرأس. بعدها توالت الأحداث لتشكل خرائط جديدة لحياة البشر في المعسكر. وبدأ الذهن باستقبال الصور التي يخلفها نهار وليل اللاجئين على هذه البقعة من الأرض. وكان كل ذلك يبعث على زيادة حرارة الجسد. وعلى فتح ملف التشاؤم، ربما من باب الاحتياط. فالمرء، لابد أن يفعل ذلك في حساباته لمواجهة المستقبل على أقل اعتبار. وكثيراً ما يصبح اليأس عاملاً من العوامل التي تفرغ النفس من شحناتها العالية. أي من الفورات الكبرى التي تريد من عالم اليوم بحيرة كاملة الصفاء، وبعيدة عن العواصف وتسربات الأفتية الملوثة. حتى الدمع لم يعد كامل النقاء في يومنا الراهن، بعد أن أتلفته النيران الداخلية وجعلت من بناييعه أبخرة ليس غير.

كيف تفرّ من نومك هارباً، ويبقى السرير في الغرفة التي تحتلك؟ نومي طيرٌ
وهروبي خطّ هواء. أليس هذا ما ستتحقني بقوله؟

أجل. أعرف بأنك أعمى على خارطة. الريح في فمك ساخنة. وماء الذكريات
فيضان على أوراقك. جسّدك كلمات على مشرحة الأسي المُدل.

« عندما لم أجد في المكان مكاناً، حاولت الخلاص من ذلك النهار، فتركته
بتأمل شخوصه على رصيف المحطة، وهرعت بمعية تلك الكائنات التي كانت
تحملني على ظهورها نحو الحقول.»

-عندما يصبح الدماغ خندقاً، هل لكي تتحرر من شبّح المنازل؟

-ما تزال هويتك غائمة أيها الوغد.

-مثلها مثل البلاد استعملت العين كراساً لألعابها النارية في الحواس.

-لا تقل شيئاً بخصوص العقل يا ماوردي. فالمنفى يُهندس العين وأعشاشها

المختارة.

« عندما تجر الزمن من ذيله الطويل، لا يكون الغناء هباءً بين تلك الأشجار التي تمد
أعناقها إلى خارج المخيلة.»

عندما ظهر اسم الماوردي بعد أقل من شهر من وجوده في المعسكر مع قائمة الأسماء التي نالت الموافقة بالإقامة المؤقتة في الدانمارك، وتحت بند اللجوء الإنساني وليس السياسي، لم يعر للمسألة شأنًا كبيراً. ولم يفكر بالاستئناف لإعادة النظر في القرار. بل كل ما فعله هو ارتداء الثياب الرياضية والقيام بهرولة على الممرات الملاصقة لأسوار الساندهولم. كأنه كان بذلك لا يريد أن يعطي الفرصة لنفسه بالتفكير في شيء محدد. هل كان الماوردي يسابق خروجه من شيخوخة هذا المكان بالهرولة نحو مكان لا يعرفه؟

ربما. فالأمكنة والشخوص والأشياء، صارت تشيخ عنده بسرعة كبيرة. لا احتمال لشيء أكثر مما يلزم!

كيف يحدث ذلك ولماذا؟ لا يعرف الماوردي ذلك بذاته. ربما لا يرغب بالاستغراق التأملي طويلاً. ولا بالغوص في الأعماق، مثلما كان يفعل ذلك في السابق. خشية أن تتخطب ذراعاه في تلك الأمواج السحيقة، فتفتتح الآلام النائمة هناك.

بعد الظهرية، كانت غرفة الماوردي تغص بالزوار لتقدمة التهاني بمناسبة نياله حق الإقامة. لم يعرف أغلبهم، عدا الوراق والرملاوي وبعض من صادف وأن اجتمع معهم إلى طاولة الأكل في المطعم. وهذا تقليد يكاد أن يكون عادة في المعسكر. وهو في الوقت نفسه محاولة للإطلاع وسماح ما كان قد أفاد به طالب اللجوء لدوائر البوليس. فكل واحد من هؤلاء يحاول أن يقاطع معلوماته مع تلك التي أفاد بها الشخص الذي حصل على إذن الموافقة، كي يرى أين بات موضع قدمه.

- إذن لجوء إنساني يا ماوردي؟ سأل الدكتور الوراق مضيفاً باستغراب: "والكلاب السائبة وسقط المتاع تتال حق اللجوء السياسي!!"

- المهم مغادرة هذا المكان البائس. هنيئاً لك الرحيل من هنا يا صديقنا الماوردي.

قال ذلك الرملاوي وفي نفسه مرارة الحزن. فقد مرت على الرجل سنة كاملة وهو على لائحة الانتظار. ولم يحدث شيء! كان هو يفسر ذلك بأن البعض قد كتب فيه لدائرة البوليس بعض التقارير القذرة التي تلتصق به تهمة الإرهاب والتعامل مع تنظيمات ثورية خطيرة. فيما يرجع البعض الآخر سبب عدم منحه حق اللجوء، لكونه تقدم بوثائق مزورة لا تكشف عن هويته الأصلية. أما هو شخصياً، فكان يعتقد بأن العالم. كل العالم ضدي. وهذه هي ميزتي الوحيدة التي ليست لديكم!"

لم يكن الماوردي ليملك الرغبة في الحوار. فقد كان يوزع ابتساماته كالبلبل على الأشخاص الذين حوله. وعندما مل من الحكى والتخبيص في المناقشات التي بدأت تأخذ المنحى التناحري، قرر التدخل موجهاً كلامه للجميع:

لقد سقطت هنا أشبه بفتافيت مطحونة من نيزك محترق. لا هوية لدي إلا الجلد المدبوغ. ولا عمل لي غير الكتابة والحلم. ولا أمل عندي سوى العدل، لأنه القانون الذي يتحكم حتى بمسيرة الدورة الدموية. فعندما أحببت، كانت ترافقني صورة جارتنا الخياطة، تلك التي اغتصبتني وأنا ابن الثانية عشر. لم أكن بطلاً.. لا في الحرب ولا في السلم. ولم يمر رأسي كالنسر تحت أفواس النصر. لم أكن إقطاعياً أو مالكاً لعقار أو مرسيدس. لم أقتل ريس الجمهورية. ولم أعتد بالقبائل لتفجير المباني

الحكومية- وإن كنت أرغب بنسف دوائر المخابرات منها- أو التبول على جدران مقراتها على أقل اعتبار. وليس في ذهني سلطة أو رغبة باستلام منصب سلطوي، كما تفعل الذئاب والأفاعي هناك. ولم أترك دماغي تهلكة لتفاهة. دخلت المدارس وهربت من فوق الأسيجة. وبنيت صداقات جميلة لم تدم بفعل عدم دوام الحب. وخدمت في الجيش وأحسست بالشوك السياسي والطائفي والحزبي وهو ينمو كالكتل الصلبة في البلعوم. وتمردت في الكتابة، ولم أجد من أتوكأ عليه حتى نفسي التي تهرب من كثرة الظلم والمشقة والخوف والرعب. ليس لدي من الأرض حتى مساحة القبر. ومن النص غير مساحة الجنون. لقد تهدمت بالتدريج ولم أبلغ سن الرشد، كما هي البلاد القادم منها الآن، قرون مضت عليها، وهي تتهدم تحت سقف الدستور المؤقت والقوانين العرفية. كيف يخرج جرد من ثقب صندوق القمامة.. ليحكم بلداً كانت فيه أول مسلة للقوانين في العالم، وأول جامعة في التاريخ، وأهم احتياطي نفطي معاصر؟

لن أنزف نفسي في استعراض كهذا، ولكن من البساطة القول أن العقل يكاد أن يغرق بمثل الأمطار السوداء التي تهطل فوقه ليل نهار، أو على مدار الأعوام الطويلة من عدم الألفة وعدم الحب وعدم الاستقرار وعدم الأمن الذاتي. إن أي غراب في العالم، يرفض أن يعيش على هكذا شجرة مُثمرة.. لذلك أقول أن الإنسان لا يمكن أن يكسب الاحترام لنفسه إلا داخل وطنه. فكيف بنا الحال الآن، ونحن لا نكاد نملك من الوطن حتى ذكرياتنا فيه!!

هل يستطيع الغريب هنا، صناعة الوطن البديل في المنفى؟ أم سنهشم العوالم الجديدة وكل الأشياء، انتقاماً لأوضاعنا السيئة القديمة هناك؟"كأنك يا ماوردي تخطب في حشود بشرية على امتداد النظر".

- لو لم تحصل على الإقامة.. لما قلت هذا يا ماوردي. سيقول لك شخص.
- نعم. لو كان حظك مثل حظوظنا، ولو كنت تجرعت مرارة الانتظار طوال الشهور الماضية، لكنت قد وضعت في فمك حجراً ولم تنطق بكلمة من هذه المواظ التافهة. سيقول لك شخص ثان.
- الذي يده داخل النار، غير الذي يده في الماء يا ماوردي. سيقول لك شخص ثالث.
- إنك تكشف عن أميتك يا ماوردي. ولو كنت غير ذلك، لكنت نطقت بشيء يخدمنا. ويعجل بخروجنا من هذا المستنقع اللزج الذي يكاد يأكل منا عقولنا ويتركنا كالعجزة. سيقول لك رابع.
- عندما فرغ الماوردي من قول ما كان يريد قوله، انسحب الجميع من الغرفة بما في ذلك الوراق والرملاوي. كان كل فرد يشعر وكأنه وضع يده فجأة على قنبلة لم تتفجر. هكذا كان الإحساس العام.
- أجل. صرخ الوراق وهو يلفظ من أعماقه تلك الحمم "نحن كلاب سائبة لدول مرتبطة!"
- وضع الرملاوي يده على كتف الوراق، وقاده نحو مقعد منزو في الحديقة، كمن يحاول تخفيف غليان بركان يستعد لدثر المعسكر والمدن التي تحيط به.
- هل حرصك الماوردي على ممارسة المازوخية ضد نفسك؟ الرملاوي للوراق.
- وماذا في النفس غير الأطلال. وأنت ترى! ردّ الوراق ووجهه يتقرز دماً ورملاً وكدرأ.
- ولكنها اللعبة.. فقد دخلت الأنظمة في عظامنا، وها هي تتسلل إلى معسكرات اللاجئين، هنا في القطب. ولم لا. فقد يكون بالإمكان أن ينتهي الماوردي وسواه في المشرحة فيما لو تقرر حكوماتنا ذلك."ضربة سكين في الجهة اليسرى وينتهي الفيلم." خاصة وأن لأنظمتنا رجالاً هنا، ما يزلون يتمتعون بمهماتهم للتجسس على كل تحركات اللاجئين الذين يأتون من بلاده!

- لتذهب أنت وأفكارك للجحيم. قالها الوراق. "من أين لك هذه الترهات والترثرة؟"
- إلى هنا. الحكومات تتخندق في حلقنا أيضاً، وتبعث بالمخبرين لتقديم طلبات اللجوء مع ما يلزم، وتحت الشعار ذاته الذي يقدمه الهارب الحقيقي من بلده: الحرية والديمقراطية والأمن الشخصي!!
- لا تذهب بعيداً يا صديقي الرملاوي. ردّ الوراق مضيقاً: مثل هذه الأمور لا تحدث لدى الدول الكبرى فقط.
- بالعكس.. فحكومات بلداننا تدفع أكثر من نصف ميزانية الدولة على الأمن. هنيئاً لك على معلوماتك التي لا تطعم عصفوراً. قذف الرملاوي تلك الكلمات بتهكم حاد، وهو ينظر في وجه الوراق.
- أكنتَ تعمل معهم؟ سأله الوراق متهمكاً.
- معهم. من تقصد بذلك. الحكومة أم الحزب الحاكم أم المخابرات أم المعارضة؟ ردّ الرملاوي.
- إذا كانت الغاية من وراء ذلك التخلص من الخصوم؟ لماذا لا يفعلون ذلك؟
- كلا. هناك توزيع في المهمات وحسب التسلسل. فالحكومة تحاول التخلص من أفراد قد لا يرى منهم الحزب الحاكم فيهم خطراً يهدده. لأن للحزب خيارات أخرى للتصفيات. وهذا الأمر ينطبق على أجهزة الأمن التي ترى أهدافها بعين أخرى، غير تلك التي تظهر على الشاشة العامة للجميع.
- إذن.. فالدول التي لدينا مصانع لتعليب الجثث؟! رد عليه الوراق منقبضاً وهو يفرك براحتيه.
- ليس هذا المقصود بالضبط، وإنما لتعليب نفسها، دفاعاً عن البقاء والاستمرارية في السلطة التي تملك.
- نهض الوراق من على المقعد بنتأمل، وكأنه يريد أن يظهر لصديقه الرملاوي عدم اهتمامه بمثل الصفاقات التي تحدث بها.
- "ها أنت بت تخيفني يا رملاوي. وهذه علامة سيئة قد تقص رأس الصداقة التي بينك وبينني."
- قبل أن تنطق بكلمات إضافية يا وراق، سأدلك بعد قليل على النتانة البشرية التي تنشر الوباء خلسة في هذا المكان. إنه وحيد الحبال.
- ليس في ذهني مشاريع لمعرفة هؤلاء، ولا أملك الدافع لمراقبتهم كذلك.
- أنت شخص غريب الأطوار للتشهير بالآخرين يا رملاوي.. أليس كذلك؟
- بالتأكيد. ولكن ليس من حقك الطعن في سجلي الشخصي إذا ما قلت لك بأن وحيد الحبال وسواه، هم من الأجهزة المخابراتية التي تعمل هنا تحت جناح طلبات اللجوء السياسي، هرباً من الإرهاب والقمع والموت وقلة الهواء، كما هو مسجل في إفاداتهم الطويلة لدى دوائر الشرطة في هذه البلاد.
- وداعاً يا ساندهولم..
- قالها الماوردي وهو يغادر المعسكر في تلك السيارة التي أقلته تحت نظرات الذين كانوا في وداعه عند البوابة المركزية.

" سنلتقي ذات يوم "

قال ذلك الماوردي وهو يحس بنيران تلتهم عيونه من غزارة الدموع.

" أهكذا تبدأ من حيث لم ينته عذاب الآخرين؟ "

بدأت السيارة زحفها البطيء. بعدها راحت تلتهم الطرق الزراعية الرائعة، بمثل تلك السرعة التي تريد تغيير مجرى الزمن. بدت البيوت بسقوفها القرميدية تغوص في العين. كل شيء يحمو ما كان قبله. وعلى الذاكرة وحدها برمجة صور هذا العالم التي تتدفق إلى شاشاتها الغامضة في الداخل. ولكن.. ألا يأتي اليوم الذي يتعطل فيه جهاز تلك الذاكرة، فلا يعود بإمكانها تذكر نفسها حتى؟

" ليس من داع للغرق في سلة الرماد مبكراً. "

إنها المدينة يا ماوردي: يسمونها بـ"الشمس الحمراء"

عندما دخل الماوردي البيت الجديد "فيلا" من الفيلات التي تقع في إحدى الضواحي التي يقطنها البرجوازيون من أهل البلد، والتي تقع على بعد أمتار من البحر، يرافقه مسؤول من مديرية شؤون اللاجئين أحس بالغبطة، خاصة وهناك من كان يشاركه هذا المكان الذي يعتبر كمحطة مؤقتة تسبق الاجراءات الخاصة بتنظيم حياة اللاجئين، قبل الانتقال بهم إلى المساكن الخاصة بهم والتي عادة ما تكون مستقلة.

خرج الماوردي ليقعد كرسياً في الحديقة. وهناك تملكه شعور بالنعاس وهو يراقب أشجار التفاح والكرز والزهور المنتشرة في أماكن متفرقة من الحديقة الواسعة. "قيلولة فقط"

هكذا قال الماوردي في نفسه وسقط في النوم على الكرسي الذي كان يجلس عليه. إلا أن القيلولة لم تدم طويلاً، فقد أحس الماوردي بالبرد الذي أخذ يتسلل إلى داخله. لذلك غادر الحديقة متجهاً إلى الداخل، أي للجلوس في الصالون بهدف مشاهدة التلفاز، ولم تتوفر له مثل تلك الرغبة. فقد كان الأطفال الستة بمعية الأم، وهم يحتلون جميع ما في ذلك الصالون من مقاعد وصوفات. هذا بالإضافة إلى الفوضى والصراخ والبكاء الذي كان يمزق أحشاء صالون الجلوس المخصص للجميع هنا. ولكن هذه العائلة، كما يبدو، لا تريد أن تمنح القادم الجديد الفرصة بالتمتع في شيء داخل هذا المنزل.

" هذا القادم الجديد لا فرصة لديه ليحتل ولو كرسياً داخل المنزل. " هكذا فسّر الماوردي الوضع، ميمماً وجهه صوب غرفته، ليستخدم الراديو الصغير الذي يمتلكه: "تعالى يا إذاعات العرب.. لنسمع هدير الولاة والقادة والمطربين".

- من غبار الريح إلى غبار التاريخ. النار واحدة. والأرض واحدة.

- لكن الكتابة عن الشرق، تفضي دائماً إلى الكتابة عن الغرب الذي نحن فيه. فكل عبارة عن بلاد الشمس، لهل ظلالها هنا.

- وسحر أوروبا الذي أخذك فيه الهوس طويلاً؟

- نفاية. نحن هنا مستعمرات جديدة على أراضيها.

- إذن. ضع في نفسك فلترًا. فهم يحاولون إعادة إنتاجنا سياسياً وثقافياً واقتصادياً واجتماعياً.

- ديمقراطياتهم تبني في عالمنا العربي الديكتاتوريات. وتؤسّلحها حتى العظم.

" مياه الفرنجة السوداء التي تتشكل كمجموعة من الطوفانات في الأعماق، ومنذ زمن بعيد، ها أنت بين أمواجها."

سحبت يدي من بحر الشمال. قلت لن يكون هذا البحر خاتماً. ولن يكون جسدي محبرة لنص آخر.

كانت البداية الأولى لمسيرة الماوردي: مدرسة اللغة. وهي تجمع كبير للاجئين من مختلف بلدان العالم. وتقع في مركز أكبر التجمعات التجارية في المدينة. حيث كان يقضي الدارسون معظم وقتهم بالتجوال بين محال الملابس والأحذية والفواكه والخضار وفروع البنوك والبريد، أكثر من الوقت المخصص لتعلم اللغة. عندما تفحص الماوردي السوق الكبير للمرة الأولى من الطابق العلوي لمبنى المدرسة، شعر بدوار يهزه. لم يعرف لماذا رافقه ذلك الإحساس، هل كان بسبب وهن جسدي أم للصورة التي احتشدت بعينيه من كثرة أعداد الغرباء التي تزحف في المكان منذ ساعات الصباح الأولى.

" هذا هو مقعدك في هذه الحضانة أو المدرسة الابتدائية يا ماوردي إذن! فاجلس أيها الطفل الأمي وتعلم اللغة منذ نعومة أظفارك التي أنت في عمرها الآن. فكل لغة، ولا بد وأن تحتاج شيئاً منها."

" أنا أحتاجها؟ اللعنة على أحسن لغة. أنا راجع إلى بلادي في الغد القريب، ولست راغباً بتعلم شيء. لا اللغات ولا العمل في التجارة ولا حلاقة وتصفيف الشعر ولا تهريب السجائر ولا الإحتيال على البنوك ولا التخطيط للمشاريع الوهمية ولا اللعب بالضرائب ولا مناصرة الذين يمشون فوق ظهر القانون."

"كلا. لا لغة تعلق على تلك اللغة. لغة الداخل التي لا يشاركني فيها إلا نفسي والأذكىء."

"أجل أنا الماوردي العائد في الغد إلى بلاده. قد يسقط الديكتاتور وتصبح الطريق مبلطة بالحديد إلى هناك. فهذه البلاد جميلة لأهلها وثقيلة عليك."

قطع الماوردي سلسلة أفكاره الجبلية الوعرة، ودخل الصف. كانت المعلمة الدانماركية تقف إلى جانب السبورة. امرأة نحيلة طويلة القامة ذات شعر ذهبي طويل مع نظارة تشع خلالها عينان زرقاوان. وكانت ترتدي تنورة مهلهلة طويلة فوقها كنزة من الصوف تبعث الارتياح ببساطتها.

جلس الماوردي بين المتعلمين الذين أنهموا أكثر من شهرين من الدراسة قبل التحاقه. وراح يتطلع إلى وجوه الرجال والنساء في الصف، وكأنه يقوم بعمل إخراج سينمائي للجميع. وجوه مختلفة. لا يعرف ماذا يكمن خلف جدرانها. مثلما لا يعرف الآخرون ماذا وراء وجه الماوردي. إنه صراع الوجوه الصامت الذي لا ينهيته حتى الكلام في بعض الأحيان. فكل وجه لا توضحه ولا تبرره ملامحه.

نهض الماوردي بعد انتهاء الحصة الأولى متجهاً نحو البوفيه المخصصة لتناول الشاي والقهوة والمشروبات الغازية. وقبل دخوله هناك، أمسكت بذراعه يد، ساحبة إياه نحو المخرج الرئيسي للمبنى.

- تعال سنشرب القهوة بالمجان في "البلكا"

قال ذلك فريد النواف وهو يعرف الماوردي بنفسه. بعدما أخذوا مكانيهما على مصطبة خشبية للاستراحة عند باب مبنى المدرسة.

- تعال سنشرب القهوة بالمجان في "البلكا"

قال ذلك فريد النواف وهو يعرف الماوردي بنفسه. بعدما أخذنا مكانيهما على مصطبة خشبية للاستراحة عند باب المدرسة.

- أهلاً بزميل الدراسة. هز الماوردي رأسه مجيباً.

- ليس في الدراسة وحسب، سنكون زملاء في العمل إذا شئت!

- العمل، وهل بدأت تفكر بالعمل قبل إتقان اللغة يا فريد؟

- العمل هنا لا يحتاج إلى لغة. قال فريد وهو يتكلم بثقة مطلقة (العقل وما يخطط. هذا هو عملنا الآن في هذه البلاد).

قال الماوردي مازحاً: (وهل تعمل في مجال الطاقة الذرية؟).

- قد تضحك عليّ إذا قلت لك إن البلاد لا تسمح لك هنا بالعمل حتى لو كنت حاملاً لشهادة من شهادات الدكتوراه. ولذلك على المرء أن لا يقع ضحية لمضيعة الوقت في تعلم اللغة أو بالانخراط في الكورسات التي تفتح من أجل اللاجئين. أكثر من سبع سنوات ونحن في هذه الدوامة. ربما ستدرك فيما بعد. فعودك ما زال طرياً في هذه البلاد. أسألني أنا؟

- هل هذا خلاصة ما توصلت إليه هنا؟

يتوقف الاثنان عن الحديث بعدما اقترب منهما شاب في العشرينات.

" تبدو مغتبطاً هذا النهار يا ولد. هل نقشت معك؟". سأل النواف الشاب وهو يتوقع منه سماع خبر ما.

- أجل يا معلم. لقد ضبط الفيلم!

- مبروك عليك يا ولد. رد النواف والابتسامة تغمر وجهه. بعدها سحب الشاب من ذراعه ملتفتاً نحو الماوردي: هذا سوران أفندي. مد الشاب يده كما يفعل أبطال كمال الأجسام أثناء المصافحة.

- هل الأستاذ جديد في المدرسة يا معلم؟ سأل سوران النواف.

- جديد في كل شيء. رد النواف ملتفتاً صوب الماوردي، ليردف قائلاً

- أليس كذلك يا أستاذ؟

- على المرء أن يكون جديداً على الدوام. فنكهة ذلك أفضل له من أن يكون عتيقاً. قال الماوردي ضاحكاً وهو يعلّق على كلمات النواف.

- أجل. رد النواف. ولكن ليس كأن يكون المرء مغفلاً، لا يعرف رأسه من قدميه. حتى القانون لا يحمي المغفلين

- بالطبع لا. ولكن أي قانون وأي فغفلين في عالم اليوم؟ سأل الماوردي وهو ينهض.

- دعنا من كل هذا الآن يا أستاذ، ولندخل لاحتساء القهوة هناك. قال النواف وهو يشير إلى البوابة الرئيسية لـ "البلكا".

- لكن الوقت ضايقنا الآن.. أليس كذلك؟ سأل الماوردي النواف وهو يقصد نفاذ وقت الاستراحة المخصصة للمتعلمين.

- لا تهتم بوقت الدراسة. لن تقوم المعلمة بتأنيب أحد. قال النواف وهو يمسك بالماوردي وسوران من ذراعيهما، ليضيع الثلاثة بين زحام الناس في المجمع التجاري الضخم.

تجمعت جميع أصوات وكلمات النواف وسوران في قاع الماوردي في الليل. حيث راح يحل ويلعب بأفأظ ومقولات وأفكار الحديث الذي سمعه في الصباح. وظل يدخن الغليون وهو في الفراش. ويحتسي البيرة وعيناه ملتصقتان في السقف. لم يكن يرغب بالنوم. وفجأة قفز من السرير وهو يغرق بضحك يكاد أن يكون هستيرياً.

" أي عالم أنت فيه الآن يا ماوردي."

فتح باب خزانة الثياب، ثم ارتدى ملابسه وتناول المعطف الشتوي من على الشماعة الرياضية كشاهدة القبر في زاوية الغرفة، وغادر المنزل دون أن يقفل باب المنزل.

" إلى المدينة يا ماوردي. حياة الليل التي لم تنقها منذ قرون يا أبله. إنها بين يديك، وتريد أن تجهل ذلك عمداً، كما كنت تفعل ذلك في مدنك القديمة. لماذا كنت تفعل ذلك أيها الغبي؟ فلو كنت غارقاً هناك في حياة الليل، لما واجهت المصير الذي قذف بجثتك إلى هنا. بالعكس. لو كنت قد اخترت الليل، لكانت الحكومات قد دفعت لك مصاريف أتعاكب. ولكنك دلقت نفسك بالسياسة والثقافة والديمقراطية وحقوق الإنسان. وكنت تعرف جيداً، أن لا مزاج لك ولا صحة بدنية لتحمل كوارث حياة النهار القاسية والمدمرة للأعصاب؟"

عندما وصل الماوردي إلى المحطة، لم يكن هناك سوى امرأة تحتمي وكليها تحت المظلة. فالبرد كان شديداً. وتشكل الجليد بدأ بزحفه على سطح الأرض. فيما أضواء المحطة الموحشة، وكأنها تلفظ آخر أنفاسها تحت أقدام ظلام الثلج!!

قذف الماوردي جسده في القطار الذاهب إلى كوبنهاغن. لم يكن في العربة التي جلس فيها الماوردي سوى ثلاثة أشخاص. اثنان من السكارى الذين شربوا محيطاً من الخمر. وثالث نائم، وكأنه في سريره الخاص.

وفيما كانت العجلات تشكل لحنها في الليل، أخرج الماوردي دفترًا صغيراً من جيبه، وراح يتفحص عناوين وأرقام التلغونات المسجلة فيه.

" هو.. الدكتور الوراق."

عند وصول القطار إلى العاصمة، توجه الماوردي إلى كابينة الهاتف وراح يدير قرص الأرقام. بعد ذلك بدقائق، غادر المحطة وهو يطرق بكعب حذائه بلاط الشارع من الناحية الشمالية من المحطة الرئيسية أشبه بالطاوس المنتشي. كانت شوارع العاصمة في مثل الساعة الحادية عشر من الليل الشتوي، شبه فارغة، لأن الناس تحتمي في مثل هذا الوقت، إما في المنازل أو في الحانات أو في الديسكوات. والماوردي يريد أن يقلد هؤلاء في شيء. فثمة أصوات تتأدى من داخله، لأن يخرج من جلده القديم ولو قليلاً، ليكتشف ما لم يكن تحت مرمى عدسته. فكثيراً ما كان الماوردي يحدث الناس عن أوروبا قبل أن يرى بلداً واحداً من بلدانها. وعندما يُحشر في سؤال دقيق عن مكان على وجه الدقة، كان يعترف بأنه عرف أوروبا من خلال المؤلفين الغربيين الذين ساهموا بإبصال وتوزيع أوروبا إلى الشرق عن طريق الكتب والمطبوعات والفنون التشكيلية والسينما. ويا ما أحب الماوردي الكثير من تلك الممثلات ذوات النهود والسيقان والعيون التي تمطر عطرًا في فراش الخيال.

" أنتما معاً"

هتف الماوردي بغبطة وهو يرى الدكتور الوراق وفتح الرملابي بانتظاره على باب الحانة.
"وأخيراً التقينا يا ماوردي تحت أضواء ليل كوبنهاغن". صرخ الوراق وهو يعانق الماوردي بعنف. فيما كان الرملابي ينتظر دوره بالمصافحة متلهفاً.

- لندخل الحانة قبل أن تتكلم أجسادنا من البرد. قال الوراق.

فرد الدكتور الماوردي: "تتكلم أجسادنا، لاضير. ولكن الخوف من انكماش العقل يا صديقي".
"أدخلا ولنخلص من كلام الفلاسفة العاطلين عن العمل". قاطعهما الرملابي وهو يدفع بالاثنتين إلى الداخل.

كانت الحانة تنفس ضوء الشموع. وقد انتشر الرجال والنساء لاحتلال الطاولات القريبة من خط البوفيه البيضوي. لقد فقد المكان الهدوء دون رجعة. فيما الأرواح كقامات من زجاج يتبخر منها الكحول. أو هكذا تعطيك الأشكال الإنسانية هذا الانطباع. إن روح الثمالة هنا، يمكن أن ترى بوضوح. ولا بد من تلمس جمالها لدى البعض أيضاً. فالمرأة التي تجلس كظل لليل حزين أمام رجل استهلك كل أحلامه الطويلة العريضة، تؤدي عملاً خلاقاً لا يمكن إيجاد تفسير له، كما يحدث ذلك بالنسبة لبقية الأعمال. كذلك الرجل المنطفيء، فهو يحاول بناء سور عال لعزلة قد تكون جميلة. فالخمر في البدء، يعيد اختراع النفس. وعندما يكون الاختراع سيباً وتقليدياً، يتحطم البنيان الوجودي بسرعة. فتفصل الحياة عن المخلوق، ويذهب كل منهما في طريقه.

"ماذا تفضل أن تشرب يا أستاذ؟" سأل الرملابي وكأنه يوقظ الماوردي من سبات كان قد أخذه.

- "أوزو. إنه المشروب الذي استتبت الفلسفة في اثينا". رد الماوردي ضاحكاً.

- وماذا عنك يا دكتور؟ موجهاً كلامه للوراق.

- نبيذ أحمر. خمر الحكمة والإنعاش البطيء. أليس كذلك يا ماوردي؟

- أما أنا فألّي البيرة، كي أتبول الفلسفة والحكمة معاً.

قال الرملابي هذي الكلمات وهو يتوجه نحو صاحبة البار لإحضار المشروبات.

"أليس الرملابي بالرجل الظريف" سأل الوراق الماوردي وهو يقهقه بسبب الكلمات التي أطلقها الماوردي تعليقاً على ما سمعه من الوراق للماوردي.

- فعلاً حساس وظريف. لم أكن أتوقع وجوده معك الآن. كانت رؤيته اليوم مفاجأة بالنسبة لي.
ولكن متى حصل على الإقامة؟

- لم يحصل عليها بعد. إنه هجر "الساندهولم" ويقوم معي في الغرفة، يذهب إلى هناك فقط يوم واحد في الأسبوع من أجل تسجيل الحضور وقراءة لائحة أسماء الذين يمنحون الإقامة.

- "مؤسف" قال الماوردي وغيمة حزن شفاقة بدت على عينيه. وأضاف: "إنه شخصية تؤهل نفسها لكل الأدوار الصعبة. هذا ما أعتقد أنه. ألا تتشاطرنى الرأي؟"

- بالتأكيد. فالرجل مناضل سياسي كابد الكثير من المشاق لدى الأنظمة العربية. ومتقف مفتوح الآفاق. حريته في دمه، ودمه في حريته. ما معنى أن يفقد المرء وطنه للأبد؟!
- ها قد جاءت الخمور مترنحة قبل أن تشربنا. الماوردي هاتفاً ومحياً الرملابي.

جلس الثلاثة وهم يتبادلون الأنخاب. فليس ثمة انتصار لهم إلا على الليل. ولكن لليأس كأساً خاص بين البعض. وفي الكثير من الأحيان يمكن شرب نخب الخبيرة أيضاً.. وها نحن الثلاثة ننتصر للا شيء. فهل يمكن أن يتحول اللا شيء إلى انتصار نشره؟ وعلى من؟! أهو على الداخل البيباب أم على الخارج المنقحم؟

"ما من واضح واضح. وما من غامض غامض في عالمنا الذي مسرحه صموئيل بيكت على نحو رائع. فنحن أيضاً بانتظار "غودوت" وقد يأتي ولا يأتي.

- هل اندمجت بالمجتمع الجديد يا ماوردي؟ سأله الوراق وهو يلف الكأس بين راحتي يديه.

- بنسبة ٩٥%. ولم يبق إلا اجتياز عنق الزجاجاة!

- لم أكن أتوقع أن يثير السؤال فيك كل هذا القدر من السخرية يا ماوردي. ولكني..

- يقاطعه الماوردي "الاندماج ليس قراراً إدارياً. والذين يفكرون بهذه الطريقة، يكونون كمن يضع كمين الاتهام أمام الأجنبي، على عدم قدرته على الانسجام مع مياه أكواريوم المجتمع الجديد. ما أقصده بالضبط، أن للاندماج شروطاً وظروفاً لا بد من توفرها. وفي حال انعدامها، تكون الفكرة عبثاً."

يتناول كأسه ويرفعها للدكتور الوراق. بعدها يضيف:

"أليس كذلك يا رملوي؟" وهو يتطلع صوبه.

- "بالضبط". يرد الرملوي مضيفاً:

- ولكن ما قيمة أن تعيش في عالم لم يكن من تخطيطك. أو لم تشارك في التخطيط لشيء فيه؟ ألسنت تبحث عن "ضمانات؟". موجهاً الكلام للماوردي. لا شيء من هذا هنا. فنحن شبه مخلوقات بشرية من عوالم مختلفة أو موبوءة، كما ينظر إلينا الكثيرون.

- "ومنهم من ينظر إلينا كنفاية!!" الوراق معقّباً.

- هذه نظرة ضيقة. فقول عالم اليوم لا تحتمل الأفعال القديمة. العالم مسرح مفتوح الآن. و الحدود تكاد أن تكون كأضلاع الجسد المحطومة ويأكلها الانهيار بالتتابع. فيما الناس وقد أصبحت كقوافل الغجر، ينتقلون من مكان إلى آخر دون الشعور بعقدة الخوف أو الذنب. إنهم يقتحمون كل البوابات التي كانت محرمة في قديم الزمان. لذلك فالتخطيط للاندماج يجب أن لا يكون حكرًا على العقل الدانماركي أو الفرنسي أو الألماني.. بل لأن مشاركة الأجانب ضرورية لتلافي العقد الصعبة وتجاوز المطبات. رد الماوردي.

- إنهم وإن اخذوا بهذا الاقتراح، يأتونك بأحد من طواقم المترجمين ليقوم بتنفيذ هذه المهمة العلمية الشاقة!!

يضحك الوراق مستهزئاً.

- "هذه كارثة يحترق فيها الأخضر واليابس معاً. يتحول فيها شعار الاندماج إلى عملية تنويب".

يلق الرملوي مؤيداً كلام الدكتور الوراق.

- عملية التنويب لا تخدم الطرفين. - يعلق الماوردي مضيفاً - فالمجتمع الأم في الدانمارك وسواه من البلدان، ومهما يكن غنياً ثقافياً وحضارياً، لا تخدمه فكرة الانغلاق والانعزالية وتنويب شخصية الغير، لتأخذ نفس ملامحه. فالشعوب التي لا تأخذ من بعضها البعض، تبقى شعوباً ثانوية تأخذ

طريقها إلى الزوال البطيء. لأن الحضارات الإنسانية تمازج وتلاقح وتفاعل. ولا أعتقد بأن الدانماركي، يكون سعيداً إزاء ما يفعله البعض من الأجانب، بأن تهيمش الشخصية والتخلي عن الهوية القومية، سيمنحهم فرصة ذهبية سريعة ورقعة أوسع للتحرك في البلاد. فالذي يرمي بهويته الأم في عرض البحر، يكون سهلاً عليه رمي الهوية الجديدة في قاع أول صندوق للنفايات يصافه في طريقه.

- وهذا ليس تعصباً على الإطلاق" يعلق الرملاوي. فيما ينهض الماوردي مردداً مقطع أغنية قديمة لأم كلثوم وهو في الطريق نحو البوفيه، لحمل مؤنة جديدة من الحطب في الكؤوس. أليست تلك النيران هي الوحيدة التي نتدفاً عليها في ليل كوبنهاغن الأبيض الذي أهلكته شيخوخة الثلج؟

ليحرس الرب رأسك يا ماوردي. بحطبه ونيرانه ورماده، وعلى مدار الفصول. فلم تبق من أمنية أخرى بعد هذا الخراب المتألق، والسلام.

- هل اندمجتما مع الطاولات الأخرى؟ يخاطب الماوردي صديقه، وهو يشير إلى الطاولات التي بنيت عليها الرواد".

- "لا أحد يتطلع في وجوهنا يا رجل. والذي يفعل ذلك، فهو ينظر إليك وكأنك محتل". يرد الوراق بشيء من الامتعاض. أنظر إلى ذلك الشاب لقد بصق على الأرض مرتين أثناء ذهابي لجلب الشراب.

- "هذا أيضاً يقيم رغبة التواصل والانفتاح. فهناك الكثير لا يعبرون عن مشاعرهم الداخلية إلا أثناء السكر". يعلق الرملاوي وهو يأخذ رأسه بين يديه وكأنه ضرب بصاغة.

- "ها نحن نندمج بالمنغصات". اسمعني يا وراق ويا رملاوي، لقد أساء الكثير منا. وهم سيقضون بمثل ارتكباتهم القذرة وحماقاتهم ضد القانون على حياة الأجانب دون استثناء. سيتم تشويه كل ما هو جميل، أو ما تبقى من الجمال. لن يطول الوقت حتى يتحول الجميع إلى رؤوس ننتة من البصل، لا يطبق أحد رائحتها الكريهة.

- كان يمكن للقانون أن يحسم كل هذه المهازل والجنايات.. ولكن! يمط الرملاوي شفثيه

- يشرح الوراق "ولكن القانون مطاط في هذي البلاد، أهذا ما تقصد؟" ويضيف: أجل. فالكثير منا يستغل مرونة القوانين وغياب العقاب الصارم الذي يحد من ظاهرة السرقة أو عمليات النصب والاحتيال بشكل حازم.

- بالضبط. فالحرية والديمقراطية والقانون الفضفاض، هو الذي يدفع بالنفايات نحو ارتكاب المخالفات ضد القانون والمجتمع. وكم كنت أتمنى أن يفعل هؤلاء مثل هذا الذي يرتكبونه في بلدانهم. لكانت رقابهم داخل الأنشطة في نهاية المطاف. إن الحرية الزائدة لناس لم يروا غير السوط في حياتهم، تصبح عبئاً وكارثة على المجتمع. وكذلك الديمقراطية، فهي لا تصلح حتى كعلاج لمرضى القمع، ممن اعتادوا على عدم التخلي عنه. وإن شعروا بضرورة التخلي، وسرعان ما تحولوا إلى الضفة الأخرى: أي من المقموع إلى القامع. تحدث الماوردي.

- سأل الوراق: "ألا تنتهي من هذا النكد؟"

- أجاب الرملاوي "أست أنت من فتح الباب لرياح الكوارث لتجلس بيننا؟"

- ربما من الأفضل إذاً أن نغادر المكان. فالوقت يكاد أن يستنزف الليل كلياً. قال الماوردي

- رد الرملاوي: وإلى أين يا أستاذ؟

-قال الوراق: إلى الشوارع. رحلة البرد والثلج والكآبة.
-كلا. عليّ أن أخذ باص الفجر، فبراكين معدني الحقيرة بدأت تتفجر تقرحاً. رد الماوردي وهو يعصر معدته ببديه بعد ارتداء المعطف.
-إذن سنوصل الماوردي إلى هناك، ثم نتابع نحو العش.
-الرملاوي موضحاً للماوردي: الوراق يسمى غرفته الحقيرة بالعش. يقهقه. ثم يخرج الثلاثة من الحانة، وكل يلف جسده معطف صوفي سميك.

(١٠)

لم يستطع الماوردي أخذ فصل قصير من النوم في باص الليل الأخير. فقد كانت القرحة تنزل كامل قامته. بينما ملامح آخر الليل كانت في نهاية الشوط. كان يتطلع عبر نافذة الباص عمداً. على الرغم من تعذر الرؤية في مثل هذا الوقت. لم يتواصل مع أية أفكار. فقد كانت استجابته لذلك مقطوعة بسبب تلك الآلام التي اعتاد ابتلاعها منذ سنوات. وكم تمنى أن يرمي بتلك المعدة إلى فم ذئب لم يذق الطعام منذ قرن. ولكنه لم يستطع أن يفعل ذلك بسبب جبنه. أوفي أكثر الأحوال. ربما لأنه إطلاقاً، لم يجد مثل ذلك الذئب بعد.

"تبرير جميل؟!"

عندما نزل الماوردي من الباص، واتجه نحو المنزل، لمحت عيناه أربعة من الأشباح الأقزام وهم يقطعون الشارع باتجاهه.

"ما هذا بحق السماء؟ أنا سكران إلى هذا الحد أم إن العيون لم تعد بعد إلى العمل!"

سأل الماوردي نفسه وهو يحتاط للأمر. وعندما لم تبق بينه وبين الأقزام الشبحية إلا بضعة أقدام، سرعان ما سمع من يحييه: "هاي ماوردي!"

أصاب الذهول الماوردي، فأخرج يده اليمنى من جيب المعطف وراح يحك رأسه وكأنه يحاول إخراج قنفذ من دماغه، عل ذلك يساعده على تنظيف نفسه من الخريطة المفاجئة التي حدثت له، تفسير لائق للمشهد الذي يراه وسط الظلام الشفاف. وفجأة صاح بهم الماوردي: "قفوا!". بعدها اقترب منهم وراح يتطلع فيهم عن كثب.

- ما الذي أخرجكم من البيت في مثل هذه الساعة يا أولاد؟ سأل الماوردي أبناء جاراته الأجنبية.

- "نحن في طريقنا إلى المدرسة." أجابت الطفلة الكبيرة. وأضافت: أليست الساعة تقارب الساعة الآن؟

-كلا. إنها الخامسة يا أولاد. ومن ألبسكم أكياس الزبالاة السوداء هذه؟ سأل الماوردي وهو يحتضن أصغرهم.

- إنها ماما.

- سال الماوردي الأخت الكبيرة بدهشة وحنق: "هل فعلت ذلك أمك حقاً. ولماذا؟"

-نعم. هي التي فعلت ذلك، كي نقول للمعلمة بأن ليس لدينا ثياب للشتاء. كي تدفع لنا البلدية ثمن ذلك!

-وإذا لم تفعل البلدية ذلك؟

-سوف لن نذهب للمدرسة بعد ذلك!!

اصطحب الماوردي الأطفال إلى بيتهم القريب من منزله. رن الجرس وأعادهم إلى الأم، بعد أن سألتها إن كانت تملك في البيت ساعة لتحديد ومعاينة الوقت أم لا. وسلمها ساعته اليدوية بعد سماعه الجواب بالنفي، وأقبل عائداً باتجاه بيته.

"يا للجنة. لقد طارت السكرتيرة من الرأس. يا لقدارة بنت العاهرة. تستخدم الأطفال للشحاذة!"

هكذا كان رأس الماوردي يغلي بالغثيان من جراء هذه الطريقة الرخيصة للابتزاز. وكان على وشك الدخول إلى الفراش. لكنه لم يحس بالقدرة على ذلك، فتوجه إلى المطبخ من أجل إعداد فنان من القهوة. أحضرها، وقام بإشعال غليونه وتناول القهوة ممدداً قدميه على الطاولة.

وبدأت أفلام الأجانب عرضها في الذاكرة بسرعة البرق. ولم يستطع الماوردي إيقاف الفضائح التي انهالت عليه دفعة واحدة. لم إيقاف هذه العروض، إذا كانت مجال فخر مرتكبيها في عالم يسمى اليوم بعالم "الشطارة". "هل يستطيع الماوردي أن يمنع واحداً من هؤلاء عن التفاخر بواقعة فعلها، ولا يخجل من ارتكابها والتحدث عنها كعمل بطولي؟

تذكر الماوردي ذلك اليوم الذي رأى فيه شخصاً تتجمهر حوله شلة من الأجانب في إحدى المقاهي، وهو يقص عليهم بطولته عن الكيفية التي استطاع بواسطتها لطش ١٧٠ ألف كرونه في ليلة واحدة، عندما ذهب للمقامرة بلعبة الروليت في فندق الـ "SAS" مغتلباً شراء الفيشات بشيكات مصرفية من دون رصيد.

وتذكر الإفريقي الذي كَوّن شركة وهمية للاستيراد والتصدير بواسطة زوجته الدانماركية المخدوعة، ليطير بعدها هارباً من عش الزوجة والبلاد بأكثر من مليونين من الكرونات. وللمثال هناك شخص كثيرة يعرفها الماوردي وسواه. إما الظريف في عمليات النصب والاحتيال، فهي في صورة ذلك الشخص الذي زور شهادة وفاة لشخصه، وجاء ليقبض بوليصة التأمين على حياته من إحدى الشركات بنفسه!!

قذف الماوردي بللور النافذة بفنجان القهوة، واستلقى على أغطية السرير، وكأنه يحاول منع تدفق شريط المشاهد القذرة في ذاكرته.

"وما أدراك أن تصبح واحداً من هؤلاء يا ماوردي؟"

ضحك. عندما حاول أن يخلع الحذاء من قدمه اليسرى ولم يستطع. فسقط في النوم دون أن يحقق حتى هذه الرغبة: أن ينام دون ثقل الهموم والأحذية!

تذكر الماوردي أنه نائم الآن. قال:

"سأسحب للحاف ببطء من تحت جسدي دون أن أثير لديه الشك بأنني لم أتم حتى هذا الوقت. لست أنت الوحيد الذي يفعل ذلك. فهناك الكثيرون الذين يخشون من ضباط النوم في الليل أو أثناء القيلولة. ولكنك يا ماوردي ما تزال تفكر بكيف تنام حتى وأنت نائم. ماذا أصابك؟ هل أنت من سلالة المخلوقات الزجاجية التي تكشف عن كل ما في داخلها دفعة واحدة؟ أم أنت من نسل أولئك الذين يوزعون نعاسهم على النصوص، ويقفلون عائدين إلى ذواتهم بثياب الأحلام التي لم يصيبها التلوث

والتلف بعد؟؟ حتى لو لم تكن كذلك، أفنع نفسك بهذا الدور المسرحي. فلا شيء صعب في هذا. وليس من قانون يعاقبك فيما لو قمت بعمل شيء من هذا القبيل."

"كلا. نم أيها الوغد. وأحلم وأنت نائم. لا تنهض على الرغم من وجود النهار الذي يأكل الأرض بحوافره السمكية. اعترف للمرة الأخيرة بأنك بريء من النهار ومشتقاته المؤلمة والكتيبة. وبأن كل ممتلكاتك هي من صنع الليل الذي لم تر فيه شخصاً له أنف أشبه بعود الثقب، وعينان أشبه بالفطر. أنت نائم الآن، فلماذا تحاول تعكير مزاج الحواس الأخرى؟"

"بعد ساعات تستيقظ، ويكون بإمكانك عدم ترتيب الأغطية أو كي الثياب ولا تنظيم الأفكار من جديد. كذلك، فسوف لا تبذل جهداً لارتداء الحذاء، لأنه ما يزال في قدميك منذ الليلة الماضية. وكل هذا توفير لك في الحياة المعاصرة.. يا ماوردي!!"

- أين ذهبوا؟

- من؟

- أولئك الذين في ذهنك. هل ستعمل معهم؟

- لقد ذهبوا إلى بيوتهم لإستفراغ الإفرازات البطولية.

- وأنت؟

- من الصعب عليّ تكهن ما يحدث بعد إنجاز مرحلة النوم المكلف بها الآن.

- أيعني أنك لم تأخذ قسطاً من النوم، لتبتعد بنا عن هذا التحقيق؟

- لن نروا شيئاً. فالنعاس مثل بحيرات تنصت لقراءة الأحلام.

أبيها البطل الروائي الفاسد.
تسأل عن نفسك وتنام، فيخرج عليك الديناصور في الحلم، ليققات عظامك
وما تبقى من تلك الروح القديمة.
حيث الفراغ المُفترس والحنين المهووس وقتلى الذكريات.
"كأن لا مكان لك في الجغرافية." تسأل.
"كأن لا معنى لك في التاريخ" تجيب المخالب.
- ألم ترَ الطمي يملأ العين؟
- كنت أسمى ذلك اغتراباً. فالعين قماش العقل.
- وعندما يتسخ..؟
- يرتطم الظلام في العين كصخرة عملاقة سوداء.
- إن لك غطرسة المُبدع.
- وهي أشبه بالجرم المُخل بالشرف أمام السلطة العربية. أليس كذلك؟
في تلك اللحظة، أحس بالشارع يمد تحت قدميه أشبه بسجادة تكاد تخلع
العاصفة مساميرها. وكان يهرول دون تعثر، على الرغم من أن الليل اكتسح
المدينة كالصحراء.
"المنفى هو آخر الكنوز" تلك هي العبارة اليومية التي يتنفسها، وهو في
ممرات النوم الضيقة.

أخذ الماوردي مقعده في الباص كعادته اليومية. نفس المقعد ذاته. قبل الأخير إلى جانب الشباك. فقد ألفه طيلة عامين وأصبح وكأنه ملكاً شخصياً له في هذا الباص، مع بقية الأشخاص الذين بات الماوردي يعرفهم جميعاً، ويعلم أين يهبط كل منهم وفي أي موقف. وبكل تأكيد، مثلما ركاب هذا الخط أيضاً.. ممن باتوا يعرفون الماوردي، وأحياناً يهمسون له بكلمة: "هاي" تعبيراً ودلالة على حسن موقفهم منه. لكن حظ الماوردي هذه الجمعة كان على غير العادة. فهو لم يتلق كلمة "هاي" وحدها، وإنما: "كيف الحال أيضاً!"

كان الباص قد تحرك توأً من المحطة. ومعه تحركت شفاة الفتاة التي أخذت مكانها إلى جانبه في المقعد، فاتحة الكلام بالحديث عن الطقس. أهو الربيع الذي حركها؟ أم أن الكلام للاستهلاك العام؟ البشر في الدانمارك ملك الطقس. وهو ما يدفعنا لقبول هذه اللغة في المقدمة، وقبل أي شيء آخر في حياة هذه البلاد. فقسوة مكياج السماء الرمادي والتلج، هما ما يأكلان الروح ويسعيان لتدمير المزاج ونشر الكآبة في الأعماق السحيقة للكائن البشري.

-اسمي "مورغ نلسن" وأنا أسكن قريباً من منزلك.

"وأنا الماوردي". أجابها مضيقاً:

"الربيع هنا خرقة لا تستطيع مسح أو امتصاص ما يخلفه الشتاء في بلادكم. والصيف هو الآخر، كثيراً ما يعجز عن تجفيفها. لأنه صيف خجول في الغالب." هكذا أجابها الماوردي متمنياً أن ترى الدانمارك صيفاً حقيقياً.

"وهذا ما نلحم به". قالت له الفتاة وهي تدعوه لتناول القهوة في منزلها. لكن الماوردي أصر على أن تفعل هي ذلك وتتناول القهوة عنده. فابتسمت قائلة:

"إذا كان إصرارك هذا سيسعدك، فلا مانع من ذلك." وهبط الاثنان من الحافلة في الموقف القريب من الشارع الذي يقطنان فيه. كانت الزهور تسحر العين على امتداد الطريق، فيما كانت الأشجار تمتص أشعة هذا اليوم المشمس بنهم.

دخل المنزل.. فألقى الماوردي بحقيبته اليدوية على السرير، فيما وضع كيس البضائع في ركن الممر. مرحباً بمورغ وهو يشير إلى الصوفا الزرقاء المركونة في صدارة الغرفة، لتجلس. فيما بدت غرفة الماوردي في أحسن حال من الفوضى. الكتب والمجلات وأشرطة التسجيل والسرراويل والقمصان المبعثرة على السرير والمقاعد: "أرجو المعذرة من الفوضى". قالها الماوردي وهو يلم الأشياء في محاولة لترتيب الغرفة.

"لا عليك. هذا هو نظام العزاب". ألتست وحيداً هنا؟ سألته مورغ وهي تلتصق نظرها على صورة لفتاة كانت تأخذ مكانها على الجدار.

-نعم. سأذهب لإعداد القهوة الآن.

-هل تريد مساعدة؟

-شكراً. لطف منك أن أسمع هذا أيتها الضيفة.

أرجعت مورغ رأسها إلى الوراء ومدت يديها على ظهر الصوفا، وراحت تدقق في محتويات الغرفة متفحصاً الصور المعلقة والفازات والتماثيل الصغيرة والأواني الخزفية التي تحمل بعض الرسوم. فيما بدأت الشمس تتعكس بأشعتها على لوح البلور للنافذة التي تطل على الحديقة. عاد الماوردي وهو يحمل صينية عليها إبريق القهوة وثلاثة فناجين مع السكر والقشطة. فبادرته مورغ بالقول:

-ثلاثة فناجين!

-قد يأتي ضيف آخر. فلا نكلف نفسنا عناء السفر إلى المطبخ. الماوردي ضاحكاً. وهي تشاركه الضحك أيضاً.

-قل لي. أليست تلك اللوحة لسلفادور دالي؟

-نعم. هي كذلك. هل سبق وأن تعرفت إلى أعماله؟

-أجل. لقد سبق أن رأيت له الكثير من أعماله الحقيقية هنا. عندما عرضت في أحد متاحف الدانمارك. شيء ساحر. قالت له ذلك بإعجاب ودهشة.

-على الرغم من إن عالمنا سوربالي في تفاصيله الدقيقة، إلا أنه ليس بروعة عالم دالي السوربالي. عالمنا تحكمه الرداءة والقبح، فيما تحكم عالمه المخيلة الجمالية.

-وهل تشعر بأن قباحت تغلف عالمنا؟ تشرب رشفة من القهوة.

-عالمنا ليس قبيحاً بالتأكيد، ولكنهم يعملون على مسخه.

-ومن هؤلاء...؟

-بالتأكيد ليسوا الملائكة. يضحك وهو يحاول إشعال الغليون.

-من أين أنت يا ماوردي؟ عذراً لهذا السؤال... يقاطعها الماوردي كمن يحاول التوكيد على ضرورة التوضيح، كمفتاح للحوار.

-من الشرق. يقولها وهو يشعر بنفسه كطاووس.

-وهل يعني هذا بأنك مسلم؟

-نعم. ولكن ليس من الضروري أن يكون الشرقي مسلماً. فالشرق مهبط كل ديانات الأرض. اليهودية والمسيحية والإسلامية وإلى ما هنالك من الديانات البوذية وغيرها. هل تعرفين شيئاً عن الإسلام غير ما هو مشاع عنه في الغرب: عدم تناول لحم الخنزير والخمور وارتداء الحجاب وتعدد الزوجات، والإرهاب مؤخراً؟!

يسأل الماوردي، وهو يفيض شوقاً للاستماع إلى جواب هذا الطائر الجديد "مورغ".

-إنك تحاول القفز إلى الجوهر فوراً. تبتسم بشيء من الإعجاب على صراحة الماوردي.

وتقول:

-قد أكون مع الخيارات الشخصية الخاصة بالأكل والشراب والعبادة والملبس. ولكن إذا كان ذلك قد حدث في القدم، فلماذا التواصل معه راهناً؟

-المسلم لدينا بقدر ما يؤمن. والإيمان لدينا درجات. ولكنني أحس بأن كل فرد له الحق بأن يبني علاقته مع الرب بطريقته الخاصة. لدينا متصوفة وعلمانيون وملحدون أيضاً. لذلك فعادات البشر،

كالامتناع عن تناول لحم الخنزير أو عدم شرب الخمر أو ارتداء الحجاب، ليست هي من جوهر الإسلام من شيء. فالكثير منا يأكل لحم الخنزير ويشرب الخمر ولا يرتدي أغطية الرأس.

-هل تأكل أنت لحم الخنزير؟

-أنا لا أتناول إلا لحوم الحيوانات الذكية. الطيور مثلاً. لماذا هذا الكذب يا ماوردي. ألم تأكل لحم الخنزير مرات عديدة، وتشرب الخمر بكل أنواعها أيها الوغد؟

-إنها إجابة ذكية للهروب من القفص.

-ليس هروباً هذا الذي تسميه. وإذا لم تعجبك هذه الإجابة، فنقل بأننا لا نأكل الخنزير رافة بهذا الحيوان الذي قد لا يستحق أن يتحول إلى نفاية في المصارين. هل تقنعك هذه الإجابة؟

الماوردي يضحك مضيقاً:

-لماذا تريدون منا أن نأكل الخنزير وكأنكم تعلنون الحرب ضد هذا الحيوان. إذا كانت لديكم فكرة للانتقام، فعليكم أخذ الثأر من الخراف، لأن السيد المسيح ولد في حظيرة للأغنام، وساهم بتربيتها ورعيها دون الخنزير. لذلك يجب أن نتحدث عن العادة لدى كل شعب من الشعوب. فنحن لو أكلنا لحوم الأبقار في الهند، لكننا بنظر الهندوس ليس أكثر من جزارين وقتلة. فأولئك ليس بوسعهم رؤيتنا ونحن نقوم بتحويل ألتهم إلى "بوف" أو بفتيك وشرايح للقلي. وأضاف

-كذلك الأمر بالنسبة للأوروبي الذي يهتم بالكلاب. هل تسعده رؤية أكلة لحوم الكلاب في شرق آسيا الأقصى؟

-أنت تجد تبريراً لكل شيء. وتتفه قيمة الموضوعات التي ربما هي في ذهنك بقيمة الصفر. أسألك عن الحجاب وأغطية الرأس؟

-إنه موديل أو موضحة. لماذا لا تعتبرونه كذلك؟ ألا تؤمنون بالحرية الشخصية؟ ثم ليست كل مسلمة تفعل ذلك. هناك الملايين من النساء لا يستخدمن هذا الغطاء على الرغم من أنه قد بقي الشعر من التقصف والغبار والتأثيرات الجانبية لحرارة الشمس.

تغرق مورغ بالضحك وهي تستمع لوجهات نظر الماوردي. وتسأله: "والتعددية في الزواج؟".

-من كثرة حبنا للنساء يا مورغ. يضحك - وكذلك من أجل زيادة وتحسين النسل. ولمنع حدوث الزنى أو البغاء أيضاً. أقول لك لقد كان يحدث ذلك سابقاً، أي قبل بلوغ المدينة عالمنا. وقبل أن تتال المرأة بعض حقوقها الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية في أكثر من مكان.

أسألك يا مورغ:

-كم امرأة يتزوج الرجل في بلادكم؟ أولم يضرب رقماً قياسياً في تعدد الزوجات، ولكن مع بعض الاختلافات الطفيفة-يتزوج دون أوراق. وينجب دون أوراق. ويطلق أو ينفصل دون أوراق. أو يعيش الزواج ضمن أوراق. أليس هذا صحيحاً؟

-أجل. وهو ما لم يكن يحدث قبل خمسين سنة أو أكثر في بلادنا. فقد كان مجتمعاً فلاحياً محافظاً له تقاليده.

-والآن؟ أليس محزناً هذا التفليس المنظم للعائلة: الطلاق والانفصال والزواج والحب الذي يأتي ويختفي بسرعة البرق؟ مع الأسف، إن ذلك سيترك تعقيدات كبيرة على مستقبل الأجيال هنا. هل تعرفين كيف يحب الشرقي لدينا؟ كان المرء يخوض معارك طاحنة من أجل الحصول على المرأة التي

يجب. أقصد "معارك القبائل". الحب كما أعتقد يستحق مثل هذه التوضيحات. فيما هنا، يستطيع المرء الحصول على امرأة بواسطة التلفون!!

يمتنع وجه مورغ حنقاً من شيء ما قد تكون تذكرته هي الآن، فيأخذها الصمت، إلا أن الماوردي يحاول تغيير مجرى الحديث نحو ضفة أخرى. فيرجوها بقوله:

"دعينا من أجدادي وأجدادك الآن. ماذا تعملين هذه الأيام؟".

تسحب نفساً عميقاً من سيكارتها وتردد دون الشعور برغبة "موظفة في المكتبة".

- عمل جميل. أليس كذلك؟ ولكن حذار من العمل تحت رفوف الكتب العالية، كي لا يحدث لك ما حدث للجاحظ.

- ومن الجاحظ. وماذا حدث له؟

- من كبار كتّاب الأدب العرب في العصر العباسي. وقعت عليه رفوف مكتبته، فقننته الكتب

- وهل تتمنى أن يحدث لي ما حدث لكاتبكم؟ ضاحكة.

- كلا. ولكنني تذكرت تلك الواقعة فقط. فقد تقننا القراءة اليوم وليس وزن الكتب.

تهض مورغ لتشكر الماوردي على القهوة والحديث، وتهم بالذهاب بعد أن تتناول حقيبتها اليدوية مذكرة إياه بأنه سيكون ضيفها في المرة القادمة. فيشكرها الماوردي على أن يقوم بتحديد الموعد فيما بعد. وقيل أن تضع قدميها خارج باب المنزل، تطلعت مورغ بوجه الماوردي قائلة له:

- ألا تعتقد بأن مقتل الجاحظ كان بفعل عمل إرهابي؟

أخذت الدهشة الماوردي قليلاً وهو يحدق بعينيها اللامعتين وأجابها:

- ليست عينك جميلتان وحسب، وإنما تشعان بالذكاء. سنناقش موضوع الإرهاب في المرة القادمة.

- هل من مانع يحول دون تسجيل رقم هاتفك؟ سألت مورغ.

- كلا. تفضلي. يناولها ورقة كتب عليها ذلك. فيما هي تناوله كارتاً أبيض عليه رقم الهاتف والعنوان.

تقترب منه مورغ وتقبله أثناء توديعها له قائلة:

"لا تنس ذلك يا ماوردي. المرة القادمة عندي."

"لا. أبداً.. فيبيتسم وهو يصافحها مودعاً.

عاد الماوردي إلى الداخل وأقفل الباب. ثم سرعان ما سحبته قدماه إلى المرأة المعلقة في الحائط، حيث راح يتطلع في وجهه وهو يتحسس مكان القبلة التي طبعتها مورغ على خده الأيسر. بعدها أشعل غليونه واستلقى على الصوفا..

"هل كان عليك أن تدخل في هذا النقاش معها يا ماوردي. النساء لا يحبذن الفلسفة والسياسة والكلام الفارغ الذي أدليت بدلوك فيه. كان يمكن أن تتحدث عن الربيع والصيف القادم والسباحة والأزياء وأنواع النبيذ وربما الحب." هكذا حدث الماوردي نفسه، وكأنه يقوم بحملة تأديبية لتأنيب الذات على ما فعل.

"ومن يقول لك أنها من صنف النساء اللواتي يفضلن الكلام عن الأشياء التافهة؟"

أجاب نفسه وكأنه متأكد من سوية فكر المرأة وقوى عقلها الثقافية.

"ربما طارت من عش الصداقة التي تطمح فيها يا ماوردي" ردّ بشيء من الانكسار. إلا أنه سرعان ما ردّ على ذلك قائلاً:

"وليكن ذلك. فليذهبن إلى الجحيم. لكن لن يطول الانتظار، فالنساء مثل الطيور تحلق وتحط على الدوام. فهن لا يخالفن قانون الجاذبية. ونحن على الأرض يا ماوردي، لا على كوكب آخر".

- "لا تجازف يا ماوردي!!!"

- "بم. بالخنزير أم بالزوجات الأربع أم بالخمور التي لم تعد تحتسي منها غير النبيذ الرخيص!!!"

- "كلا أيها الغبي. بسعة التفكير أمام النساء."

- "وهل اخترعت صواعق تفجير جديدة."

- "كلا. ولكن تفجير النساء يتم بطرق ما زلت تجهلها أيها الأبله."

- "بعد كل تلك النساء، وما زلت أعمى!!!"

- "أجل. كل شيء يبدأ من النساء. ألم تقرأ ما قاله البيروتو مورافيا من أن الجنس هو محرك العالم."

- "اللعنة.. نم أيها الشيطان الخرافي. فتكاد أن تختفي الظلال الأخيرة من قنينة النبيذ."

عندما وصل الماوردي إلى قاعة الاحتفال متأخراً، لم ير أحداً من الأصدقاء خارجاً. إلا أن الوراق كان بانتظاره في الداخل. فقد حجز هو والرملاوي طاولة وسط القاعة الكبيرة، حيث الخطابات تفوح أكثر من رائحة الأطعمة والمشروبات ودخان السكاكر والضجيج العالي للثرثرات. وما أن دخل الماوردي القاعة، حتى لمح قامة الوراق، فنهض مسرعاً ليصطحبه إلى الطاولة. وهناك تعانق والرملاوي، ثم صافحه ثلاثة أشخاص كانوا يجلسون إلى الطاولة. جلس الماوردي وهو يتأمل ناس الجالية على تلك الأضواء الباهتة. فهمس الوراق في أذنه قائلاً: "فانتك الخطابات. أم أنك قصدت التأخر عمدًا؟"

"كلا. ولكن روح الاستعداد للحفل لم تكتمل إلا في اللحظات الأخيرة." ردّ الماوردي وهو يوجه كلامه إلى الرملاوي: أليس كذلك يا صديقي؟

-وماذا تراني. أنا في نفسك يا رجل؟ قال الرملاوي.

-كلام الأستاذ سليم. فأنت تقرأ الأشياء الغامضة يا سيد رملاوي. أجب أحد الثلاثة مازحاً.

-رد الرملاوي عليه معلقاً: وهل أنا الذي كشف عن برامجك في تهريبك للسيارات إلى خارج الحدود؟ قالها الرملاوي وهو يصطنع الدعابة.

-كلا. أجباه الشخص مضيئاً: ولكن السوق مليئة بالخبثاء الذين يفعلون ذلك بقصد. كي يقطعوا رزقنا!

فأنا أعرف شخصاً ندلاً، كان قد أخبر السلطات عن أكثر من مشروع تهريب.

-وما الفائدة من ذلك؟ سأل الماوردي المغفل.

-وهل تريد منا أن نقدم لك تقريراً عن ذلك. لا قالها أحدهم ساخرًا.

-كلا. الأمر ليس مهماً بالنسبة لي. عدا جانب المغامرة فقط. قال الماوردي.

-بكلمات مختصرة. نحن نذهب بالسيارات إلى خارج الحدود، والأخوان يقبضون آلاف الكروونات من شركات التأمين. أفهمت يا أستاذ؟؟

-"إنه عمل شاق" أجب أحد الثلاثة مفسراً ومعقّباً.

-لكن ألا تخشون من القانون؟ سأل الماوردي وهو يشعر بالغيثان.

-القانون!! إنه مثل الفندق نستطيع الدخول إليه بواسطة بطاقة رسمية واحدة. وعندما نكون داخله، نتمكن من إدخال الأشخاص الذين نريد إلى الغرف الأخرى. قال الثالث متفاحراً.

-إنها فلسفة طيبة للنصب والاحتيال. يعلق الوراق.

-كلا يا دكتور. ليس هذا احتيالياً. بل شطارة وتجارة. يرد أحد الثلاثة على الوراق.

-إن شطارتكم تكاد تخرب البلد. فأنتم تقبضون، فيما يدفع الآخرون ثمن جنائتكم. ولو كانت القوانين حارة حرارة الحديد لما فعلتم ذلك ببرودة أعصاب. الرملاوي موجهاً الكلام للجميع.

-لا تتعب نفسك بالتفكير يا أستاذ. فسيأتي الوقت الذي نكون فيه أقوى من القانون!

وقيل أن ينتهي من كلامه، تعالت أصوات شجار بين طاولتين وبدأت معركة بقناني المشروبات. فقد سخن وطيس الروح العدوانية بين سبعة أو ثمانية أشخاص كانوا قبل قليل يتبادلون الأنخاب فيما بينهم.

"إنهم يحاولون حسم الحوار فيما بينهم. فلم يجدوا غير هذه الطريقة الفضلى!" علق الوراق وهو يشير بإصبعه إلى الماوردي والرملاوي بالنهوض لمغادرة القاعة التي اختلط الحابل والنابل فيها. لم يكف أحد عن الصراخ وإلقاء الشتائم والبيدات. كما أن حدة تطاير القناني هي الأخرى لم تخف. عدا عن ذلك فقد بدأت الدماء تسيل من وجوه البعض في مثل هذه السهرة الاحتفالية. كل ذلك حدث بسبب السياسة.

"إنهم يناقشون الأمور على طريقة البهائم؟" الماوردي في نفسه ممتعضاً.

"هذه هي الديمقراطية الفاخرة التي تعلموها من هذه البلاد". قال الماوردي ساخراً، وهو يغادر القاعة بمعية الوراق والرملاوي.

"النزعة الديكتاتورية إرثنا الوحيد. وتريدنا أن نتخلى عنها ببساطة!!" علق الوراق ساخراً.

"لا نريد الافتراض بإمكانية نشرنا بالديمقراطية دفعة واحدة. ولكن لماذا لا نتعلم شيئاً من ذلك في هذه البلاد؟" يعلق الرملاوي بأسف.

رد الماوردي: "الكتب لا تعلم أحداً الديمقراطية. فالناس هنا يتشربونها بالرضاعة منذ الصغر."

"هذا صحيح. وتلزم كلاً منا عملية جراحية لاستئصال الورم العدواني في الدماغ" الوراق معقياً.

"بل الأرخص كلفة والأسرع تنفيذاً، أن تضع كل شخص من هذا الطراز، في الكيس الأسود الخاص بالزباله، وتربطه بإحكام لتقذف به في بحر الشمال. فلا حاجة للمجتمعات المتحضرة بنفايات كهذه". يقولها الرملاوي وهو يركز على أسنانه من القرف.

"ومن يدفع ثمن الأكياس يا عم؟" يسأل الوراق ضاحكاً.

"البلديات". يرد الرملاوي مضيقاً: "أو تستقطع التكلفة من أرصدة هؤلاء في البنوك، على الرغم أنهم لا يضعون في البنوك كل ما يدخرون. فالتحويلات إلى الخارج جارية على قدم وساق."

"في هذا شيء من التهويل". الماوردي مخاطباً الرملاوي.

يرد الأخير بثقة وتحذيراً "لو أملك تفويضاً رسمياً، لكنك وضعت قائمة طويلة عريضة باستثمارات وعقارات هؤلاء النصابين وغيرهم في الخارج."

"قد يحق لكل فرد تأمين المستقبل له ولأطفاله في بلده. ما المانع من ذلك؟" يسأل الماوردي.

"المانع. أن لا يتحول الأجنبي إلى شحاذ على أبواب البلديات ومديرية شؤون اللاجئين. المانع أن لا يحتال على البنوك وشركات التأمين. أتعرف كم حادثة سطو وحريق للمحلات والمطاعم التي يملكها الأجانب هنا؟ إنها بالمئات سنوياً. ولا تتم هذه العمليات بفعل الغير، بل أغلبهم يضرم النار في ما يملك من محل أو سيارة أو بيت، بعد تفرغهم من محتوياته الثمينة، ليطالب بعدها شركة التأمين

المسجل فيها بالتعويضات. الأمر الذي دفع بشركات التأمين إلى رفض التعويضات التي قد يستحقها البعض ممن قد يحدث لهم سطو أو حريق أو حادث جدي غير مزيف!".

"وهل سنقص كل مصائبنا في الشارع. لقد تعبنا قدمائنا من المشي". سألهما الماوردي مضيقاً:
"هل نختار لنا حانة، لنسهر ليلتنا فيها؟"

"لنجرّب الديسكو يا شباب. فهي المرة الأولى التي سيدخل فيها الرمالوي هذا المكان الذي قيل فيه الكثير والكثير". يدعو الرمالوي ويكمل:

"ما رأي الأستاذ الماوردي في هذه الفكرة؟".

الماوردي: "لا مانع من ذلك إذا كانت هذه رغبتك. فليكن..".

"هل تعرف مكاناً محدداً؟" يستطرد الماوردي وهو يخاطب الوراق.

- "اجل. دعوني أستعمل الهاتف قليلاً".

يدخل الكابينة ويدير القرص، فيما الماوردي والرمالوي ينتظران على الرصيف القريب. بعد دقائق، ينتهي الوراق من الهاتف، وينطلق الثلاثة وسط الليل بظلمته الشفافة. فالبلد في أوائل حزيران وهي مقبلة على الصيف على الرغم من البرودة الخفيفة في المساء

"سنلتقي بصديقتي مارينا على باب الديسكو". قال الوراق مبتسماً.

"وهل هي دانماركية يا دكتور؟" الماوردي سائلاً.

"أجل. وهل لديك اعتراض؟" يضحك الوراق بصوت عالٍ محاولاً إثارة الماوردي.

"أعوذ بالله يا رجل. أجلستموني مع عصابة تهريب السيارات في الحفلة المشؤومة، ولم أعترض. فكيف لي أن أفعل ذلك مع صديقتك!" قالها الماوردي، وكأنه يوجه لهما اللوم على فكرة الانضمام إلى الأشخاص الثلاثة في القاعة.

قال الوراق "بإمكانك سؤال الرمالوي" مشيراً له بإصبعه.

ردّ الرمالوي "أتريد حقاً أن تعرف كيف تمت معرفتي بهم؟" موجهاً الكلام للماوردي.

"لا أقصد. ولكن..". قيل أن تكمل يا ماوردي إليك الحكاية:

"قبل عامين تعرضت إلى اعتداء من قبل أربعة من الشباب العنصريين فيما كنت بانتظار الباص في أحد المواقف في مدينة هلسنغور". كان الوقت ليلاً. ولم اكن آنذاك متقناً للغة، ولم أضع في الحسبان بأنني سأقع في يوم ما بمثل ذلك الموقف الصعب. فقد أمطرنني الأربعة ضرباً بشكل مفاجيء. وكاد أحدهم أن يغرس سكيناً في عنقي. آنذاك حضر الثلاثة، وكأنهم سقطوا على المكان من السماء، هكذا فجأة. لم يكن ثمة أحد ينتظر الباص في مثل الوقت من تلك الليلة. وعندما اقترب الثلاثة وقد رأوا الدماء تسيل من وجهي، بدأوا معركتهم مع العنصريين فوراً، وقيل أن يعرفوا هويتي أو من أنا حتى. بعدها لاذ الأربعة بالفرار مختفين في أحد الشوارع الفرعية. فيما نقلني الثلاثة إلى المستشفى لإجراء العلاج، وعدم التقدم لدائرة البوليس بشكوى، لأنها ستسجل ضد مجهولين كالعادة!

بعد التداوي في المستشفى، لم يدعني الثلاثة وحيداً، بل أصروا على أن أكون ضيفهم حتى اليوم التالي. وفي تلك الليلة، عرفت الكثير عن "كدعنة أولئك الذين ولدوا في خنادق الحروب النظامية منها والأهلية. لتتوزعهم خنادق المنافي فيما بعد".

وأضاف الرملاوي مخاطباً الماوردي:

"هكذا تمت المعرفة يا أستاذ!!". ولولا هؤلاء، ربما كنت الآن طعاماً سخيماً لأسماك بحر الشمال.

أطل الثلاثة على مكان الديسكو، ورأى الوراق مارينا واقفة بالانتظار، حيث وصلت قبل ثوان. كانت ترتدي تنورة رمادية طويلة مع جاكيت من القطن الأزرق، وكانت تحمل حقيبة من القماش. أخذها الوراق بحضنه ليقبلا بعضهما البعض، وبعد أن انتهيا من المراسيم الغرامية الواجب إتباعها مع بنات البلد بروتوكولياً، قدمها إلى الماوردي والوراق للتعرف.

"يبدو الاستعداد للرقص واضحاً لدى الجميع" قالت مارينا ذلك لمداعبة الثلاثة.

"بل عليك القول بأننا نفتحم هذا المكان من باب التعويض عن سهرة ضائعة ليس إلا."

ردّ عليها الماوردي في محاولة منه لتفيس الحماس.

"سنكون في الديسكو أشبه بالجنرات المحالين على التقاعد. لا واجب لديهم سوى المراقبة وإعادة شريط الذكريات القديمة." علق الرملاوي وهو يدفع الماوردي لاقترام الباب. مضيفاً:

"لا تشعر بالخجل. فالشيخوخة لم تتل من براغينا بعد."

لم يكن صخب الموسيقى ولا الغناء ليتوافق مع مزاج الماوردي منذ اللحظات الأولى. إلا أنه كان مضطراً للمسايرة وإن على مضض. فقد كان طقس الديسكو حاراً. والرائحة خليطاً من عدة روائح. أما الوجوه فهي تتوزع ما بين جنسيات مختلفة: دانماركيون وعرب وهنود وأفارقة وصينيون وأوروبيون، ومن أعمار تتراوح بين ١٦-٢٥ سنة على الغالب، ومن كلا الجنسين. جلس الماوردي والرملاوي إلى طاولة كانت في الركن. فيما اصطحب الوراق صديقته للرقص؟

"هل راق لك الجو؟" سال الماوردي الرملاوي وكأنه يلومه على اقتراحه.

"لم تستكمل الصورة بعد يا صديقي. وعلينا التمتع بحركات الراقصين قبل أن نقوم إلى حلبة الرقص يا سيدي الماوردي!"

"الرقص. هل جننت يا رجل؟! ومع من سنرقص يا ترى؟ أنا وأنت؟" يرد الماوردي عليه وهو يتفحص فتاة رائعة الجمال.

"لنكن جاهزاً نفسياً. فيعد فليل سنختار فتاتين للرقص." يرفع كأسه للوراق الذي يراقص صاحبتة. ثم يلتفت إلى الماوردي قائلاً:

"هل تخجل من الرقص يا أستاذ؟" بعد ساعات ستضرب الخمور الرؤوس، ولن يتمكن أحد من معرفة أحد في الديسكو من هول الثمالة. وبذلك نستطيع الرقص مع من نريد.

رد الماوردي: "هذا ما لا أستطيع فعله. إنها تسمى نذالة في علوم اللغة."

"الجميع يفعل ذلك هنا." يرد الرملاوي كمن يتأثر من تفكير الماوردي.

"ولكنني لا أفعل ذلك." يقولها وهو يخلع سترته ليعلقها على كتف المقعد الذي يجلس عليه.

"أنت حر يا سيد. أن تفعل ذلك أو لا تفعله. أما أنا فسأرقص رقصة زوربا." أتتذكر الفيلم؟

يعود الوراق وصديقته إليهما بعد رحلة الرقص الشاقة وهما متشابكا الأيدي. كان الوراق ومارينا يتصببان عرقاً. ناولهما الرملاوي مناديل الورق قاتلاً للوراق:

"عندما تشبع من الرقص. أشر لنا بذلك لنخرج من هذا المكان"
"ولماذا. هل حدث شيء؟" الوراق مستفسراً من الرملوي.
وفيما الاثنان يتبادلان الكلام، وإذا بشاب سكران يقترب من الوراق ليصرخ بوجهه:
"الخنزير السوداء لا تصلح للرقص مع شقراوات الدانمارك!"
حاول الدكتور الوراق تهدئته مخاطباً إياه بأعصاب باردة، إلا أن الشاب يزداد صخباً ولفظاً
للشتائم البذيئة.

"حتى النساء، تستولون عليهن يا حقراء." فيرد الوراق بهدوء:
"من كثرة تفريطكم بهن.. أو من انقطاع الحرارة. أليس كذلك؟".
إلا أن الوضع لم يستقر عند هذا الحد. فقد كانت نزعات البعض تميل للمعركة. وعندما سخنت
جبهة القتال، نهضت مارينا لتقوم بتأنيب الشاب الثمل بكلمات قاسية، ساحبة إياه إلى الخارج. فينهض
الوراق والرملوي والماوردي في أثرها، لاستيضاح الأمور. لكن الصورة تزداد تعقيداً بظهور
مجموعة من الأشخاص لمساندة وضع الشاب السكران.

"بالأسوأ أخذ زنجي مني صديقتي" قالها شاب وهو يحرض الجميع للمنازلة.
"ربما لأنك لم تقم بالواجب" علق واحد من الشباب ساخراً.
هذا الوضع قليلاً بعد أن تنفس الجميع. فخرج الماوردي والوراق ومارينا والرملوي إلى
الشارع. وبعد أن ابتعد الأربعة عن المكان، قام الرملوي بأداء بعض الحركات الراقصة في عرض
الشارع على طريقة زوربا.

"قلت لكم، لن تضيع مني فرصة الرقص الليلية، حتى وإن يكن الرقص مع الذئاب!"
قال ذلك الرملوي في محاولة للتخفيف من وطأة الصدمة التي تعرض لها الوراق في الديسكو.
"هل تشاركينني هذه الرقصة الوحشية يا مارينا؟" سألها الرملوي دون توقف.
فتقترب مارينا منه، وتحاول تقليد حركاته وهي تغرق بالضحك.
"لن ندع أحداً يسلبنا ما نود الاحتفاظ به. فالعالم صغير والروح ضيقة" قال الرملوي.
فرد الماوردي:

"وكل منا ملون بدمه الخاص. أليس كذلك يا وراق؟"
ينط الاثنان الماوردي والوراق للمشاركة في حلبة الرملوي ومارينا وسط الشارع.
"سنقبر أقدامنا حتى الفجر في هذا المكان. فكل من سيمر بهذه القطعة من الأرض ذات يوم من
تاريخ التشرذم، سيشم رائحة رقصنا. وربما سيتحول المكان إلى ديسكو. ليس الآن، بعد ألف عام
أقصد!!".

هكذا قال الماوردي وهو يتوسد الأرض مع الأربعة، لينتقطوا أنفاسهم من التعب.
"لا تنتفسوا كثيراً، لنلا يقول العنصريون بأن الأجانب يستهلكون الكثير من الأوكسجين، وأن
زفيرهم هو السبب في توسع ثقب أو بحيرة الأوزون في السماء!!" يعلق الماوردي ساخراً.

مع ظهور خيوط الفجر الأولى على العاصمة، راحت أسراب من النوارس، تشق السكون.
بأصواتها. فينهض الأربعة وقد بدت ملامح السهر تطبع وجوههم، متفرقين في اتجاهات مختلفة.

اليوم أول سبت من حزيران. ويكاد يكون الافتتاحية الحقيقية لصيف هذا العام. فالطقس مشمس بشكل يثير الرغبة بالتوجه إلى الشاطئ. فدرجة الحرارة كما عرفها الماوردي من نشرة التلفزيون في حدود ٢٦ درجة. وهي درجة تعطي المرء الحق بالتفكير في البحر. أجل. فتطهير الأجسام من الصدأ، أمر لا بد منه في حال توفر الشمس. وإلا فسيطال التعفن كل شيء.

"سنذهب إلى البحر" قال ذلك الماوردي وهو يقر بالنيابة عن صديقه "مورغ". وبصوت عال

هتف:

"إذن. إلى أعالي البحار والنساء والشموس يا ماوردي." وأمسك سماعة الهاتف متصلاً

-هاي مورغ.

-هل أكملت إفطارك.

-لدي فكرة. ما رأيك بالذهاب إلى البحر اليوم. أهي فكرة معقولة؟

-جيد. هذا ما كنت قد قررته بالإنيابة عنك. إلى اللقاء بعد ساعتين. هاي.

دخل الماوردي بعد إجراء الاتصال الحمام لحلاقة ذقنه. وقد فعل ذلك وهو يردد أغنية للفنانة

فيروز

"شاييف البحر شو كبير، أد البحر بحبك".

أجل. فقد كان المزاج رائعاً، ليس بسبب الطقس وحده، بل بسبب الحب. فقد كان يحس بأموج الشاطئ وكأنها بدأت تتحرك في داخله. بل ذهبت به فكرة أن يقطع بمورغ بحر الشمال. إلا أنه سرعان ما كان يقمع تحليقاته، فيخفف جناحيه للهبوط البطيء على الأرض. ولكن، قد تكون الأرض هي الحلم فيما لو قذفت من على سطحها الشوائب والنفايات.

حمل الماوردي حقيبته اليدوية، مرتدياً الشورت الأزرق والقميص الأبيض، وغادر المنزل لملاقاة صديقه للمرة الرابعة. يضغط على الجرس، فتخرج مورغ لتأخذه بين ذراعيها وتطبع قبلة على خده.

"يجب أن أنتزع هذه الخدود من الوجه في المرة القادمة. سأحول كل ما في وجهي إلى مجموعة من الأفواه. آنذاك.. فأينما سوف تقبلني، يقع فيها في أحد من تلك الأفواه، فلا تذهب القبلة هباءً".

هكذا قص الماوردي على نفسه هذا الاختراع بلمح البرق.

"أهلاً مورغ" وانطلق الاثنان سيراً على الأقدام، وهما يشقان الشوارع الفرعية للفيلات الصيفية باتجاه الشاطئ الذي لم يكن يبعد عن مكان إقامتهما غير أقل من كيلومتر واحد.

يضعان الحقيبتين على الرمل، ويجلسان متأملين أمواج الشاطئ الزاحفة بهدوء. أصبحت الحرارة في مثل هذا الوقت أكثر ارتفاعاً. الرمال هي التي تقول ذلك وليس الماوردي. وأصبح البحر مفتوحاً ومهيئاً لاستقبال جسد مورغ. القلب يقول ذلك وليس الماوردي.

"هل تعرفين أن درجة الحرارة في بعض بلداننا، قد تصل إلى الخمسين درجة يا آنسة؟! يقول لها الماوردي ذلك، وكأنه يحاول تحريضها نفسياً على الشعور بالـ"كريل" فرن الشواء.

-لقد وصلت حرارة طقسكم إلى جسدي يا ماوردي. فنهضت لتخلع التنورة الصيفية الصفراء المعرقة بالأخضر والكحلي، بعدها لتخلع الكنزة القطنية البيضاء، لتظهر عن عنقودين من الكريستال المشعب باللون الذي تخلفه الشمس في الثواني الأخيرة قبل دخولها الكهف السماوي. ولتعلن عن ساقين من السرو الموشى بحرير منقوع بورق شقائق النعمان الفاتحة اللون.

"لا تكمل يا ماوردي. فقد تلفظ أنفاسك قبل سرد التفاصيل".

"هيا" وسحبته من يده، دون أن تشعر بأن الماوردي مصاب في هذه اللحظات بزلزال درجة ٧ من مقياس المرحوم "ريختر". وأنه سيلقى حتفه، ليس في بحر الشمال، بل وإن كان ذلك تحت الدوش أيضاً! فمقاومة الجمال هنا، خدعة صفيقة.

عندما اخترق الماوردي ومورغ ممسكة بيده، غابة أجساد الفتيات اللاتي كنّ مستقلقيات أو لاعبات بالكرات المائية أو جالسات على رمال الشاطئ وهنّ يحتسبن الكولا أو البيرة. تمنى لو تحول البحر إلى بساط يستطيع سحبه إلى وسط المدينة، على غرار ما فعله الرسام سلفادور دالي في لوحة له.

غير أنه سرعان ما استبدلها بفكرة أن تقوم مورغ برفعه عالياً، وتطوح بجسده إلى أبعد نقطة في هذا البحر الشمالي.

أغرقت المياه الماوردي إلى النصف ليستفيق إلى نفسه أكثر، ولتقطع أفكاره إلى فتافيت يمكن أن تطعم آلاف الأسماك. كانت صديقته لا تزال تمسك بيده، ولا يعرف لماذا. هل هو الخوف عليه من الغرق في البحر الساكن، أم الغرق في محيط جسدها المشتعل عصفاً وزوبعة؟

ربما قرأت مورغ ما في عيون الماوردي. ولذلك فضلت أن تمسك يده بيدها وتدخل الماء لإطفاء حرأته. لكن الماوردي يحاول ادخار ما يراه من جمال للقائد. فأجمل النساء لأجمل القائد. والعكس يخضع لهذا الاعتبار أيضاً.

"حتى هنا.. الشعر والقائد!!" قال الماوردي لنفسه وهو يستلقي إلى جانب مورغ على الرمال التي بدأت الحرارة تشع فيها.

-هل كانت المياه باردة. سألته صديقته.

-أبدأ. لقد قمت بواجبك على خير وجه.

-ماذا تقصد يا ماوردي؟ سألته مورغ باستغراب.

-أقصد بأنك أفرغت الكثير من الشحنات الحرارية من جسدي في الماء. والماء ناقل للحرارة مثله مثل الجسد.

-ضحكت مورغ مغطية وجهها بيديها، ثم لتتظر في وجه الماوردي قائلة:

"هل أنا جميلة يا ماوردي ويعجبك جسدي؟" وتغرر أصابعها في شعره بشيء من العنف.

"أنت المختصر المفيد للجمال يا مورغ؟" يجيبها وهو يطم بالكلمات. فتمسك رأسها بين يديها ونقله في فمه قبلة طويلة، ربما كان ينتظرها منذ قرون.

"أهكذا تقبل الملائكة الشياطين على الخط الفاصل ما بين الجنة والنار؟"

خرجت هذه الجملة من فم الماوردي مع رائحة القبلة التي هي خليط من رائحة النار في قشر البرتقال مع شيء من رائحة الذهب أثناء الصهر. ظل هذا الإحساس التذويبي بالرائحة مستمرا طوال الدقائق أثناء رحلة العودة إلى المدينة. الأذرع متشابكة. والخطوات تخرج من الأقدام وكأنها إسفنج يتنفس على الطريق. فيما ظل فمها وفمه مطبقين، كأنهما نسيا كل اللغات، أو لأنهما لا يريدان التفريط بتلك الرائحة.

"ترى الليلة.. هل ثمة شحنة أخرى من تلك الرائحة؟" قال الماوردي.

فرد عليه غرابه الداخلي:

"لن يكون شيئاً من ذلك القبيل. فلا تبتهج كثيراً.."

"أخرس أيها النذل يا نذير الهلاك والشؤم. فنحن على مقربة من منزل مورغ."

قال له الماوردي وهو يكبح جماح الغراب الداخلي.

فرد الغراب: "ستقول لك وداعاً يا ماوردي. سأراك في الأسبوع القادم. أو ربما بعد العودة من عطلة الصيف الذي ستنمتع به في أسبانيا أو المغرب أو اليونان أو ماليزيا."

وقفت مورغ ونظرت في عيون الماوردي وهما على الباب.

"الآن يا ماوردي... وداعاً. وتصمت قليلاً قبل أن تضيف: بعد ساعة سأكون بانتظارك هنا.

سنتناول العشاء معاً. هل من مانع لديك يحول دون ذلك؟"

سألته وأضافت قبل أن تستمع إلى رده "إذن الساعة العاشرة. هاي" وأدارت المفتاح في قفل الباب

ودخلت. فيما سار الماوردي صامتاً إلى منزله.

"ها قد نلت منك أيها الغراب النذل!"

قبل الساعة العاشرة، كان الماوردي قد أكمل كل شيء. مرتدياً البدلة السوداء والقميص الأبيض المزين بالكراقيه الحمراء التي تقاطع لونها الورود العيئية. كذلك قام بلف قنينة من العرق اليوناني بالورق السلوفان الملون مع إضافة شريط الزينة. وقبل التوجه بثوان قليلة، وضع شيئاً من الـ"BOSS" وهو العطر المفضل لديه، ثم خرج إلى الشارع كالطاووس، وهو يلتمس الطريق إلى اجتماع القمة في بيت صديقه.

كانت مورغ وكأنها تنتظره على الباب، فما أن ضغط الماوردي على زر الجرس، حتى فتح له الملاك الباب مرحبة به وهي تشيد بأنافته. فقبلها الماوردي بشكل خاطف مناوياً إياها زجاجة الشراب. فشكرته وهي تقوده من ذراعه إلى غرفة الضيوف.

هناك. جلس الاثنان، فيما كانت الموسيقى الهادئة تيبث روحها في كل زاوية من المكان الذي راحت الشموع البنفسجية تطبعه بالضوء الذي يأكل نفسه بنفسه بكامل السماحة والانسجام. إنه إيقاع لغة النيران التي تصوغ الدفء والحريق معاً.

-كيف كان النهار على الشاطئ اليوم؟ سألته مورغ وهي تحديق في عينيه.

-النهار. أم أنت!

-ننقل معاً؟!

-ليس من عادتي أن أمتدح النهار. فما يغريني هو الليل الذي ندخل ثيابه دون أن يتضايق منا، بل دون أن يحسنا بوجوده كرقيب على ما نفعل ونحلم.

-وأنا يا ماوردي. أين تضعني. في الليل أم في النهار؟

-١٠% منك للنهار. وما يتبقى فهو من أملاك الليل. كل جسد جميل، عبارة لا تنتمي إلا إلى لغة أعالي الليالي. وأنت كذلك يا مورغ. يرفع لها كأسه

-ترفع كأسها وتحنسي آخر قطراته، ثم تردف قائلة:

-أنت تشدني بغرائبيك يا ماوردي!

-وأنت تشدني إلى قاع الجنة بإبداعك. يسكب لها النبيذ في الكأس، ثم يمرر أصابع يديه بين شعرها. ويضيف بحماس:

-هذا النبيذ الذي تحتسيه، هو حبر الكتابة في الليل. هل تعرفين ذلك؟

-وأني نوع من الكتابة يا ماوردي؟ تجيبه ضاحكة.

يضحك الماوردي هو الآخر. ويرد: "كتابة الجسد!"

-والعقل؟

-العقل آخر انطباعات الليل.

تنهض مورغ من مقعدها والكأس بين أصابعها كشمعة في نهاية عمرها. تقف خلف الماوردي مطوقة رأسه بذراعها الأيسر. بعدها تسحبه برقعة من ذراعه وتقول متتهدة كالسحابة "سنجرب الكتابة بحبر الليل!!".

يترك الاثنان كأسيهما على الطاولة، فتختار مورغ الجلوس في حضن الماوردي، ممسكة رأسه بين يديها وملتقطة شفته السفلى التي تهتكت ذوباناً بفعل حوار الجنون الحراري، بحيث لم يعد الماوردي يدري إن كان قد بقي شيء منها، أم لا.

عندما حمل الماوردي مورغ نحو الصوفا القريبة، لم يكن على جسدها غير وريقة واحدة، فيما أصبح جاكيتيه وربطة العنق والقميص من مخلفات الماضي. ربما مماسح للأرض. وغاب الاثنان بعضهما في البعض، ربما بعد ساعتين أو سنتين... بعدها ليطلا من جديد على الطاولة التي تكاد شموعها تلفظ أنفاسها الأخيرة. فقامت مورغ بإشعال شمعتين جديدتين، بعدها لتمد يدها نحو القنينة التي جلبها الماوردي معه. فتنتزع عنها الختم.

"أو..أوزو" قالتها بدهشة.

فسألها الماوردي إن كانت قد جربتته في السابق. فردت بإيجاب.

"إنه لذيذ ومدهش" وأخذت تسكب منه في كأسين جديدين.

"هل تريد إضافة شيء من الماء معه" سألت الماوردي ليرد:

"أجل. شكراً" وارتفع الكأسان عالياً.

كانت الموسيقى في تلك اللحظات، قد أخذت منحى تحريضياً للرقص. وكذلك ثوب مورغ الأسود الشفاف الذي تكاد تساقط منه كل حقول الشهوات: الجبال والينابيع والسهول والأعشاب السوداء النابتة على سطح مثلث برمودا.

ينهض الماوردي لينادي:

"هل تسمحين بهذه الرقصة أيتها الكونتيسة الجميلة؟". يقول لها ذلك وهو يمد إليها يده منحياً على طريقة النبلاء. فتغرق مورغ بالضحك المشوب بعطر الثمالة الخفيفة وهي تنهض مرددة:

"أجل أيها الفارس الأسمر. الرقص حتى الفناء".

ويرقص الاثنان على أنغام الفلكلور الشعبي الدانماركي. بعدها يتناول الاثنان كأسيهما ويخرجان إلى فناء الحديقة وهما يتهاديان. يحمل الماوردي مورغ ويضعها على مقعد الأرجوحة، ثم يبدأ بدفعها إلى الأمام، بعد ذلك يقف أمامها متأملاً تساقط الخمرة من الكأس الذي في يدها. فيما كان ثوبها مستسلماً للهواء. وفجأة تخطر على بال الماوردي فكرة إيقاف مقعد الأرجوحة. ويفعل ذلك لينتزع الكأس من يدها، ويقذف به نحو الأشجار في الحديقة. بعد ذلك ليجلس القرفصاء، آخذاً مورغ من صدرها إلى فمه. فتأخذ الأرجوحة بالاهتزاز وكأنها تحاول الطيران نحو السموات البعيدة.

"إنها براكينك الخادمة يا مورغ. دعيتها تستفيق وتمسح جسديك لتذروه كالشذرات".

"لم يمسسك ذلك الذي أحببته طويلاً، ولم يهز فيك أرضاً. بل كاد أن يقتلك بشذوذه اللعين"

"لا تتذكري شيئاً الآن. طيري فقط. فأنت خلقت من أجل الطيران وحده".

لم يسمع الماوردي من كلمات مورغ إلا رنينها الخفي. فحملها على ظهره إلى الداخل، وأجلسها على الأريكة في الصالون وهو يقبلها. فطلبت منه أن يعد لها كأساً من الأوزو مع قطعة من التلج.

ففاعل الماوردي ذلك. وأدار أسطوانة من الموسيقى الهادئة، ثم جلس إلى جانبها ليكتشكش في شعرها. فقبلت له يده وأخذت تجهش بالبكاء، وهي تقص له حكاية حبها و"جاك هنسن" ذلك الشاب الجميل والرائع.. والذي كان شاذاً... و....

قام الماوردي بمسح دموعها، ثم سرقها من الحديث ليضع رأسها في حضنه ويلعب بشفتيها مداعباً لتغيير مسار القصة. بعدها رفعت رأسها كالقطة. وسألت الماوردي إن كانت قد سببت له الضيق من جراء قص الحكاية. إلا أن الماوردي لم يرد بالكلمات، بل قبلها من فمها وهو يشدها إلى صدره بحنان يكاد أن يعلن عن نفسه بصوت عالٍ.

"عليك نسيان ذلك يا عزيزتي". بهمس في أذنها هذه الكلمات، وهو ينظر في عينيها.

فترد مورغ: "سيحدث ذلك فيما لو وقفت إلى جانبي".

"أتمنى أن أفعل ذلك. ويمكنك الاعتماد عليّ" ويضربها بيده على فخدها كما لو أنه يؤكد. بعدها يتطلع الاثنان إلى الشموع التي تكاد تخفت. فتسأل مورغ إن كان لديه الرغبة بتناول كأس من العرق. فيكون رده بالإيجاب. فتتهض لتدخل الحمام مطولاً، فيخشى الماوردي أن يكون تأخرها بسبب حادث ما جراء السكر ربما، فيلج الحمام متقصياً أثرها، إلا أنه يرى جسدها وهو يفيض شعاعاً تحت مياه البانيو الذي طفق سطحه بالشامبو. فيضحك

"لم أكن أعلم أنك تستحمين. كنت قلقاً عليك." فسحبته بيديها بملابسه معها في البانيو.

عندما وصل الماوردي إلى مقهى المحطة الرئيسية للسكك الحديدية في كوبنهاغن، كان الوراق يحتسي القهوة وحيداً بانتظاره هناك. ولم تمض دقائق حتى بدأ الحوار يشتد حرارة على الطاولة المجاورة لطاولتهما. فراحا يستمعان إلى الأشخاص الثلاثة الذين كانوا منشغلين بمناقشة أوضاعهم!!

الأول للثاني: كيف تسير أمور البضاعة في "المحطة"؟

الثاني للأول: كالعادة. ولكن تصريفها بات عملاً بطيئاً.

الثالث للأول: حركة السوق في الصيف هي السبب. فنادرًا ما تكون هناك طلبات على الملابس الشتوية الثقيلة.

الثاني للثالث: و الكاميرات و الساعات و الفيديو ات-الكهربائيات بشكل عام-؟

الثاني للثالث: هذا يتوقف على قدرة الناس الشرائية. ولو قمنا بتخفيض الأسعار، لكننا لم نواجه مشكلات في البيع.

الأول لهما: سنفعل ذلك لنتخلص من البضاعة المتكدسة.

الثاني للثالث: سأترك خبراً لأحدهم، كي يعرج على "المحطة" ويستلم الستر الجلدية بربع السعر.

الأول للثالث: لا تنس أن تخبره بحاجتنا لكومبيوتر، فهناك زبون على لائحة الانتظار!

الثالث للأول: سأدفعه ليتمكن من ذلك بأقصى سرعة.

الثالث لهما: اللعنة على ابن السافل بهنام. لطش ساعتين ثمينتين وباعهما بسعر البصل.

الأول للثالث: صار يعمل لحسابه فقط!

الثالث للثاني: سنوقع به إذا ما رفض التعاون معنا. وسنكتب لابن العاهرة نهاية وخيمة. أقسم لهم أنور اليوم ذلك وقال:

"هيا إلى المحطة. نعمل جرداً نهائياً للبضاعة ونقوم بتوزيعها على المنافذ" ينهض الثلاثة وهم يخرجون من المقهى بثيابهم الفاخرة الأنيقة، وكأنهم من أعرق السلالات البرجوازية في أوروبا. فيما ينهض رابع من سوق الأشباح يدعى بـ"خورشيد الهبش"، ليدير محرك سيارته البيضاء من نوع "الفورد". مقتفياً أثر السيارة الحمراء من نوع "BMW" التي استقلها الثلاثة. لم يتوقع الهبش سهولة في عملية كشف موقع المكان الذي يستعمل كمستودع سري للبضاعة المسروقة وغير القانونية في ما يسمى بـ"المحطة". فلهؤلاء أساليبهم وخدعهم لضمان وتوفير الحماية ضد المخاطر التي تتهددهم. لذلك سرعان ما توقفت السيارة الحمراء في شارع فرعي في المدينة، لينزل منها أحدهم، فيستقل سيارة "مازدا" زرقاء، ثم لينطلق بها في غير اتجاه السيارة "BMW" التي راحت تنهب الطريق نهبا، لتتوقف بعد ذلك عند أحد الكيوسكات من أجل شراء قنينة من الكوكاكولا.

"أولاد العاهرة. يحاولون التضليل!!" قالها خورشيد الهبش في نفسه، وكأنه متأكد من أنهم يعرفون أن ثمة من يترصددهم. فتناول التلفون النقال من جانبه وراح يتحدث مع أحدهم لطلب المساعدة، بهدف تكثيف المتابعة.

بعد وصول الشخصين الضخمين للانضمام إلى الهبش، وهما يستقلان سيارة سوداء من نوع "بيجو" ويبدو إنهما من الأفارقة، تحدث الهبش معهما، فانتقلا إلى نقطة أخرى من الشارع الفرعي، فيما تتحرك الـ"BMW" لتشق طريقها نحو المحطة بحذر. وهناك تتوقف ليخرج منها شخص متجهاً نحو البناية، فيما ينتظر الثاني في السيارة.

كان الهبش يراقب الموقف عن بعد. فيما ترجل الشخصان الأفريقيان بعد أن أوقفا سيارتهما بعيداً، ليقتربا من باب سيارة الـ"BMW" ثم ينقضا على الشخص الذي كان في داخلها، فيأمرانه بالترجل من السيارة تحت تهديد المسدس الذي وضع في ظهره، ثم يدخلانه إلى البناية للاستعداد إلى "المحطة". فيفعل ذلك الشخص مرغماً بعد أن يكون قد تلقى المزيد من اللكمات في معدته. يفتح الهبش والأفريقيان باب الشقة وهم يمسكون بالرهينة-الدليل الذي سلمهم المفتاح، فيصبح الثلاثة وجهاً لوجه مع رجال المحطة. لا نريد استخدام الأسلحة. بل نحاول التفاهم على الشغل!" قال ذلك الهبش وهو يضع فوهة المسدس في صدر أنور اليوم.

فرد اليوم قائلاً: "وهل يتضمن الشغل يا هبش، حقنا بمشاركتمكم البودرا والحشيش؟؟".

يلقي الهبش بالمسدس على الطاولة، بعد أن يكون قد ترك مسك قميص اليوم من صدره، معلقاً

"كل شيء يخضع للتفاهم. بشرط!"

"وما هو هذا الشرط يا هبش؟" يسأله أنور اليوم وهو يفرك يديه بعضهما البعض.

فيرد الهبش: "الأمانة!!".

يطرق أنور اليوم برأسه طويلاً، فيما يبقى الآخرون متأهبين وهم بانتظار ما تتمخض عنه إجابته على ما كان قد طرحه الهبش.

"لا يصح الاتفاق تحت تهديد السلاح الآن. فنحن لو فعلنا ذلك. لأصبحنا كالفئران، وفي غير الموقع الذي نريده في السوق."

رد أنور اليوم متأثراً بموقفه الضعيف.

"عندما نعمل معاً، لن يُشعرك أحدٌ بالضعف. فذلك في غير صالحنا!"

ردّ عليه الهبش وهو يرتب على كتفيه مضيقاً:

"اتفقتنا يا رجل؟"

فيجيبه اليوم مبتسماً: سنتحدث عن ذلك فيما بعد

ثم يأمر أحد رجاله بقوله "أحضر البيرة من التلاجة لضيافة الغزاة". مصطنعاً ضحكة عالية مفرقة.

لم ينقطع الألم عن مرافقة كل الولادات. ولم يتراجع الندب الجلجاشي عن مستوياته القديمة، بل ما زال داخل ثمارنا ودموعنا وحبنا وقلقنا. به نفتح ومنه نختم حياتنا، هذه القطعة الترايبية التي خصصت لإتشاء ودفن الذكريات.

"يسقط المنطقُ في وصف ما لا يوصف راهناً"

السياسي بعضلاته المتوحشة، هو الغلاف الذي يحيطك. هكذا كنت تصف المشهد يا ماوردي. وكنت تقول: لقد تم استبدال الفانوس السحري بفانوس الحكومة. وصار جدار اليأس أعلى من جدار الحكمة في بابل. فالزمن هناك هو ألم نادر. ولا صوت إلا المحو. ففي شارع الدولة نُقتل كالبهائم. ويخاف واحدنا أن يسحب جثة الآخر من الطريق علناً. أو أن يدفنها علناً. أو أن يبكيها علناً. ولا أن يسمي موتها علناً. ولا أن يشير إلى القاتل علناً. لأن المسموح به فقط، أن ندفع ثمن الرصاصة التي قتلت. وثمان القبر الذي يأخذ حيزاً من أرض الحكومة التي تملكنا جميعاً.

-هل لك أن تفتح في العين نافذة جديدة للبكاء؟

-لك كغائب أم ماذا؟

-من أجل أن نبكي عزلتنا كوحيدين على الأرض.

كل أنهار الدم الطويلة تجمدت فجأة كالشمع في الجسد. وكان عليّ الخروج من كابوس الذكريات الذي أغرقني بصوته كجرس الكاتدرائية الضخم. إلا أنني قلت لنفسى: ما زال الوقت مبكراً على الكتابة. ثم كيف تدخل النص، وأنت أشبه بالجنزاة المحمولة على رقاب موتى؟ كيف تحاول بناء نص؟ وأنت منهك ومهدم؟ بل هل لك القدرة على معايشة الكتابة، وبينك وبينها قطب من الجليد؟

كيف تحاول الانتصاب والارتفاع، وأنت ضحية مباشرة لحروف تجرّ أمة كاملة نحو الأبراج السفلى؟ ألا تزال تعتقد نفسك منتصباً وقائماً ومرتفعاً في بلدان كلها زحف وتكسير وتهميش وشطب؟

نظرت إلى الماوردي. فنظر إلى ساعته وهو يفك وثاقها من معصمه، ليرمي بها إلى البحر.

"الزمن..!"

ثم نهضنا.

منذ الشهور الأولى.. حاول الماوردي أن يحقق معنى لوجوده من خلال العمل. فالحياة هنا، ليست تأملاً في حيطان المنزل. ولا هي بالنافذة التي يتطلع المرء من خلالها إلى الثلج والضباب والمطر ورماد السماء الذي يجعل بشر هذي البلاد أشبه بعرائس الجليد، يتحكم في مشاعرهم وأمزجتهم الطقس والكحول والرغبات الطارئة للانفلات من قبضة الوتائر الروتينية.

لم يكن ذلك إحساساً، بل هو الهاجس اليقيني الذي يسكن أعماق الماوردي، لغير الأهداف التي يعلنها الآخرون تحت مظلة تأمين المستقبل، بقدر ما هي رغبة للانخراط في خليج الحياة التي تأخذ معناها من التدفق والفيضان. فالمستقبل، كلمة لا تصلح للاستعمال في ذهن الماوردي. وقليل ما يفكر الماوردي بالمستقبل، فهو عنده أشبه بكرة الثلج، كلما تدحرجت من علو شاهق، كلما كبر حجم هيكلها، بعدها ينتهي كل شيء إلى فناقيت، بمجرد ارتطامها في أول حاجز عند المنخفض. والزمن الذي يؤمن تدويننا على هذه الشاكلة القاتلة، لن يستطيع تأمين مستقبل ضحاياها من البشر وسواهم.

فكر الماوردي بمشروع واحد لا غير. ويوم قام بتنفيذه عملياً ليقطع الشك باليقين للخروج من مستنقع صندوق المساعدات الاجتماعية إلى الضفة الأخرى، لم يلق لمشروعه دعماً. فقد سبقه إلى ذلك النصابون والدجالون، ممن يخططون ويقبضون الأموال ثمناً لإحتياجاتهم من المشاريع الوهمية التي سرعان ما تنهشم على الأرض كقطعة رقيقة من الزجاج.

كان يقول له البعض "وحده المحتال والخنوع من يستطيع الوصول إلى خزينة الدعم الحكومي..!!!"

أو "كن تافهاً، لئمنح الكثير من الجوائز والامتيازات والأوسمة!!". أو "إن الأنبياء على أرض الدانمارك، سنظل أوضاعهم كاسدة في سوق العمل!". بعد أن تكونت كانتونات اقتصادية وماقيات ثقافية فاسدة، تقدم الكثير من المشاريع بأسماء الأجانب، لتتقاسم معهم الغنائم!!

كان جل ما يخشاه الماوردي أن تتحول الأرض إلى خان للدواب وسقط المتاع من الطارئين على كل ما هو جوهري في السياسة والأدب والعلم والاقتصاد والحضارة.

لاجئون.. لآبأس. ولكن ليس لأن يدمر العشرات منا حيوات الألو، هذا ما ندافع عنه ضد مرتكبي الجرائم الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. ضد الذي يحاول نهش اللحم والعظم تحت ذريعة بناء المستقبل خارج الحدود. وضد الأمي الذي يرتدي زي الثقافة والأدب، فينصب نفسه كقائد للحوار ما بين الثقافة الإفرنجية والعربية، وكل مخزونه الثقافي وعمره الأدبي، لا يتعدى حدود "إيداع" الحشرات التي تضع بيوضها في أفقر الأمكنة إتساعاً. ذلك أن الحوار بين ثقفتي الغرب والشرق، لا يتحمل ثقلها كاتب فقير يكتب على طريقة ما يكتبه الأطفال في حفازات "البامبرز". ولا يتحمل وزرها ترجمان من فئة أولئك الذين ربما لا يعرفون من اللغات سوى المفردات الخاصة بتسمية المصالح الشخصية والمشاعر التجارية. لأنها الكلمات التي تتوهج في مقدمة اللغة في عقولهم. فكل هؤلاء ومن يقف خلف مجلاتهم ومطبوعاتهم، إنما يلعبون دور المبرزين لثقافة تافهة غير طبيعية، ولا ارتباط لها بالأصول الأم.

"ولماذا يأخذك الحزن يا ماوردي. أنت الآخر لست وصياً على الثقافة أو حارس بيت مال الدولة."

"ليس هذا هو السؤال. وليست تكون هكذا الإجابة!"

هذا ما كان يتردد في رأس الماوردي. فهو يدرك أن المراكب الورقية التي لم تستطع مياه المستنقعات الأسنة إغراقها، ستبتلعها أول موجة في البحر، لتلفظها نحو عالم الطحالب. لكنها المرارة والقسوة. المرارة من شيوع وانتشار الجراد. والقسوة التي تأكل الذات الصامتة، وهي ترى مسرح الأفاعي التي تسم العين بمشاهدها.

لقد حصل الكثيرون على حق اللجوء في البلاد، جراء تعاطف الحكومة مع ما جاء في إفاداتهم المسجلة، كونهم أفادوا لدوائرها بتعرضهم للاعتقال والإرهاب في بلدانهم. وهم من الملاحقين سياسياً، ومن المحكوم عليهم في بلادهم. إلا أن الصورة الحقيقية سرعان ما تتوضح، بعد أن ينال هذا الشخص أو ذاك حق الإقامة في هذه البلاد. فيقوم بأعمال تتنافى مع كل ما كان قد أفاد به للبوليس الدانماركي وسواه. فترى هؤلاء ينسفون كل اعترافاتهم التي حصلوا بموجبها على حق اللجوء السياسي أو الإنساني، ليعلنوا عن مناصرتهم للنظام الفاشي الذي سبق وأن أدانوا ممارساته الديكتاتورية في اعترافاتهم الأولى لدى دوائر البوليس الدانماركي والصليب الأحمر!!

"هل تتمنى لو قامت الدوائر المختصة في هذي البلاد بمراجعة ملفات هؤلاء، وإعادة قراءتها؟"

"الدستور هنا.. يكفل حرية التعبير."

"الحرية.. أم الكذب! ولمن؟ لعناصر المخابرات الدولية والجواسيس الذين يهددون ويطاردون اللاجئين السياسيين الهاربين من أكاريوم القذارة!!"

"البلد بلد ديمقراطي.."

"الديمقراطية.. لمن؟ للذين باتوا يمثلون بها كما يمثل الجزارون بجثث الحيوانات؟"

"لقد أفقدتك الديكتاتورية نصف عقلك يا ماوردي، هناك. وستفقد النصف الآخر بفعل ما تراه من الديمقراطية في هذا البلد؟!"

"سيكون الخراب في الذروة. فالماكينة التي تتآكل براغيها الواحد تلو الآخر، لن يصمد هيكلها الكبير والضخم طويلاً. ستسقط هي، ونحن تحت ركام قطع غيارها المحطومة."

"سيسمونك عنصرياً، أو نصيراً لها يا ماوردي. هكذا سيقول الفاسدون و اللصوص عنك!"

"ليكن ذلك. إذا كان الهدف والموقف، من أجل الحيلولة دون تدمير الآخرين من الناس الطبيين. فمتلما كان هؤلاء عبثاً على الشرق، هم الآن عبء على الغرب. وعلينا أن لا نغضب من مواجهة الذات. ليس عاراً أن يعيش ويتعلم المرء على أية بقعة من الكون، فالعالم تزوج حضارات. وليس مجالاً لنقل الأمراض والشوائب فقط."

أغلق الماوردي الكتاب، قاذفاً إياه على الطاولة، ليصطدم بقنينة النبيذ ويلقي بها على الأرض. فيما ظل هو يتطلع إلى تدفق الخمر من القنينة، دون أن يقوم بأية حركة لإيقاف تدفق النبيذ من القنينة.

"دعه ينزف حتى الرمق الأخير" قال تلك الكلمات ثم توجه نحو السرير وألقى بقامته في حاوية

النوم.

كان الصباح مكفهراً في هذا اليوم الأعمى. فالسماء منتفخة بأكوام من تلال العجين التي أغلقت كل المنافذ أمام شمس الصيف، وثمة زخات من المطر الخفيف، تأتي بين الحين والآخر، وكأنها بروفة لأمطار ستخسف الأرض حتى الابتلاع. لكن شيئاً من هذا لم يحدث حتى الساعة العاشرة، عندما رن الهاتف رنين أجراس الكنائس، كما سُمع ذلك في المطبخ الذي كان يعد فيه الماوردي قهوة الصباح. أو لنقل هكذا تخيل هو الصوت.

رفع السماعه للرد. إلا أن الصوت الذي سمعه الماوردي لم يكن غير صوت بكاء لم يجد له تفسيراً. فأحس بتحطم جدران رأسه، وكأن زلزالاً قد ضربه حدّ الهلاك. حاول أن يمسك أعصابه ويهدأ. لكن الدكتور الوراق لم يعط له الفرصة. فصرخ كالثور الذي يتلقى الطعنة القاتلة:

"من سمح له أن ينتحر!!"

وسرعان ما تطير السماعه من يده في الهواء. لم يدرك الدكتور الوراق بخطأ في الطريقة التي أوصل فيها نبأ انتحار الرملاوي. فقد كان هو الآخر منهاراً من وقع الصدمة التي أرسلها الرملاوي لهما جراء فعلته الجنونية الجريئة هذه.

يحاول الماوردي تجميع قواه بالنهوض، مستعيناً بيد الكرسي. فيشعر بأن عينيه قد صارتا كبحيرتين حمراوين من شدة ضغط الدم الذي راح يغلي في جميع ممرات جسمه.

"لقد فعلتها أيها الحقيير. ماذا سيقال عنك؟ عجزت عن مواصلة السباحة في هذا التلاطم الكوني الهائل؟ أم إنك فضلت هزيمة نفسك بنفسك؟ بل، وماذا سيستنتج الأجانب من هذا الفعل. ألا يقولون إنك قررت ذلك بفعل فشلك بالحصول على حق اللجوء السياسي أو الإنساني على أرض هذي البلاد؟؟"

عكرت الدموع صفو زجاج نظارة الماوردي، وهو يتطلع عبر النافذة بذهول.

"إنها كارثة. أن يتقبل الموت أوراق لجونك إليه، أسرع مما تفعله الحكومات المتحضرة بمنحك كهفاً في هذا القطب!!!"

لفظ الماوردي هذه الجمل، وكأنه يهذي هذيان شجرة ضربتها عاصفة للتو. بعدها حاول لملمة نفسه من التبعثر، وغادر المنزل بوجوم ثقيل يكاد يفيض من على وجهه.

"لم يقل لنا يوماً عن مشروع كهذا!!"

"لأنه يريد أن يفعل ذلك، لا ليتحدث عنه".

"كنت أدرك بأن الرجل سيفلت منا سريعاً.. ولكن ليس ليخذعنا بمثل هذه السهولة."

"السهولة. أنه يقطع شرايينه من كل حذب وصوب، وبعيداً بين حقول الزهر الأصفر!!"

"ألم تفعل ذلك شقائق النعمان، لتطرز تلك الحقول بلونها وقاماتها الرهيفة؟"

لفظ القطار البضائع البشرية على رصيف المحطة، ومنها جثة الماوردي الذي سرعان ما توجه نحو موقف الباص، ليستقله إلى المستشفى. حيث كان الدكتور الوراق وصديقه بالانتظار. وما أن لمح الماوردي الوراق حتى تعانق الاثنان وهما ينتحيان نحيب التكالى، فيما راحت صديقة الوراق تغطي

وجهاها بيديها وتنتحب هي الأخرى بخفوت. وبعد مضي دقائق، اقتربت مارينا لتضم بساعديها الاثنتين معاً، ثم يدخل الثلاثة إلى بهو المستشفى ليجدوا بعض الأصدقاء بانتظارهم في البوفيه. يتبادل الجميع التعازي ثم يأخذون مقاعدهم بصمت ثقيل. "ما أصعب هذه اللحظات أيها الرب؟ أن تنتظر لتودع صديقاً أو عزيزاً ذلك الوداع الأبدي الأخير. أن تمشي في جنازته. وأن تقوم بدفنه بيديك!!"

عندما حضر المسؤول عن تسليم الموتى في المستشفى بعد ثلاثة ساعات من الانتظار، عرفنا أن الأمور في نهايتها.

فقد تم نقل الرملاوي في صندوق من الخشب الأبنوس. تملوه باقات من الورد.

"أجل. لم ينقصك يا رملاوي غير أن تقوم بلف جثمانك براية البلد، ونعزف لك النشيد الوطني! ولكن ذلك، ربما لا يليق بأحد كان أو يكون في مثل وضعك. فالوطن الذي شردك، علمه أسود إلى يوم القيامة. والنشيد الوطني وقد أصبح لحن الرقصة الأخيرة للموت الذي تنتشر على جبل غسيله، أحياءً أو موتى. ثم أن الذين تلف توابيتهم بالأعلام، هم من الجنرالات والقادة والشهداء.. وأنت لا بالجنرال ولا بالقائد ولا بالشهيد. كل ما كنته أنك تحب الحرية لك وللناس وللوطن الذي صادروه من الجميع، وبقي متسكعاً على الخريطة وفي الإذاعة وعلى العملة فقط."

وفجأة يشق الماوردي طريقه نحو السيارة السوداء التي تحمل في داخلها نعش الرملاوي، فيفتح الباب الخلفي صارخاً:

"فلتتها أيها الوقح.. نمت مستريحاً لتفقدنا الراحة للأبد؟ أهذي هي نهاية العالم يا رملاوي؟"

تقدم منه الوراق وبعض المشيعين ليحلوا قبضة باب السيارة الخلفي من يد الماوردي، ويدخلونه إلى إحدى السيارات. بعدها ينطلق الموكب: سيارة دفن الموتى. وثلاثة من السيارات التي يستقلها المشيعون من الأصدقاء.

عند الوصول إلى المقبرة، كان الوقت غروباً، ولا يوحى مشهد السماء إلا بالرعب على الرغم من أن الضوء في مثل أيام الصيف يمتد إلى ساعات متأخرة من الليل. إلا أن السماء في هذا اليوم الأغر والأعمى، يبدو أنها لم تهضم سحب العجين التي كانت متراكمة منذ ساعات الفجر.

"ربما تقاسمه السماء آلامه؟"

قالها الماوردي، فيما الرملاوي يرقد داخل نعشه الذي ترك مسجى إلى جانب الحفرة بانتظار انقضاء الـ ٢٤ ساعة، حسب ما ورد في وصيته:

"أطلب من الأصدقاء عدم وضعي في براد الموتى أولاً. وثانياً، أن تتركوني مسجى في النعش لمدة يوم كامل قبل نزولي إلى المقر الأخير من الأرض. إنها آخر أمنية. أرجو منكم تنفيذها.."

كانت ساعات الإنتظار والترقب لتمرير الوقت تنفيذاً لوصية الرملاوي الغريبة، تثير الفزع والأسئلة في النفس. فالحزن الثقيل الذي ضرب الوراق في أعماقه، قد دفعه للتفكير بالقفز إلى داخل الحفرة. هكذا قرأ الماوردي وجهه في تلك الثواني.

لكن، وما دام الرملاوي لم ينزل بعد إلى هناك، فمن الصعب على الوراق فعل ذلك، نتيجة للإحساس الجلامشي أو الشرقي عموماً لدى فقدان الآخر.

في تلك اللحظات، تقدم الماوردي وهو يحس وقد تحولت قامته إلى شجرة حمى لتأبين الصديق الرملاوي. فقال بصوت متهدج:

"وداعاً يا صديقنا الجميل. ها قد خطفت نفسك منا بسرعة، دون أن تسمح لأحد أن يشاركك قرارك. في رحيلك راحة لك وعذاب لنا. ولكن جل ما أخشاه أن لا تجد مكاناً للجوء في تلك السموات أيضاً. فقل للرب أن يرسل للأرض جيوشاً من الأنبياء الجدد. وأن يحث الزلازل على العمل تحت أقدام الطغاة، ولو مرة كل قرن. قل للرب الذي في الأعالي: لقد أصبح اللجوء للسماء أسهل منه لأي بلد هنا. وإن الأرض التي خلقتها في سبعة أيام، ملأها الديكتاتوريات باللاجئين في يوم واحد. فلا مواطن يولد ويعيش ويموت على أرض واحدة. فالذي يولد في هذا الوطن، ينتقل للعيش مشرداً في سواه، ومن ثم ليهلك في وطن ثالث.

أجل. قل للرب: أن يحبس النفط. فقد قتلنا رائحة لحوم أصابعنا المحترقة بنيرانه منذ اكتشافه وحتى اللحظة. وأن يحول الذهب والفضة والماس والمرجان إلى بصاق يسيل في أيدي حكامنا. وقل للرب أيضاً، أن الديانات القديمة لم تعد تصلح للإستعمال في شيء بعدما استبدلها القائلون على الأرض باليورانيوم وغرف التعذيب. ولا تنس أن تقول له، أنني انتحرت، قبل أن تصله تقارير المخبرين بالفاكس. فقد تنفادى يا رملوي، حكماً جديداً بالتعذيب هناك.

قل للرب يا رملوي..-وأنت تملك الشجاعة الآن أكثر من أي وقت مضى- أن يرسل شمساً لبلدان الاسكندناف، غير هذه الشمس التي لا تسخن عين ديك. فقد تكاد أفكارنا ومشاعرنا أن تصدأ. وثيابنا ووجوهنا أن تتجدد. كما تذكر يا صديقنا، بأن ذوبان الجسد في الأرض، أفضل حالاً من التعفن عليها."

تلك الكلمات.. هي آخر باقات الزهور التي نشرها الماوردي على قبر صديقه. ثم أخرج من جيبه كتاباً صغيراً، وألقى به على القبر. "هذا لروحك يا فاتح الرملوي. فقد يطرد الشعور عنك الوحدة في آخر الليل."

بعدها اختفى المشيعون من المقبرة، ليظل الرملوي والدفان وسائق سيارة الدفن ساهرين بانتظار مرور الوقت المحدد في التوصية.

سأل الوراق الدفان والسائق إن كانا يحتاجان إلى شيء ما من الطعام، ليجلبه لهما، فرد الاثنان بأنهما قد أحضرا معهما في السيارة كل شيء، وطلبا من الماوردي والوراق مشاركتها في تناول السندويش والبيرة.

"هل لكما رغبة بطعام أو شراب وأنا ملقى في التابوت أيها الأوغاد؟" أجل. هذا ما سيقوله الرملوي عنك وعن الوراق. لكن الضجر وثقل الوقت قتلا مثل هذا التفكير السيء. فجلس الأربعة يكرعون البيرة ويلتهمون السندويشات بنهم.

-هل يقربك الميت؟ سأل الدفان الماوردي

-أجل. إنه صديقي.

-الأصدقاء عندنا لا يملكون الرغبة بالسهر على توابيت بعضهم. بل إن الأبناء لا يكفون أنفسهم "مشقة" إلقاء وردة على جنث آبائهم.

-ربما لأنهم لا يريدون إلقاء ثقل ما، لإزعاج أرواحهم الطيبة! قال له الوراق بلغة التهكم.

ضحك الجميع. فقام الدفان بالضغط على مفتاح الراديو، لتتبعث منه موسيقا صاخبة.

"تعالوا نحول المقبرة إلى ديسكو. فربما ينهض بعض الموتى للرقص معنا الليلة. أقصد، ممن استراحوا كثيراً. أو على الأقل لمرقص من أجل روح صديقكم!!!"

عندما نطق الدفان الدانماركي بتلك الكلمات، شعر الماوردي بتلك الحكمة القديمة: "يوم لك. ويوم عليك." فالعقوبة التي يتمتع بها الدفان هذا، دفعته إلى قول ذلك بالبداهة الأولى. صحيح أنه لم يقرأ للإمام علي بن أبي طالب شيئاً.. ولكنه يشعر بأن كل ساعة لها ما يناسبها. وها هو يرقص في المكان الذي سيبتلع جسده في الغد، دون خوف أو رهبة. بل، ليس هو وحده من يرقص، فهناك الوراق والماوردي وسائق عربة دفن الموتى.

عند الرابعة فجراً.. سيطر النعاس على الماوردي والسائق والدفان. فقد أغلق النوم عيونهم بصخور ثقيلة. فيما بقي الوراق متلطمأً بين الأمواج. يغفو قليلاً، ويستفيق. كأنه كان يكابر في مقاومته للنعاس، ربما لإثبات صداقته للرملاوي من باب التطرف على سبيل المثال. خاصة وأن الرملوي في يومه الأخير.

"لا يصح أن ننام في وقت واحد. لا بدّ من حارس لنا في الليل. وها أنت لا تستطيع فعل ذلك الآن يا رملوي. اترك هذه المهمة لي. وتصبح على خير يا صديقي!!"

هكذا سقط الوراق هو الآخر في النوم، بل راح يحلم. بل ويقوم بعمل المونتاج للغة أحلامه أيضاً!

عندما نشرت الشمس شيئاً من أنفاسها على الأفق. كانت الساعة قد بلغت التاسعة صباحاً. حيث استفاق الماوردي ليرى المفاجأة الكارثة: نعش الرملوي مفتوحاً!!

"بحق السماء.. كيف يسمح الموظف المسؤول لنفسه، القيام بدفن جثمان الرملوي أثناء نومي؟" فهرع إلى القبر لإستطلاع الأمر. إلا أنه لم ير شيئاً في داخله. فقد كان هو الآخر فارغاً. فأطلق صرخة عالية سحبت الجميع من مضاجعهم.

- "ما الأمر؟"

- "أين الرملوي يا ناس؟"

فوقف الجميع بذهول يشوبه الرعب. لم يستطع أحد تصديق ما حدث.

"ستفصل من وظيفتك أيها الدفان المتعفن" هكذا شعر الوراق بالمسؤول عن عملية الدفن، وكأنه يقول لنفسه ذلك، حينما أخرج التلفون الخليوي من جيبه وراح يضغط على الأرقام ليحدث المسؤولين عما جرى.

قال الماوردي لهم:

عندما كنت ساقطاً في النوم.. رأيت الرملوي خارجاً عليّ من نعشه وهو يبتسم ابتسامة المنتصرين. رفع لي يده وحياني دون كلمات محددة. وبعد ذلك بدقائق، كأني سمعت صوتاً يقول: لقد حان وقت الطيران يا ماوردي. فقد أصبحت أنا فوق. فيما لا تزال أنت في جحيمك السفلي. أنظر. فقد تقمصت هيئة الطير الذي فوق رأسك الآن!

بعد أن أنهى الماوردي روايته.. رفع الأربعة رؤوسهم، وهم يحلقون في سرب من الطيور كان في الأعلى. إلا أنهم لم يعرفوا، ما إذا كان الرملوي واحداً منهم، أم هو في سرب آخر مضي؟؟!

لم تمض نصف ساعة، حتى كانت سيارة البوليس في الموقع، من أجل معاينة ما حدث. فقامت الشرطة باستجواب الماوردي والوراق والدفان وسائق عربة الدفن.. استمعوا لإفادات الجميع، وهم في

حيرة من الأمر . فسأل الوراق شرطياً، عما إذا كانت بعض الحيوانات المتوحشة تعيش في المنطقة، أم لا . فففى الشرطي ذلك بحزم .

فأخذ الماوردي رأسه بين يديه .. ليمنع عنه الإنفجار :

ها نحن في مأزق جديد . بل في ورطة عجائبية ستجعل منا مهزلة بين الناس . من سيصدق بأننا فقدناك للمرة الثانية، وبهذه الطريقة . أن يطير بيننا ميت من نعشه في لحظات من الغفلة والنعاس؟! بل . لإئنا لو قلنا ذلك، فسيعمل على تكفيرنا البعض من العباد، سيقول عنا هؤلاء: بأننا جعلنا من ميتة هذا المخلوق القادم من جنوب تلك البلاد، حالة ترتقي لتلك التي تم بها صعود السيد المسيح . أو لمثل ما حدث للإمام المهدي المنتظر في غيبته الكبرى .

أجل . سيرجمنا كل هؤلاء بكلمات أشد ثقلاً من الصخر . لكن .. لماذا لا نقول بأن أحداً ما استطاع سرقة وإخفاء الجثة في مكان بعيد؟ أو أن حيواناً مفترساً لطش الرملوي، ليتمتع بلحمه؟

ما أدرى الشرطة بما تخفيه هذه المقبرة المرمية تحت أهداب هذه الغابة الكثيفة المترامية الأطراف؟ هل لدى دوائر البوليس سجلات بأسماء جميع المفترسين والمفترسات التي في هذه البلاد؟

كان يا ما كان.. في قديم العصر والأوان. كان للسلطان بقرة وحيدة في البلاد
تُحلب. وذات يوم جف ضرعها فجأة، ولم تعد تلقي الحليب في السطل. داخ
السلطان من الكارثة لأسبوع. ولم يعد يحتمل الأمر، فقام باستدعاء كبار مستشاريه
إلى القصر، لينظر في المحنة التي هو وبقرته فيها.. خاصة وأن العلماء من
مختصين في شؤون البيطرة والحكمة والمحبة والزراعة والسياسة والمعادن
والسيكولوجيا، قد فشلوا بالتوصل إلى علاج للخروج من تلك الدوامة-المؤامرة
التي تجلب النحس والفأل السيء، حسبما كان السلطان يعتقد، هو وحاشيته
العلمانية.

وجاء الاقتراح: أن يستدعي للقصر شعراء البلد، فيشدوا التعاويذ الشعرية
في حضرة البقرة، عسى أن تخرج الأخيرة من عنق الزجاج، ويتم لها الشفاء مما
يلمّ بها.

في اليوم التالي.. وضعت البقرة على كرسي ضخم كبير في صدر بهو
شامخ. خلفها أعلام ورايات ترفرررررف. فيما وقف حولها الشعراء، وكل
يحمل "مايك" في يده، منشدين التعاويذ والأناشيد والأغاني الحماسية الثاقبة،
بمصاحبة فرق الدبكة والنفخ والنحاس.

دام الحال هكذا على مدار أسبوع من الزمن الإحتفالي، دون أن يعود الحليب
إلى رشده، وتتحسن صحة البقرة. فتسلل الحزن إلى قلب السلطان، وخشي عليه
من مفاجأة قد توقف أو تعطل المضخة التي يعمل قلبه أصلاً بموجبها.

فأمر بنزع البقرة من كرسيها ووضعها داخل ضريح من زجاج. وأبقى
الشعراء في أماكنهم، وهم يكتبون وينشدون ويجترون ما يسقط من خراطيمهم.

وماتت البقرة. فطلب السلطان نساء البلاد، أن يحضرن إلى قصره يومياً،
ويحلبن أئداهن أمامه لوضع الحليب.

حاول الماوردي مسح تلك البقعة الحمراء التي ظهرت على ورق الكتاب
أمامه فجأة، لكنه فشل بذلك. "أي نبع هذا الذي تفجر على الصفحات؟"

نهر الماوردي نفسه بشتيمة راقية. وغادر الكتاب دون أن يأخذ منه نظراته.

وافق الثلاثة على قبول دعوة مورغ للذهاب للريف، وزيارة عائلتها. وهي فرصو لإنقاذ الوراق من الصدمة التي خلفها انتحار الرملاوي في أعماقه بعد مضي أكثر من شهرين، كما رأى ذلك الماوردي ومارينا. فالريف في نهايات الصيف، قد ينعش أو يريح الذهن ويترد من الذاكرة الصداً على حد تعبير مورغ.

"الراحة. إنها فتاة طيبة، لا تعرف شيئاً عن أحزان الشرق المستعصية. فقد لا يعتقد البعض هنا، بأن الشرقي يصاب بالحزن أو الرعب عن طريق العدوى. كالإصابة بالأنفلونزا في بدايات الشتاء تماماً. وبأننا ندفن آلامنا بعيداً، كما تفعل السلاحف بببوضها. كأنها لعنة وسقطت على رؤوسنا إلى الأبد."

كان الماوردي يشير بذلك إلى كلمات صديقه التي يقف وإياها على رصيف البوابة الخلفية لمحطة القطار الرئيسية في كوبنهاغن، بانتظار الوراق وصديقه من أجل الرحلة الاستجمامية.

"وكذلك تستطيع أن توفر لأصدقائك فرص الراحة والاستجمام وأنت في قبرك يا رملاوي!" كأن الماوردي كان يلوم نفسه على قبول الدعوة لزيارة الريف ونسيان ما حدث. فالأحزان العميقة، لا يتم قشطها بمثل ما تفكر فيه فتاة دانماركية مثل مورغ.

وفيما هما ينتظران قدوم الوراق وصديقه، مرّ الهبش بسيارته المرسيديس الجديدة ومعه بعض مرافقيه. فهزّ الماوردي رأسه. ربما من سخرية القدر الذي جعل العاصمة تختنق بمثل هذه النفايات المتحركة في كل مكان.

"وما أدراك. فربما يعجبهم هذا الطراز من المخلوقات؟!"

وبطريقة هي خليط من القسوة والفجاجة، أمسك الماوردي مورغ من يدها وصرخ بامتعاض:

"أتعجبكم رائحة هذه المزبلة الأنيقة التي تتركب المرسيديس البيضاء تلك؟"

لم تعرف مورغ هدف الماوردي بالضبط، إلا أنها أدركت من أن شيئاً ما قد شقّ شبكية عينيه. وعندما عرفت شيئاً من قصص الهبش، سرعان ما سألته مبتسمة:

"هل أنت غاضب حقاً من هذا الرجل؟ إذا ما فعلت ذلك، سأنتهمك بالعنصرية!"

ثم ارتفعت ضحكاتها عالياً، ويبدو أن الرسالة الذكية قد وصلت إلى ص.ب ذهن الماوردي بسرعة. فبادرها بالإعتذار عن غلاظته وقلة تهذيبه.

جلس الأربعة قبالة بعضهم في القطار. وبدأ الوراق واهن الجسم حزيناً. إنه لم يتخلص من آثار الصدمة التي رماه في قعرها الرملاوي. هكذا كان الماوردي يشعر. بل إنه متيقن من الحالة المأساوية التي فتح أبوابها علينا الرملاوي، ورحل. كأن هذا ما كان ينقصنا!

اسمع يا وراق. قال الماوردي وهو يطلب من الجميع الإصغاء إليه:

ذات يوم.. هبت عاصفة قوية. وفيما كان رجل ما يقطع الغاية باتجاه منزله، سرعان ما شعر بشيء يقع على المظلة التي كان يقي بها رأسه من المطر. إلا أنه اكتشف بأن ما سقط على المظلة ليس

سوى عش لغراب. ففذف به إلى الأرض وبشيء من النرفزة، سحق تلك البيوض التي كانت فيه. ثم انطلق ماضياً.

آنذاك.. رأى الغراب-ويبدو أنه صاحب العش- ما فعله الرجل. فقام بملاحظته، حتى استدل على منزله. وبمرور الوقت يكتشف الرجل أن أدرك الغربان بدأت بالتكاثر والانتشار في حديقة البيت وأمام باب المنزل. الأمر الذي اضطره للقيام بأعباء إضافية من العمل، تهدف للتخلص من كميات السلاح الذي تخلفه الغربان في مختلف الأمكنة، وعلى حبال الغسيل التي امتنع عن تعليق الملابس عليها كذلك.

وعندما تأكدت الغربان بأن ما تفعله بالمنزل لا يعتبر بمثابة انتقام جدي منه، قررت ملاحظته أيا ن ذهب، وإغراق رأسه بالذرق. ففعلت ذلك بكل ما لديها من نشاط وسلاح. وهكذا بدأت المعركة: كلما خرج الرجل من منزله، سرعان ما هاجمته الغربان بإلقاء الذرق على رأسه. وحينما يقوم باستخدام المظلة، سرعان ما يتراكم السلاح على سطحها، فتتحطم من الثقل، وهي تسيل بالذرق التي تبعث تلك الروائح المفززة من كل جوانبها. بحيث أصبح الرجل مثار تندر واستغراب الناس وتعليقاتهم الساخرة، بل والخبر الأول في حكايات الصحافة الذي يسبق الأخبار السياسية في نشرات الراديو والتلفزيون. حتى أن مخرجاً سينمائياً حاول إقناع الرجل المطاردي، بفكرة إنتاج فيلم على غرار فيلم "الطيور" الذي صنعه المخرج هيتشكوك.

إلا أنه رفض العرض، وقرر الانتقال إلى مدينة أخرى. فركب القطار ذات فجر لتنفيذ الفكرة للخروج مما حل به. ولكنه، سرعان ما شاهد من نافذة القطار، أسراب الغربان المحلقة وهي تطير ناعقة فوق المقطورة التي يستقلها. وما أن وضع أقدامه في محطة المدينة الجديدة، حتى هاجمته الغربان، وهي تلقي بالذرق فوق رأسه من كل صوب، وكأنه تلك الدريئة التي يتدرب الجنود عليها بالذخيرة الحية.

"أية راحة لجسدك يا ابن الـ... لتطبع في حواس الغربان، وبأكثر مما تفعله تلك الروائح في أنوف كلاب البوليس؟!"

لم تنته الأزمة بشرف ولا دونه.. فأقبل الرجل عائداً إلى منزله الأول، مقررًا تقديم طلب إلى البنك بهدف الحصول على قرض لشراء سيارة.

"يمكن أن يكون ذلك حلاً من اللعنة التي تلاحقك. بعدها، لتذهب الغربان وبيوضها إلى الجحيم!".

ركب الرجل السيارة الجديدة متوجهاً إلى عمله في اليوم الأول من تحقيق حلم نيل هذه الآلة الواقية. إلا أنه رأى أسراباً من الغربان تحلق فوق السيارة، ومن ثم لتبدأ بمهماتهما. وأين؟ على البللور الأمامي. فحاول المناورة بالتسلل إلى الطرق الفرعية، إلا أن الملاحظات لم تكف. فضغط على دواسة البنزين باتجاه الطريق الزراعي، إلا أن ماسحتي الزجاج الأمامية سرعان ما تتوقفان بفعل سماكة وكثافة الذرق التي أمطرت السيارة. فحاول إخراج يده من النافذة الجانبية ليقوم بمسح السلاح مستعيناً بقطعة من القماش، غير أن السيارة سرعان ما تتحرف عن الطريق، وتسنقر في هاوية، شعر بها، وكأنها معدة له منذ أن تقدم بطلب القرض للبنك!"

تطلع الثلاثة إلى الماوردي، وكان الطيور على رؤوسهم من الدهول الذي بثته القصة التي اخترعها لتسليتهم. إلا أنه قطع صمتهم الحزين ذلك، وتطلع إلى وجه الوراق الذي نبت الحزن عليه، قائلاً

"أوليس هذا ما تفعله بك غربان الرملوي يا عزيزي؟" موجهاً الكلام للوراق.

فأطرق الوراق رأسه مستسلماً لصحة ما أورده صديقه الخبيث الماوردي، مع ابتسامة تكاد أن تكشف عن خيوطها بشق الأنف. فيما الحمامتان الدانماركيتان "مارينا ومورغ" تدققان في ملامح هذين الرجلين الشرفيين، وكأنهما تسبران أغوار كئيبين من الرمال المتحركة.

نظر الماوردي إليهما وغرق في تلك السحابة المعتمة:

"كيف أوقعت الحمامتان بنفسيهما داخل الشركين المعقدين. كلا. أي شركين؟ قل كنتين من الصخور الغرانيتية التي تتطلب من الجيولوجيين الكثير من الوقت، لتحديد مكوناتها. نعم. أوليس حزن الشرق مثل تلك الصخور التي تراكمت من القهر والتعذيب والنفي والسجن والدم والحروب على امتداد أكثر من خمسة آلاف عام؟ خمسة آلاف عام نعتبرها حضارة وتفرداً!!!"

كان القطار أشبه بسهم نار يذفه عملاق من عمالقة روما القديمة، ليشق حقولاً أجمل من تلك التي رسمها الفنان فان كوخ في لوحاته.

"فان كوخ والرملوي! ما القاسم المشترك بينهما؟ لا تفكر. فكل له مرارته الخاصة. وكل منهما ترك ظلالاً من الكآبة على القلب. الكآبة التي تتحول إلى أفاع من الأسئلة تلبط في الأعماق. أو إذا ما ضاقت بها مساحة الروح، سرعان ما تخرج من البلعوم مخلفة وراءها الجثة. والأسئلة!!".

ثمة رغبات كانت تطلق فوق رؤوس الأربعة أشبه بتلك الصحون الطائرة التي يتحدث عنها البعض، ولم ير أثرها الملايين من البشر. فقد كانت حركة القطار، ربما هي التي تسبب مثل ذلك الشعور.

فجأة. بمسك الوراق صديقه من يدها، وكأنه يلتقط حبلاً ما للنجاة. ممن؟ هو الآخر لا يعرف. فقد فعل ذلك دون شعور منه، وهذا ما دفع مارينا بأن تأخذ رأسه بين ذراعيها وتشده إلى صدرها

"تريد له أن يتنسم رائحة صدرها، بدلاً من الدخان الذي بات يتشكل في المقطورة على شكل دوائر وطبقات. ربما تعرف هذه المرأة كيف تعيد الرجال إلى مراحلهم الأولى. فرائحة صدور النساء كرائحة الدموع، كقيلة بإعادة الأعصاب البشرية وسواها إلى الدارة الطبيعية. فتلك الرائحة تغسل البشر من متاعبهم."

"اللجنة على فلسفتك يا ماوردي. كف عن التحديق عبر النافذة. انتبه إلى البنت التي ابتليت بك وبأفكارك وجنونك. فأنت لست بالذاهب إلى المدرسة لتقديم الامتحان. لا تتطلع إلى تلك الطيور البعيدة. فلن تكون واحداً منها مهما تقمصت الدور. لا تمنى نفسك بأن تعود مثلها إلى الوطن الأصلي بعد الهجرة. فالمهاجر الجديد، لا عودة له للمسلخ مرة أخرى. مثله مثل الخروف الذي تسنح له فرصة للهروب من سكين الذبح. يا أيوب!"

وحتى لو سمح الزمن وحدث لك شيء من ذلك القبيل، فتسقط وأنت تسعل دمك عند مفترق أول الحدود. فينادق الصيد تترصد كل شيء هناك. كلا. أية بنادق صيد! لقد تطورنا يا عم. فصار صيد العصافير والسمان في عالمنا الثالث. بواسطة الكلاشنكوف والـB7. وربما الأسلحة الثقيلة حتى!!"

عندما هدأت سرعة القطار. وزمجرت عجلاته، وهي تعض حديد السكة. نزل الأربعة كي يستقلوا سيارة كانت بانتظارهم في المحطة. إنه والد مورغ الذي رحب بالجميع، وراح ينهب الطريق الريفي على الرغم من نظاراته السمكية التي تحجب اللون الحقيقي لعينيه.

"هل معرفة لون عينيه مهم إلى ذلك الحد؟ أجل. ولكن قد يكون لونهما مثل لون عيون مورغ.
بالتأكيد."

فتطلع الماوردي إلى عينيه متفحصاً. فسألته إن كان يشغل رأسه بشيء. فأجابت نفسها:

"بالتأكيد. حتى لو لم يكن من شيء، فلا بد من إيجاد أسرع الطرق!"

"يا للرب. سنتعلم الكثير!"

قالتها مورغ وهي تهتم بمغادرة السيارة التي توقفت عند باب البيت الريفي الذي تحيط به أشجار التفاح واليوكالبتوس والكرز والجوز. حيث تلقفتها أمها معانقة، بعدها لترحب بالضيوف وهي تقودهم للدخل.

لم تكف السيدة غريس والدة مورغ، ولليوم الثالث عن الحديث حول مميزات العيش في الريف. وكيف أنها تجيد صناعة الخمر الأحمر والتطريز على القماش. وكان الماوردي والوراق يهزان براسيهما، كما تفعل الكلاب بذيولها، للتوكيد والمواقفة على صحة ما تقوله السيدة الأنيقة. "يا للجنة.."

قال الماوردي ذلك، عندما كررت والدة مورغ على مسامع ضيفيها موضوع صناعة النبيذ الذي تعده بنفسها. سألها الوراق برغبة كاذبة إن كان بالإمكان إحتساء كأس عاجل منه للتعلم في تذوق طعمه من جديد. كافضل طريقة لمنع السيدة من الاسترسال. فردت بتهذيب وخفر:

"الآن. لا يمكن أن نقدم لكم شيئاً، لثلا نفسد عليكم السهرة. بعد قليل، سيكون كل شيء جاهزاً". ومضت تبحث عن ابنتها كي تساعدنا بنقل الطعام إلى طاولة السفرة.

"هذا الصفاء، هو جزء من الصحة في الريف." قالت مارينا وهي تنتظر في وجه الوراق.

"بالتأكيد. وهو ما يبعث على الراحة والأمان على الرغم من أحداث ومزاجية الطقس" أجابها.

"ما رأيك يا ماوردي؟" فتحرك الأخير في مقعده وهو يتابع مورغ بنظراته قائلاً:

"أعتقد بأن الطقس في الريف الدانماركي، يغذي سكانه بغير ما يتغذى عليه الآخرون في المدن. فقد تتدخل الأمطار هنا، لتغسل كل شيء: الأرض. النفس. الروح. القلب. الدماغ. أي أنها تجري أشبه بعملية تطهير شامل على حد سواء. فالمناخ في كل بلد، يؤسس نظامه الخاص، اجتماعياً واقتصادياً ونفسياً. ومتى ما تززع ذلك النظام في بعض حلقاته، صار انتحاراً وعزلة ومرصاً."

هكذا يبدأ الحديث في بداية كل ليلة، ليصل بعدها إلى ذرى لا يعرف مداها الجميع. "الزراعة.. هذا ما بات يحدث عندنا بالضبط." علقته مورغ، وكأن في نفسها الشيء الكثير من الأسى، تعقياً على ما قاله الماوردي.

"أهلاً بشموعنا الإضافية."

رفع الأب أريك كأسه ليشرب نخبهم. فيما بدا الإرتياح واضحاً على الجميع، وهم يتحلقون حول طاولة المائدة

"كيف طعم النبيذ يا وراق؟" سألته مورغ.. مضيئةً

"حتماً ستقول إنه جيد وفاخر. هذا إذا كانت لديك خبرة طيبة بتذوق أنواع النبيذ!"

تطلع الوراق إليها بحنو زائد مجيباً:

"إنه رائع. ثم يكفي أنه بالمجان!"

قالها، وهو يحاول صنع شيء من الدعابة. ولكن.. سرعان ما جاء الرد قاسياً من السيدة:

"كلا. الأشياء المجانية عادة ما تكون رديئة أو فاسدة أو سيئة. ونبيذ ليس من تلك الأشياء التي تقدم بالمجان."

أحس الوراق وكأنه تلقى لكمة. "هل ندفع الثمن بعد ذلك؟"

فحاول الرد والاعتذار وتفسير ما قاله، إلا أنه خشي الوقوع في مطب قد يعكر صفو البروتوكول في هذا البيت.

أحست مورغ بالحرج الذي بدا واضحاً على الدكتور الوراق، فحاولت أن تتولى التوضيح.

"قصد أُمي.. أن سعادة ابنتها له ثمن. وهذا ما يدفعه الماوردي."

تمسح بيدها على شعره وكأنها تفعل ذلك مع قط.

"أليس كذلك يا عزيزي؟" تسأل الماوردي وهي تضحك.

رد الماوردي وهو يرفع كأسه عالياً:

"ولكن نبيذك ليس بأفضل من طعم ابنتك يا سيدة غريس."

تضحك السيدة سعيدة من هذا المديح الرائع وتعلق:

"ولكن مورغ مُخمرة أكثر من النبيذ بمائة عام."

في تلك الأثناء، كان أريك يتفحص الماوردي من خلف نظارته السمكية. يقرأ تفاصيله وحركاته بجميع حذافيرها، وكأنه جنرال يتفحص بندقية لجندي يخوض حرباً.

"ولم لا.. ألسنت أنت الماوردي الذي غزوت محتلاً ابنته التي تعسكر في عقلها وجسدها؟ أريك معه حق."

فجأة ودون سابق إنذار، انفجر الماوردي بالضحك.

مما أثار شقاً في السكون الكلاسيكي للمنزل، ومُحدثاً دهشة وذهولاً لدى الجميع، وهو ما دفعهم لترك ما بيدهم من شوكات وسكاكين وكاسات، فراحت عيونهم تتغرز كالأوتاد بعينيه. فهو لاء يطلبون تفسيراً لهذا الذي فعله الماوردي. لم يقل أحدهم لماذا ضحكت. بل كان كل واحد منهم بانتظار تفسير لتلك الضحكة المدوية.

فقال لهم: "أترغبون حقاً.. لماذا أخذني الضحك على حين غرة؟"

لم يجبه أحد. فقال مستطرداً:

"لقد أخذتني فكرة فانتازية وقحة طارئة. وهي مشكلة في غاية الحرج والتعقيد: ماذا لو صار العضو الذكري بطول صولجان العم أريك. أين سيكون موضعه؟!"

أخذ الجميع ينظرون بوجوه بعضهم البعض من جرأة الماوردي ووقاحتته. لكن الوقت لم يدم طويلاً، إذ سرعان ما انفجرت والدة مورغ بالضحك، لتعقبها العاصفة من جميع الأفواه، عدا أريك الذي راح يبذل في صولجانه بامعان، وكأنه يتربص ما إذا كان ذلك سيحدث حقاً، أم لا. بعدها تطلع صوب الماوردي وقال:

"لم يتزلزل هذا البيت بكلمات وقحة منذ بنائه. نحن محافظون على تلك الأسس، ولن نتقبل الطاريء!"

كانت فكرة الماوردي تقوم على ضرورة كسر الجمود الذي كان يغلف السهرة. فمنذ ثلاثة أيام، كان الجميع كما لو أنهم في مأتم. وعقدة الماوردي، تكمن في عدم الرضوخ لعالم الأتكنيت. الذي يعتبره أمراً غير ملزم هنا. ثم إنه يحبس الهواء في الرئتين، فيمكن للمرء أن يموت حتى دون أن يودع العالم

بعطسة صغيرة. والمحافضة على التقاليد أيضاً، لا تقوم على حرمان الآخرين من الرغبات الصغيرة. وهذا ما كانت السيدة أم مورغ بحاجة إليه تماماً، كما أدرك الماوردي بالضبط.

وعلاوة على هذا وذاك، فقد كانت هندسة الرحلة إلى الريف، تقوم على أساس التقليل من حركة الرمال في الأعماق. فإذا لم يكن بالوسع التخلص من بعضها، فلا داع للرحلة أصلاً. كما ليس بالضرورة أن نحكم على كل عصفور يمد رقبتة إلى خارج القفص، بجناية الهروب من واجب تسليية القناصة، ممن تسعدهم رؤية السجون الصغيرة. أو لنقل الذين يتدربون على تشييدها ورؤية العصفير البشرية داخلها في المستقبل.

واضاف الأب أريك "الوقاحة.. قد تجلب الشر لنا!"

فأجابه الماوردي: "وهل ينطبق ذلك على الخيال والتخيل؟"

فعلق أريك وهو يحاول التخلص من الشرك:

"نحن نتحدث عن اللغة يا أستاذ ماوردي."

"ولكن اللغة-أية لغة- سرعان ما تموت دون خيال. فالمخيلة إبداع." رد الماوردي وهو يبتسم.

فرد أريك عليه: "لا ضرورة للشرح والتفصيل فالمطلوب منا أن لا نفقد توازننا الأخلاقي."

فقال الماوردي: "إذا كانت النكتة وقاحة وخرقاً للقانون الاجتماعي، فما بالك بالشذوذ الجنسي والأيدز وبجرائم الأباء الذين يضاجعون بناتهم. والأبناء الذين يمارسون الجنس مع أمهاتهم؟ هل النكتة أخطر من هذا الطوفان الذي يكاد أن يغرق البلد؟"

هنا، أخذ أريك رأسه بين يديه كمثل شخص أحس بدوي في دماغه. ولكنه أخفض يديه وقال:

"أنامعك. وهذا مايؤذيني جداً. نحن لسنا في المدينة الفاضلة. كل ماتاولته في حديثك ليس سراً. فالتلغزيون يعرض ذلك. والصحافة والراديو والندوات والمؤتمرات تتناقش ما يحدث. وربما نعجز عن إيقاف هذه التجاوزات الأخلاقية في فترة زمنية قليلة. ولكن ماذا سنفعل أمام مثل هذه المعاصي. فذلك هو السؤال."

يقاطعه الماوردي: "الجرائم. لا المعاصي كما أجزم."

يدخل الوراق على الخط قائلاً:

"إعادة الإعتبار إلى سلطة العائلة. ولأفصد السلطة الديكتاتورية بالطبع. فالحرية التي نلد الوباء، لالزوم لها."

"وهل تعتقد بقدرتنا على إعادة البلد إلى النقاء القديم؟" أريك يسأل الوراق.

فيجيبه الأخير بعينين مفتوحتين:

"لاتبحثوا عن النقاء اللاهوتي في بداية البحث عن الحل، بل العمل على سد ثغوب السفينة قبل أن تصل القاع بما تحمل!"

كانت مورغ بين الفينة والأخرى تتطلع بمارينا، كأنها تقول لها: "انظري إلى الاثنين وهما في حماستهما المجانية!!"

أجزم. إنها كانت تقول لها ذلك. أو قد تكون تفكر بأن ليس من المهم فتح بوابات الجحيم على مصراعها. فيما كانت مارينا ترد عليها: "صحيح.. ثم ما سبب إهتمام الماوردي والوراق بما يحدث

هنا؟ أليس هو بلدنا ونحن أحرار بتقرير مصيره، وبالطريقة التي نراها مناسبة، سواء بالأيدز أو بجهنم!! أم خوفهما من أن نهلك؟"

هكذا.. كان الماوردي يقرأ البخار الذي يتطاير من من عيون الفتاتين. كمثل ذلك البخار الصاعد من قطعة قماش تحت مكواة ملتهبة. ولكن لا بد من إيقاف الحماس الشرقي الدائم. فنحن، ولأفقه الأسباب نؤلف نظرية. ونضع لها الهوامش في الحاشية. أية حاشية تكون أمامنا، حاشية التخت. حاشية الحذاء. حاشية الرصيف. حاشية الهواء!

فعندما يغرق الرأس بالأسئلة، نشعر بأن طوفاناً ماء، قد بدأ الزحف بين أقدامنا. فنحن نشم ذلك قبل الجميع، تماماً مثلما تطلق بعض الحيوانات أصواتها، معلنة عن مواعيد حدوث الزلزال.

تناول الماوردي كأسه ونهض متوجهاً نحو كرسي الأب "أريك". فقبله من رأسه وكأنه يعتذر عن شيء ما قد حدث. الضحكة الأولى مثلاً. قصة الصولجان. أو الحديث عن الأخلاق والطوفان القادم. أجل، ربما عن كل الأشياء مجتمعة.

كان يفكر بعدم جرّ حمار النكد وإدخاله للسهرة. وهو ما دفع أريك للابتسام له، والقيام بطبع قبلة على خده. فسأله الماوردي إن كان لديه مانع يحول دون الإستماع إلى شيء من الموسيقى. فرد أريك بالنفي. الأمر الذي دفع السيدة والدة مورغ بإحضار بعض أشرطة التسجيل. فأنتى الماوردي على مبادرتها وطلب منها إختيار ما ترغب أن يكون مناسباً للسهرة.

فكرت قليلاً، ثم دست أحد الأشرطة في فم الجهاز، لتتبعث منه تلك الموسيقى الراقصة.

تجاوزت الساعة الثانية فجراً.. وقد أصر الماوردي أن يختم السهرة برقصة مع الأب أريك الذي بدا عليه بعض التعب من الشرب والسهر ربما. فهذا هو اليوم الأول الذي يخالف فيه قواعد النوم والشراب والحركة والحديث منذ أكثر من ثلاثين عاماً، قضاها بالتزاماته الصارمة التي يطلق عليها بـ"سجن الحكمة".

عندما استفاق الأب "أريك" ظهر اليوم التالي، وجد نفسه مرمياً على الصوفا في صالة الاستقبال! بعد السهر الطويل. والخمر الكثير. والرقص، ها أنت يا أريك، تستطيع أن تضيف لقائمة المحظورات مخالفتين جديدتين: النوم خارج السرير. وعدم النهوض مبكراً.

"اللعنة على الماوردي! من أين سقط هذا الرجل علينا، ليهشم أسس بيتك الذي شيدته طيلة أكثر من ربع قرن. بل ويجعلك مذاباً في الفوضى كفص الملح في ثلاث ليالي! لقد فقدت الهيبة أيضاً، فأصبحت تنام كـ"البيتلز" على الأرصعة. أجل. أليست الصوفا رصيف المتشردين في عالم التسكع كما كنت تقول ذلك في السابق؟"

كان أريك قد ردد هذه الكلمات، وهو يحاول الهرب إلى غرفة النوم من هذه الفضيحة، كي لا يراه أحد فيلحق به "العار"! وعندما فعل ذلك وأصبح داخل غرفة النوم، لم يجد زوجته هناك. فأزاح ستارة الشباك المطل على الحديقة بحثاً عنها، إلا أنه رأى امرأة أخرى. كانت ترتدي فستاناً من الموسلين الأحمر، مناسباً ومكياج وجهها، أجل. إنها غريس. جالسة على كرسي، فيما استعملت الآخر لتضع ساقها العاريين عليه.

"من. أليست غريس بحق السماء!!!"

أطلق تلك الكلمات وهو يهرول نحوها ككرة من النار عبر المدخل الخلفي للبيت. وعندما وقف أمامها متأملاً. قال بخفوت وكأنه يتقتت:

"أنت!" وسحبها نحو صدره فمدت له فمها للتقبيل.

يا للواقحة! هنا في الحديقة. وفي وضح النهار؟"

لقد إمتنع أريك عن فعل ذلك، فراح يتلفت برأسه. إلا أن غريس، سرعان ما سحبته إلى حضنها وأجلسته على فخذيها قائلة:

"لا أحد. لقد ذهب الجميع نحو الحقول."

فأحس أريك بنار تلتهم أطرافه.

"خمسون سنة من العمر أيتها النار. كنت أحسب أنك خدمت". وتلمست غريس الرغبة ببديها. فحاول أريك النهوض وسحبها باتجاه المدخل الخلفي. لكن غريس رفضت مصاحبته إلى غرفة النوم قائلة:

"هنا يا أريك!"

"لا بد أن الجنون هرس عقلها!" فتردد كثيراً من هذه المبالغة الجنوبية. وقال بصوت مليء بالرجاء:

"الطقس قد يضر بصحتي في العراء يا غريس؟".

فنهرته أن يكف عن التوسل إليها قائلة بشيء من الإحتجاج:

"قراءة الربع قرن ونحن نفعل ذلك في السرير اللعين. حتى باتت ضلوعنا شبيهة بأخشابه. وصار الجنس لدينا كمن يفعل في كومة من الطين."

"يا للرب.. من أين لها هذه الشجاعة. بل البلاغة؟"

ولم تتزحزح غريس قيد أنملة. "هنا. يعني هنا يا أريك. وفي الهواء الطلق بالضبط!"

تطلع أريك إلى ما حوله بحيرة وإرتباك... وكأنه كان يفتش عن مفتاح الضوء، ليقطع الكهرباء عن الكون، فيسقط النهار كالجثة المتفحمة. ولكن لا مناص. لأن الفيضان يكاد أن يخنق أنفاسه. فكان الاستسلام لغريس تحت الأشجار العالية.

"كلا. هذا ليس استسلاماً يا أريك. فأنت لم ترفع راية بيضاء، كما يفعل ذلك المقاتلون أثناء هزائم الجيوش في أوقات الحروب والمعارك. ولكن! ولكن ماذا يا أريك؟! أن يعتبروا: "كلسونك" الملقى على البلاط، تعويضاً أو بديلاً يعني عن راية الاستسلام في مثل هذه المعركة المفاجئة السريعة!!"

كان أول سؤال وجهه أريك للعائدين من حقول الصيد، إن كانوا قد ظفروا بغنيمة تستحق الحديث أم لا؟

فأجابته مورغ على الفور: "أربعة طيور لعشاء فاخر."

إلا أن الماوردي لم يترك أريك ليتقبل الإجابة بهدوء وحسب، بل قال له:

"وأنت أيها الأب الراحل، ماذا غنمت أثناء غيابنا؟ أرنب أم غزال؟"

فضحك أريك للتقليل من خيب الماوردي سائلاً:

"أنتم من كان في حقول الصيد.. أم أنا؟!"

فرد الماوردي عليه بسرعة وكأنه يستعجل أمراً:

"صحيح نحن من كان يطلق النيران هناك.. ولكن الدخان كان يخرج من هنا!" وأشار إلى البيت.

لم تكذ مورغ تسمع ذلك. حتى انفجرت ضاحكة وهي تترصد ثياب والدتها والمكياج الذي على وجهها. فيما راحت مارينا ومعها الوراق بكركران، وهما ينتظران ما سوف يرد به الأب أريك على تصريحات الماوردي الخبيثة.

إلا أن نهوض السيدة غريس من مكانها، كان بمثابة إعلان خجول لتقادي ما سوف تسفر عنه المناظرة بين الماوردي وزوجها. فقالت مبررة انسحابها:

"ساقوم بهلس ريش الطيور"

"كلا يا مدام. أنت فعلت ذلك مع البعل. أما نحن، فكل سيهلس ريش طيره بيده!"

يا للهول.. لقد فجرها الماوردي، وخرج إلى فناء الحديقة بكل ما يملك من برودة أعصاب، مخلفاً وراءه عاصفة تهز البيت بالضحك، حتى أن أريك نفسه، أحس وكأن أمر مضاجعته لزوجته غريس في الهواء الطلق، قد وصلت إلى أنف الماوردي. فنهض نحو المطبخ مسرعاً لتناول كأس من الماء، تخلصاً من الغصة التي إبتابته من جراء الضحك المفاجيء.

بينما السيدة غريس التي بدت أقل من عمرها بعشرين سنة، فقد لحقت بزوجها متبخنرة كالصبايا اللاتي كنا نطاردنهن في الشرق أيام زمان، حتى تختفي آثارهن من طريق المدرسة إلى ما وراء سنائر الشناشيل الخشبية، التي كثيراً ما كنا نسهر أمامها، متذرعين بالمطالعة تحت أعمدة النور المنتصب في الشوارع.

"يا لروعة الدانماركي عندما تتفتح الروح فيه. يصبح مثل نبع يفيض على الطريق."

قالها الماوردي في نفسه، وهو يشعر بتلك العفوية التي تملأ أريك وزوجته. وبذلك الطيبة التي تفوح منهما دون تصنع أو نفاق. ويبدو أن الدانماركي، كلما تقدم بالعمر، كلما ازداد تألقاً وصدقاً وصفاءً مع نفسه والآخرين. لا مكان للأحقاد في قلوب هؤلاء. ربما لأن الدانماركيون آخر أنبياء أوروبا حتى الآن. ومن الصعب أن تجد كرسيًا للتأمر في رأس أحدهم. على الأقل هؤلاء الذين أمامك. لأن دماغ الإنسان هنا، ليس بالزائدة الدودية التي لدى الآخرين.

أما الخوف الذي لدى بعضهم، فليس إلا من إنتاج أفعال الآخرين فقط. فـ"الآخرون هم الجحيم" كما قال سارتر ذات يوم.

والآخر ليس عيناً على الدوام، بل يمكن النظر إليه كمصدر من مصادر الإلهام والمتعة والتواصل مع ثقافات وحضارات الشعوب. فالتمتع بنظرية إحكام السيطرة على الأفعال، ليست حلاً. وكل من يغلق الباب ويعتصم في الداخل، يتحول إلى جثة لا تحتمل رائحتها جدران البيت ذاته. خاصة وأن عالم اليوم، غير متحمس للقلل إطلاقاً. وكل من يأخذه هاجس العزلة، سيجد نفسه خارج التاريخ. وعندما يموت التاريخ أو يستشهد في معركة الفراغ، فإن أحداً لا يمشي في جنازته.

"هل انتهيت من سينماتيات الفلاش باك يا ماوردي؟"

"كيف الطقس في الداخل يا مورغ؟" سألتها بمكر وهو يحاول معرفة ما حدث.

فأجابته وهي تمط شفيتها مع شيء من الإستغراب:

"أبدأ. لم يحدث شيء. غير أن أبي قَبِلَ أُمِّي من شفيتها أماناً! وهي المرة الأولى التي تحدث بمثل هذا الشكل العلني."

"أتعرفين يا مورغ؟ نحن نزج بنسائنا في المطابخ، ونمارس كل المعاصي خارج البيت! ترى لم نفعل كل ذلك؟ هل من تفسير لحالتنا هذه؟"

"ومن تظنني. فرويد؟" أجابته وهي تمسك بيديه لنلا يعود مجدداً للطيران. ثم أضافت:

"إذا كنت تعتقد بأن الأخلاق الازدواجية مرضاً، فهو التفسير."

فنظر الماوردي إلى بعض الخدوش التي على ركبتيها متسائلاً عما حدث لها. فضحكت بشيء من الخفر وهي تجر له أذنه، ربما لتذكّره بما صنعاه في الحقل عند الظهر. فكز على أسنانه كالمتوحش، وراح يطاردها بين أشجار الحديقة.

"ما الذي تفعله بنفسك يا ماوردي؟" قالت له مورغ، فيما كان هو يضغط على جسدها المستند إلى جذع شجرة التفاح.

"من أجل الطفولة التي غادرتنا مبكراً." صاح

"ولكن الذي تفعله مع مورغ، لا علاقة له بملاعب الصغار!" ردت.

"نحن نتوتر يا مورخ، بمجرد ملامسة افتقاداتنا. الطفولة. المرأة. الحرية. الحكيم. الحلم. النوم. ألسنا من يؤر التوتر في العالم كما يقال عنا؟" ضحك الاثنان وهما ينظران للجميع، وقد تحلقوا حول المائدة التي أعدت في فناء حديقة المنزل هذه المرة.

حيث جلست السيدة غريس في القميص الخمري والتتورة النبيذية" يبدو أنها لا تخمّر النبيذ وحسب، بل ربما ثيابها أيضاً؟" لتتهف بالضيوف: "تخبكم"

فرفعنا الكؤوس كما ترفع السيوف إلى الأعلى.

"أليست الكؤوس سيوف الليل يا ماوردي؟"

سأل نفسه وهو يتطلع إلى الوراق الذي بدا على وجهه الإسراق هذا المساء. على الرغم من صعوبة وصفه. فالرجال ليسوا أكثر من جذوع لا تصلح لصناعة الموبيليا، بقدر ما هي مناسبة للمواقف في الليالي التي يغلق الثلج فيها القصبات الهوائية. وسوف لا يذكرهم التاريخ بعيداً عن هذا الوصف. فهم للإشغال فقط. سواء كان ذلك في المواقف، أو التخوت، أو المعارك. أو النصوص الشعرية أو تلك التي تنتمي لعالم الفلسفة المرّة.

أما صديقه مارينا، فكانت على يساره أشبه بالفاز المليء بالزهور: الشعر الأحمر. الحاجبان الذهبيان. الخدود الحمراء، وكأن مارينا خارجة للتو من الرحم. والفم الذي زهق البنفسج روحه على شفثيه. والعنق المرمر الذي يعيد الذاكرة-ليست كل ذاكرة طبعاً- إلى عصر مايكل انجلو. أما بقية مارينا، فهي خطوط حمراء... لا يمكن الحكمي عنها.

كان على أريك-أتكيتياً- أن يرفع كأسه ليشرّب نخب الضيوف، كما جرت العادة. إلا أنه لم يفعل ذلك. هذا ما لاحظته الماوردي، حينما بدأت زوجته غريس هي التي تقوم بمثل هذه المهمة بدلاً عنه.

"هل دبّ الزعل في رأس الرجل الطيب مني، ونحن في الليلة الأخيرة من الرحلة؟"

سأل الماوردي نفسه، وهو يتأكل حيرة. إلا أنه سرعان ما أفع هذا الذي يتسول الإجابة في داخله، بضرورة عدم الإلحاح عليه كثيراً، خاصة وأنها السهرة الأخيرة.

وفيما الماوردي يطيب مشاعر نفسه بنفسه. تحرك الوراق واقفاً، ليشرّب نخب الجميع، ثم ليعلن عن قرار مفاجيء بزواجه من مارينا.

"يا للهول. أحقاً ما تقوله يا وراق؟" ويلتفت الماوردي إلى مارينا لمعرفة رد فعلها.

"أجل. لقد قررنا ذلك. وهذا أول ما سنفعله بعد عودتنا من العاصمة. غداً."

ردت مارينا بتلك الكلمات، وهي ترفع كأسها. واقفة إلى جانب الوراق لتقبيله.

"ها أنتما تصنعان المفاجئات الوقحة، الواحد تلو الآخر. الرملاوي ينتحر دون أن يشاركننا بصنع القرار، والوراق ينتحر هو الآخر أمامك، وإن بطريقة مختلفة، دون أن يقول لك ذلك من قبل! أوليس الزواج هو إنتحار كما تعلمت ذلك من الكتب التي أفرزها الأدباء والفلاسفة، ومن الموروث الشعبي الذي تناقلته العامة يا ماوردي؟".

"ليبارك لكما الرب على ما ستفعلان."

تهف الماوردي والبهجة تلقي على كرسي عينيّه دمعات شفافة، كالندى الذي يتشكل على أسطحه الورد في الصباحات الباكرة.

بدأ أريك وغريس يتهامسان، بعد مباركتهما لمارينا والوراق على هذا الإعلان المفاجيء الجميل.

"حتماً. فهو أمر جميل بالنسبة لمارينا والوراق. ولكن ماذا عن ابنتنا مورغ؟ أتبقى متعلقة بهذا المجنون الذي سيستنزف جمالها، يأكلها لحماً.. وربما سيرميها عظماً!" حتماً. كان أريك يقول لزوجته غريس هكذا!!!"

تنفس الماوردي بعمق. وأبعد عن دماغه شبح أريك وغريس، قائلاً في خلد:

"الناس هنا، لا تفكر بالطريقة التي تعتقدها. فما رأيك يا ماوردي، بأن أريك وغريس كانا يحمدان الرب على أن الوراق هو الذي فعل ذلك، وليس مورغ والماوردي!!!"

عندما نهضت مورغ لتقبل مارينا والوراق، كانت بذلك قد مسحت من سيورة ذهن الماوردي كل ما كان يُؤلف من تهيؤات. فيما بدأت الكؤوس تناطح الكؤوس. وغيار التجليات يخلق فوق القامات. حت أن غريس راحت تغرز أصابعها في شعر أريك، دون أن يبدي الأخير أي نوع من أنواع المقاومة. ربما هي المرة الأولى التي تتجرأ فيها السيدة على فعل ذلك. على الأقل أمامنا. فالوقار الذي سبق وأن تحدث عنه أريك طوال العمر، سرعان ما قذف به بعيداً، ربما ليستقر في حذاء ما في المستودع. لأن إعلان الفرح ليس نقيضاً للهيبة أو الإحترام.

"تأتون من الشرق، ثم تضعون نيرانكم على الورق لنقرأ. فأبي إحساس تنتمون إليه؟"

يرد الوراق:

"نحن ننتمي إلى حاسة الفهر!"

"بل، ولنقل إلى حاسة الرعب." رد الماوردي مضيقاً:

"حتى الله الذي لدينا، هو مختصر للخوف!" ثم وجه كلامه إلى صديقه مورغ:

"أريدك أن تشاركيني أفكارك يا مورغ."

فردت عليه: "ولم لا. إذا كانت صالحة!"

"صالحة للشرب. أم ماذا؟" سألتها الماوردي وهو يضحك.

"للتاريخ يا ماوردي."

"نحن ندخل التاريخ بدبابة، ونخرج منه لحماً مفروماً لا قبر له. لذلك ليس بمقدورنا أن نصنع من النفاية تاريخاً."

قالها الماوردي وهو يتطلع إلى مارينا التي ردت عليه بقولها:

"أشعر بأن السعادة لديكم، كما لو أنها بالون منفوخ بالنار. ولا قدرة لكم على تحملها!"

فعلق الدكتور الوراق:

"من شدة ثقل موروثنا الدموي. نحن لا نتقبل السعادة بسهولة، بل نعتبرها مؤامرة علينا في بعض الأحيان. هناك شيء من هذا الإحساس. تصوروا ماذا نقول في الشرق بعد الضحك: "اللهم اجعله خيراً" وذلك لإيمان الناس بأن الضحك الطويل سيجلب للمرء البكاء والغم والنكد!"

"هل كل هذه الكوارث من صنع حكامكم؟" سأل أريك وهو مكفهر من رائحة العنف التي ربما وصلت إلى أنفه.

"كل الذين جاءوا إلى السلطة من الجنرالات. ولو صادف وجاعنا شخص مدني للحكم، فإن أول ما يصنعه، هو القيام بمنح نفسه أعلى الرتب العسكرية في البلاد، حتى لو كان جندياً فاراً، لم يلتحق يوماً بخدمة العلم. لأنه يرى نفسه أكثر خبرة وأفضل قيادة من رومل أو منتغمري بأمر السياسة والعسكر. لذلك صار الدم نبيذ البشر في الشرق!" أجابه الوراق وهو ينتفض

"هون عليك يا عريس. وخذ الأمور بهدوء. فليس القصد إزعاجك يا وراق." قال له الأب أريك وهو يربت بحنو على كتفه مضيفاً:

"أقصد. عليكم بالديمقراطية. فهي الوحيدة التي تستطيع طرد الشبح وظله."

أجابه الماوردي:

"الديمقراطية. هل نشترها من السوق؟" قالها بتهمك، وأضاف:

"اسمعي جيداً أيها الأب أريك. الديمقراطية في بلداننا مثل الحصى في الكلية، كلما نتشكل وتنمو، تصبح خطراً يستوجب العمل الجراحي أو قطع الكلية من جذورها لتأخذ مكانها في المزبلة!"

"أو.. صاحت مورغ وهي فاغرة الفم.

"أو.. فقط يا مورغ؟! علق الماوردي كمحاولة منه لزجها في الحوار. فردت مارينا ضاحكة:

"لا تزعل. ومني أو.. ثانية."

الماوردي لمورغ ومارينا معاً:

"كأن النساء خلقن للتأوهات فقط!" أليس كذلك أيها الأب الرائع. منادياً على أريك. كي يقطع عليه تلك الأفكار التي ربما راحت تنهت رأسه. فنظرات الحنق التي تتجسد في عينيه، وهو يتفحص مورغ، كأنها تتحدث عن هذه الورطة التي اغرقت ابنته فيها نفسها بعلاقتها مع مخلوق من أمثال الماوردي.

"حتماً. فقد ضاق عليه عقله، وبات لا يعرف كيف يوازن ما بين تمثال الكريستال وبين قامة الصفصاف. ثم ماذا في رجل إذا ما صافحته، تسمع رنين حزنه وقيوده الحديدية وهي تنتقل من دمه إلى يديك كالكهرباء؟"

أجل. وسيقول مضيفاً في نفسه: "تركنا لكن يا بنات حرية الاختيار لا حرية الإنتحار!"

يرد الأب أريك بعد صفتته الطويلة-صار يصفن أيضاً- قائلاً:

"أجل. النساء يتمتعن بالتأوه. أليس كذلك يا غريس؟" ويمسك يد زوجته لتختفي تحت شرف طاولة المائدة. فأجاب الوراق معلقاً:

"تأوهات النساء.. صوت الشحنات أثناء تفرغها." فضربته مارينا بعكسها قائلة:

"هل يتوجب علينا عدم التنفس أيضاً؟" وهي تغمز مورغ.

فتحرك الماوردي وأمسك بقبينة الخمر قائلاً:

"اغسلوا الذاكرة بكأس أيها الأصدقاء، لنفهم بعضنا بعمق أكثر!"

فعلق الأب أريك معقياً وهو يرفع كأسه:

"بزرعة الأفكار!!!"

فشعر الماوردي بأن الجملة ملغومة. فرد عليه:

"هناك الكثير ممن يؤمنون بزراعة الأفكار في الرؤوس. حتى أن شيوعياً فعل ذلك، وعندما حان وقت الحصاد، لم يجن صديقنا غير بقدونس أحمر."

تطابرت قهقهات الجميع. فأحس الماوردي بالملل من القعود إلى المائدة. كأن رغبة ما قفزت في صدره من أجل الهرولة. نظر إلى خارج السياج، فكان الليل قد وضع أوزاره هناك. فترك تلك الرغبة تسقط من صدره، فعاد إلى الشرب والهمس في أذن مورغ. أيضاً، ليس الجميع وحدهم، ممن لم يعرفوا تلك الكلمات التي كان الماوردي يسكبها في أذن مورغ، بل هو كذلك!

فيما مورغ تنصت له بكل حذافيرها الداخلية والخارجية. وعندما بدأ صوت السيدة غريس بالغناء الهادىء، كَفَّ عن ثرثرته السرية وراح يتأمل السيدة الرقيقة، وهي تطلق صوتها من الفضاء مرددة أغنية قديمة. إنها تعزف على كمنجة ذكريات كانت لها. هكذا عرف الماوردي من مورغ. وعندما بدأت غريس بالتجلي، شاركها الجميع طقسها القديم. حيث راح أريك بالإقتلاع من جذوره، وهو يتطاير إلى البعيد البعيد.

"أليست الذكريات تقف على المرء اقتلاعاً من المكان الذي هو فيه، لتعيد إليه أيام أو قرون الماضي؟"
سأل الماوردي نفسه.

وأجاب: "صحيح. ولكن من يعيدك أنت يا ماوردي، عندما تصبح رزمة من الذكريات..؟"
الأيام هنا في سباق. وأنت أشبه بالعربة التي يقودها حصان لا تعرف طباعه. فيما يتربص المراهنون فعل الحصان لا العربة. فالناس لا تفكر إلا بالرهان على الربح. وما عدا ذلك وهم وخسارة تقوض البهجة. فهل من أحد يستطيع أن يضع كرة النار في جيبك، ويدعوك للضحك؟
"لكنك وبكل عظمة وجمال.. تستطيع أن تكتب عن هزائمك يا ماوردي!!".
"الهزائم. نعم. لأنها تولد من رحم الانتصارات. ولا هزيمة شاملة ولا انتصار كاملاً في عالم اليوم. فكلاهما يكمل الآخر".

"هل صحيح أن الغربي لا يشعر بالشرقي، إلا إذا شم رائحته وهو يحترق؟؟"
"أتريد جواباً أيها النذل؟"

"الشرقي هاوية عميقة تتراكم فيها حضارات صلبة. وليس صحيحاً أن يكون الغربي مستقلاً، ولا يشعر بالشرقي. إنه في أقصى الأحوال، يحاول تجاهله كمنفوق قديم. ومن ثم نحن لا نحترق أمام الآخرين إلا من شدة احتكاكاتنا الحضارية التي لم نستثمر منها غير الإحساس الدائم بالفجيعة، حتى وإن تكن بفمك ملعقة من ذهب تفيض بالعسل! أليست أنت مثلاً على ذلك الآن؟".

غريس تغني وأنت تتبخر كالقبر!؟

أحس الماوردي كما لو أنه سينهض وينتزع الدماغ ليطوح به كالكرة في الظلام. لكنه تراجع عن فعل ذلك لسببين:

أولهما لأن دماغه لا يشبه الكرة بالضبط. وثانيهما، أنه لا يملكه الآن، بعدما تسللت يد مورغ من تحت شرشف الطاولة إلى موقع العقل الطبيعي.

تجلس على متن المقهى وتطلق نفسك في ضبابها. كم من طريق يفتح في وجهك؟

سأذعنُ للورق. هكذا ستقول! وتفعل ذلك فوراً، فتقذف بجسدك إليه كاملاً. وهي فكرة لا بأس بها في كل الأحوال. فالورق جسدٌ، أنت تبني تاريخ معرفته. أي يوم تجعل منه رحماً للأفكار والصور.

-يا رجل. يكاد كل شيء يأكل الورق والجسد معاً.

-لكن الورق أقوى من الجسد. لأن الأول ما يزال قادراً على تحمل أعباء الثاني.

-سيصبح الجسد الأدمي خلاصة حقيقية للورق. هذا ما أعتقد.

-آه أيتها الأرض الميلودرامية.

سرعان ما ابتعدت المقهى، نائية بنفسها عن اللغظ الصاحب. فأخرجت من حقيبتي الصغيرة دفترًا، ورحت أخطط شكل الزمن. فيما كانت فتاة أمامي، تجلس كالمصباح الناطق الذي يتسلط منه الضوء على الورق، ويدهم تلك الكلمات بالعطر.

"الكتابة جدولة الجسد. هذا ليس اعترافاً ببربرياً، بل رثاء اللحظة."

حملت ورقي وتطايرت من على متن المقهى. ولا أعرف إن كنت ضحكت أم لا.

لم يدرك الأب أن ابنته سمرقند، سينتهي بها المطاف كالجثة في أحد مستشفيات العلاج الخاصة بمرضى الأيدز. فقد كان صعباً تفريغ الجسد من تلك الأفاعي التي نشرت ظلالها المرعبة في الدم، لتزحف في تلافيف الدماغ كالبلدوزر الذي يفلش كل ما في طريقه.

كانت الأشهر الذهبية قد مرت بسلام: الجنس والحشيش والحقن والحبوب. كل ذلك من أجل تعذيب العقل أو رميه في تنكة الزباله. عالم جميل ورائع، ذلك الذي اكتشفته سمرقند، الفتاة الجميلة التي دخلت عامها الثامن عشر.

في البدء.. كانت الطقوس بالنسبة إليها بمثابة السحر. أو هو السحر. لأنها لم تكن تعرف عن السحر شيئاً. اكتشفته هنا: في مواخير الظلام التي تصطاد زمر الطلبة، ممن يبحثون عن البهجات السريعة، دون أن يعرفوا شيئاً عما تخفيه أغلفة تلك الملذات، من سموم وفداحات مرعبة. فيعد الرقص الجميل في الديسكوات والغرف المغلقة، جاء دور الرقص الآخر. وها هي سمرقند، تذكر نفسها بسندريلا، ولكن بفارق كبير، إنها تمارس رقصة الموت بقدمين طحتهما الأيدز. فيما التاريخ القديم لسندريلا، يتحدث عن فتاة أنتجها العشق الجميل، لتصبح رمزاً في الذاكرة العالمية.

حتى الحب الذي دخلت سمرقند في حلقاته، كان بمثابة إنتقام من شيء ما. فهي لم تمارسه بطوقسه النبيلة الرائعة والخاصة. بل مارسته على طريقة الفراشة وهي تدخل النار. فهي لم تحب أحداً بشكل روحاني أو جدي ذات يوم، لتقاسي من العشق والعذاب السري من لوعة الحب، بل لأنها لا بد أن تمارس الجنس كالأخريات. أي بفعل الغيرة، وليس بدافع التحدي لسلطة العائلة. فهي تريد فقط، تحدي القيم التي تنام في داخلها. بل ولتقفز السياج الأخطر نحو عالم المخدرات، بهدف إثبات عدم شعورها بالنقص. وأن شرفيتها لا تحول دون أن تفعل ما يفعله الأوروبيون هنا!

"كيف يمكن لنا إعادتك للحياة مرة أخرى يا سمرقند!!؟"

بعد أقل من عامين، تبدد الحماس كله. لينحسر الطوفان القديم عند هذا السرير الذي تخلّد تحت أعظيته في المستشفى. أليست هذه هي الحرية التي أغوت سمرقند، فعاشتها دون نقص ما، كي لا يحز الغبن في نفسها؟

ولكن.. أي نوع من الحرية، هذي التي يدق جرس الإنذار فيها، ليعلن عن حدوث كارثة كالموت؟؟

يعتبر الكثيرون بأن جرس الإنذار هذا، حالة تتم عن نزعة ديكتاتورية، تحاول إعادة الإعتبار للقمع، كي يتحكم بالذات. إلا أن سمرقند، لم تتعب نفسها يوماً بمثل هذه الأفكار. لقد ابتلعت الصنارة الصغيرة دون شعور بضيق أو بألم. فقد كانت الفتاة، عبارة عن سلسلة طويلة من الأحلام والرغبات. حتى أنها فكرت بتغيير اسمها إلى اسم بديل يتناسب والعالم الدانماركي والأوروبي بشكل عام، بعد أن قامت بتغيير عاداتها ومخالفة تقاليد العائلة.

"التمرد. على من؟"

"على كل شيء. بدءاً بالثياب، وانتهاء بالعقل والهوية القومية!"

"العقل. الهوية. هذه كلمات أكبر من سمرقند. فالكثير من الكبار لا يفقهون شيئاً من هذا القبيل. فكيف الحال للجيل الثاني والثالث؟"

"فات الأوان. وما أنت تندب نفسك وتلعن الساعة التي ولدت فيها."

كان شومان -والد سمرقند- يأخذ رأسه بين يديه ويبكي. في المقاهي. في منازل الأصدقاء. في القطار. فأيان تجده، تراه في مثل هذا الوضع البائس والمحزن.

"لقد بعنا أبنائنا للفرنجة" قالها شومان وهو يغرق بنوبة هستيرية من النحيب.

"وأين كنت يا رجل؟ هل غطت عينيك آلاف من الأجفان الخشبية، لتمنع عنك رؤية ما كانت تفعله سمرقند؟؟"

"كنت مشغولاً بالعمل. ليل نهار. اللعنة على الفلوس والذي صنع الفلوس."

"العمل!!"

"أجل. العمل الأسود. وبنهم وعيون فارغة لا تملؤها كتبان من الرمل."

لم يكن شومان وحده الذي تحولت حياته إلى نزيف أسود، بعد الإستفاقة المتأخرة، فهناك الكثيرون، ممن يأكلون بلحومهم، ندماً على ما حصل لأبنائهم في هذه البلاد، بعدما تركوا الحبل على الغارب. الأمر الذي هبأ الفرصة لهؤلاء بمد رؤوسهم إلى الممرات الموبوءة والمعتمة والضيقة. بل وأن البعض من الآباء راح يسوق أولاده لجمع القناني من الحاويات والأمكنة التي هي بمثابة معازل ومقرات للحشائش والكحوليين والشاذين، بهدف جمع بعض الكروانات الإضافية التي تدعم أرسدتهم الشخصية!!

ولكن أحداً من أولئك الأبناء، لم يستطع الخروج من تلك الممرات التي سرعان ما ضيقت الخناق عليهم، فذابوا في ظلامها القذر. فيما ذاك الطراز من الآباء، لا يتورع عن إرتداء ثياب الفضيلة والإدعاء بأصالة جذورهم الدينية والطبقية الممتازة!

"كلهم أبناء ذوات ومن الطبقة البرجوازية التي تتمتع بالنفوذ الاقتصادي والاجتماعي!!"

"يملكون العقارات والبيارات والمزارع والعقارات وكانوا يعيشون في قلعة الهرم الاجتماعي مثل الباشوات والأئمة!!"

وإذن.. ما الذي جعل "برجوازية" بلداننا، تدفع بأطفالها إلى النقاط القناني الفارغة والأعمال المخجلة الأخرى؟

هل تخلى البرجوازيون عن خياراتهم الأساسية؟

أم إنها تبرجزت من خلال موارد أخرى غير موارد العمل الأسود وجمع قناني البيرة والمشروبات الغازية واللطش "الشرعي"؟

لماذا خداع الذات الأحمق. وهذا الإنتفاخ العظيم، الذي سرعان ما يتحول إلى ذل وخنوع وشحاذة في غرف المشرفات والمشرفين الاجتماعيين في دور البلديات؟

كم من الأشخاص الذين إدعوا ويدعون بفقدان محافظتهم في كل أول شهر، لينالوا بالبكاء والكذب والإحتيال مساعدات إضافية من البلديات!!

هذا ليس هو الطريق الوحيد للنصب والإحتيال، بل هناك أساليب تغرق الدماغ بالغيثان.

هناك الكثيرون.. وشومان ليس الوحيد الذي نسفت الفلوس حواسه، أعداد غفيرة تمسحت أدمغتهم، ففقدوا السلطة على النفس تحت هاجس جمع المال بالحلال والحرام معاً بل، وهؤلاء الذين ازدادوا خبرة في هذا المجال، لا يتوانون عن تقديم النصائح لإفساد الآخرين. وينعونك بالمغفل، فيما لو لم تفعل مثلهم. فالحكمة التي تسيطر على عقولهم التي تحولت إلى كومة من المصارين، كما يبدو تتمثل بشعار "شعرة من جلد خنزير مكسب!" أو "سرقة الكافر أمر شرعي!".

"وداعاً أيتها الأحلام والمثل العليا والأخطاء". أليس هذا ما قاله رامبو في فصل في الجحيم؟
"تحدثت عن رامبو أيها الماوردي المغفل! وهل قرأ هؤلاء شاعراً من أمتهم، ليعرفوا رامبو الفرنسي؟"

ألسنا نحن هنا على نفس الخط. نبني نصوصنا من الذاكرة الوضعية، وننسبها إلى كتب الحكمة! وأليس هذا ما يفتي به هؤلاء الذين أصبحوا عبئاً ثقيلاً ومشوهاً للديانة الإسلامية، ويديرون ظهورهم للنصوص التي تؤكد على المبادئ الكبرى والهامة لتنظم شؤون المخلوق البشري مع الطبيعة وما خلفها. غير التي يتحدث عنها هؤلاء الذين ينصبون أنفسهم سيوفاً وباشوات على رقاب العباد.

ألم نتذكر يا ماوردي الشيخ الذي رأيتَه على بلاج البحر في صيف العام الماضي؟

هل تذكرت؟ أم أن جرذاً قد أكل أوراق الأرشيف في رأسك!!؟

لا تتعب دماغك. فحن مجموعة فضائح مركبة. لذلك لا غرابة في سماع السيد شومان، وهو يشتم وينتقد الآخرين قبل أن يفعل ذلك ضد نفسه. سيدفن سمرقند دون أن يدفع كرونة واحدة. وفي هذا توفير وراحة للبال. بعدها، سيبدأ الشغل في الظلام، وكأن شيئاً لم يكن!

"لا تدع الخيال الخبيث ينجج بك يا ماوردي بعيداً. فالناس حواس وعواطف ومشاعر."

أجل. ولكن هذا الشخص وسواه، كالشارع المبلط بطبقة سميكة من الأسفلت، لا يهيمه ثقل أكبر الشاحنات، ولا يتأثر جلده بأشد الفرامل قوة. وربما كل الدموع التي تخرج منه الآن، أي الدموع التي تراها، قد تكون بكاءً على وقت يقضيه عبئاً في زيارة المستشفى من أجل ابنته. صحيح أنه بات يلطش الشراشف والملاعق والصحون وورق التواليت ومطافئ السكاثر، إلا أنه يشعر بعدم قيمة هذه الأشياء، حينما يقارنها بدخله الشهري من العمل الأسود.

من هنا.. فلا تعتقد بأن شخصاً ما مثل شومان يعاقب ذاته. لأنه عقوبة فرضت علينا. فالمخلوق الذي دون أخلاق، لا يشعر بأي نوع من العقوبة، بما فيها عقوبة الإعدام. لذلك ترى المجرمين الكبار والصغار، يهرولون إلى جبال المشانق أو نحو غرف الإعدام هرولة، وكأنهم ذاهبون إلى حفلة زفاف.

فكيف الحال في بلد جلالة ملكة الدانمارك، رئيس الدولة فيه يستقبل، فتسقط الحكومة ويصدر حكم بحبس وزير العدل، نتيجة إهمال أو كذبة تعرض لها لاجئ من التاميل. وليس شخصاً من أهل البلد. لقد قامت الدنيا هنا. علماً بأن البشر في سيريلانكا وسواها من مناطق التوتر في الشرق. يتساقطون كالذباب على أيدي الحكومة. ولأتفه الأسباب.

اضحك يا ماوردي. وإن شئت انتحب. فالحكومات التي لدينا، ربما ستصبح بعد سنوات دون شعوب. فالإنقراض هناك يشمل كل شيء: الإنسان والحيوان والنبات والحضارة، عدا الحكومات، فهي الباقية إلى ما لا نهاية، لأنه لا يقترَب منها بعدما قررت الخلود! تسمح البشر مسح الحذاء، وتنفخ الأرض بالمعتقات، دون أن يشار إلى ذنب لحاكم أو حكومة. فال مواطن من أملاك الدولة يا ماوردي، وليس له الحق بقص شعره من رأسه دون إذن منها.

أنتذكر ضابط الأمن رشاد الذي نفي من العاصمة إلى تلك المدينة النائية، بعدما غضب منه رؤساؤه، وكيف فعل بالناس هناك؟

"نعم رشاد. كان يبندىء صباحه بجلد شخص ما، كوجبة للإفطار. وإذا ما تعذر وجود مثل ذلك الشخص، سرعان ما يقوم بتوبيخ الشرطة وشم بعضهم تحت ذريعة التقصير بالواجبات.

"على كل شرطي أن يختار ضحية واحدة في اليوم. وإلا فيسقط حقه بقبض المعاش!!"

رشاد.. بل كم مثله من الضباط في تلك الدوائر؟ فعلى الرغم من أنه جديد على تسلم مقاليد الأمن في تلك المدينة البعيدة، ولم يكن يعرف عن الناس شيئاً، إلا أنه كان ينعته بالمتأمرين.

"يفعل ذلك بالبشر.. لأنه لم يتمكن من الحكومة التي بات يكرهها. لذلك يقوم بالتأثر من المدينة وأهلها!!"

بالمقابل.. لم يخل رشاد من المتعة آنذاك. فقد كان يهدم في الليل، كل ما كان يصنعه للحكومة من رعب في النهار. أجل في الليل. فعندما يشتد به السكر في نهاية السهرة التي كثيراً ما كانت تبدأ بنادي الموظفين وتنتهي عند خيام العجر في أطراف المدينة، يقوم بتمثيل دوره الحقيقي الآخر. يركن سيارته في الموقع الذي يرغب به. ثم يقوم بإرتداء البزة العسكرية التي يحتفظ بها في السيارة، وهي تحمل رتبة نقيب... ثم يقوم بتشغيل جهاز التسجيل الخاص بالسيارة ويمشي على إيقاع المارش العسكري، قاطعاً الشارع من الرصيف إلى الرصيف، وكأنه في مهرجان لاستعراض الجيش. تارة تراه يعطف. وتارة تسمعه وهو يطلق بعض العواء الممزوج بالكلمات البذيئة بحق الحكومة. علماً بأن ليس من حق ضباط الأمن إرتداء البزات العسكرية. إلا أن رشاد، ربما كان يحن للجيش الذي تخرج من إحدى كلياته، فبعد أن تم إبتدابه للعمل في أجهزة الأمن والاستخبارات، شعر رشاد بأول نكبة يتعرض لها في حياته: حرمانه من الزي العسكري الذي كان يعتبر بمثابة حلمه الأبدي.

كان كل شخص منا، يرى رشاد وأفعاله، يعتقد بأن ما يفعل هذا الضابط الأمني جزء من المسرحية المخبرانية للإيقاع بالآخرين. فمن الصعب تصديق ما كان يفعله. أو لنقل، ليس من السهل تصديق ما كنا نراه من مسؤول يجلد الناس في الصباح، خدمة للحكومة، ويفعل العكس في الظلام.

وعندما أرف موعده تصفيته إعتيالاً من الحكومة، بعدما شاعت الأخبار عنه ووصلت للقصر. صدقنا بان رشاد معارض من طراز فريد. ولم تأخذنا الإشاعات بأن نصدق ما أشبع عن دور المعارضة بقتله. فهو الآخر كان يجلد نفسه بطريقة لا تخلو من الإنضباط والقسوة العسكرية.

سأل الماوردي نفسه بسخرية:

"لماذا تنفخ من حفرة إلى أخرى، وكأن الحياة مقبرة وعقاب فقط؟!"

يا رجل. دع شومان في السوق الأسود أو الأخضر. ودع سمرقند في تحتها. ودع البرجوازية الشرقية تبني أهرام مجدها الجديد من القناني وغيرها. ودع ضابط الأمن رشاد في حفرتة. فالعالم ليس هؤلاء. ومن الخطأ الفادح أن يأخذ البعض الآخرين بجريرة واحد من طراز شومان وما عداه. لا تحشر نفسك بين هؤلاء، وكف عن إطلاق بالونات الموعظ. فأنت لو فعلت ذلك على الدوام، فسينتهي بك المطاف إلى مصير ربما لا ترغب فيه. صحيح أن خطأ فادحاً يرتكبه واحد منا، قد يسيء إلى سمعة عشرات الألوف هنا، ولكن، كل ذلك يتوقف على ثقافة واستيعاب المجتمع الذي أنت فيه.

أحس الماوردي بثقل المأساة التي أمامه: سمرقند تلفظ أنفاسها في المستشفى. والأب شومان في العمل الأسود الذي أصبح بمثابة منزله الحقيقي بعد الانفصال. والزوجة البائسة التي تعيش وطفلها في منزل المطلقات.

"لا تقف على الأرض التي يقف عليها هؤلاء. إنها كالجب المموه بالأعشاب. وبمجرد ملامسة قدميك لها، ستحس بطفقة الغصون اليابسة التي ستهوي بقامتك إلى قاع الظلام البارد. دع حواسك محصنة وساعد الآخرين على فعل ذلك. فأنت لست بالنبى أو بالمصلح الاجتماعى. فلا تحمل مشنقتك على كتفك، وتنتختر بأفكارك كالتاوس. فهذا ليس عصر أفكار، ولا بزمن للنبيات.

الآن مارينا حبلتي. وسوف يكون الدكتور الوراق أياً بعد شهرين. هكذا قرر الاثنان معاً: تكوين عائلة كبيرة. ولم تلق الفكرة معارضة من قبل مارينا التي تعتقد بضرورة عدم التفريط بخصبيها. فالعالم رحم.

صحيح أن لمارينا أفكاراً وتصريحات في غاية الدقة والغرابة أحياناً، إلا أنها لم تعن بذلك تخليها عن عالمها الجميل والمشارك مع البعل الجديد، وتفرغها للإنجاب فقط. بل إنها تؤمن بضرورة تنفيذ رغبتها كامراً مهووسة بحب الأطفال.

كان الماوردي في زيارته الأخيرة لمنزل مارينا والوراق، أحس بأن الاثنين قد اكتمل ريشهما، استعداداً للطيران عنه. وأنه سيبقي طيراً خارج السرب. الرملاوي الذي اختفى مع كامل شخوصه الذين كان يمثل أدوارهم بمتعة متوازية ما بين العبث الكوميدي والأسود التراجيدي. ومارينا والوراق اللذان دخلا العش للتمتع والإنجاب ومراقبة تطورات الحياة التي سيسفر عنها الزواج.

"للتقطع بك كل السبل. أبق وحيداً مثلما جئت. أو سر على الطريق كدولاب سيارة مُنفس. أنت الذي تبحث عن الكمال في مدجنة. وهن النساء اللاتي يفتحن أفواههن لإلتهايمك، كما تفعل القطط بصغارها. سوف تحرق يدك شعلة الأولمبياد. ولن تصل، حتى لو أصبحت من أشهر العدائين في روما أو روسكيا. فذات يوم، سوف تُدفن تحت نصوصك، عندما تهزم كالحلم، ولا تستطيع الطيران إلى أبعد من الأوراق التي تبعثر نفسك والعالم عليها."

-ماذا عن مشاريعك الجديدة يا وراق؟

-اقرأ كتاباً وأنظر إلى بطن مارينا. "يمد يده ويتحسس بطنها"

-أهم مؤلفي التاريخ العظماء والسيئون.. خرجوا من هذا الرحم.

-لذلك.. نريد لطفنا أن يأتي عظيماً. فقد أصبح العلم يتحكم بالجينات الآن.

-أجل. لقد بدأ اهتمامهم بذلك يثير القلق. لأن تمييزاً بيولوجياً من نوع جديد، سيظهر بين البشر. سيتحكمون بانتاج جيل في غاية الذكاء والعبقرية والجمال، أي وفقاً للمواصفات التي يرغبون بها يا وراق!

-وماذا تريد أن نفعل يا ماوردي؟ أن نصنع طفلاً الثاني من مخبر الجينات! ويغرق بالضحك. فتنهض مارينا لمط رجلها من الجلوس وفقاً لأوامر الطبيب الخاصة بالحوامل، وهي تقول للماوردي بشيء من الدعابة:

-وهل تشك بما تنتجه أرحامنا؟ فيرد عليها الماوردي معلقاً:

-كلا. حتى بت أعتقد بأن في رحم كل امرأة دانماركية، مخدة لصيانة الجنين من الإرهاق.

يغرق الثلاثة بالضحك. بعدها يفرغ الماوردي من تناول قهوته، ثم ينتحي بالوراق جانباً ليسأله:

-يا دكتور. هل تحتفظ برسالة ما أو نص للرملاوي.. أقصد بخط يده؟؟

فصمت الوراق قليلاً من السؤال المفاجيء الذي ألقاه عليه ككرة النار. ليجيب عن ذلك بعد برهة:

-أجل. هناك أكثر من رسالة. لماذا؟

-أحضر واحدة من الرسائل.. بعدها، يمكن أن نتكلم عن شيء.

فنهض الوراق متجهاً صوب الغيول. ليفتح أحد جواريره ويأتي بمظروف كبير. يفتحه ويلقي ببعض رسائل الرملوي أمامه. ثم ينظر بشيء من الاضطراب، وهو ينتظر الهدف الذي سيسفر عن ذلك. -تعال. ويخرج الماوردي ورقة من جيبه" أليست هذه الوصية التي وجدت عند جنّة الرملوي؟

-أجل.

-وهل يتطابق الخط فيها مع خط رسائله؟ فيدقق الوراق في الخطين ويصرخ:

-مستحيل. هناك فرق شاسع ما بين الخطين!

-إذن.. لا بدّ من تسليم الأوراق للبوليس. هيا.

عندما عاد الماوردي إلى منزله ليلاً، وجد أثاث الصالة وغرفة النوم مقلوباً رأساً على عقب. فأصيب بالذهول. طاولة الطعام، الكراسي، الفراش، الكتب والأوراق المبعثرة، والمرابا المهشمة.

"قريباً سترى شكل وجهك.. مثلما تراه في بقايا هذه المرأة يا ماوردي!!"

هذه هي الجملة الوحيدة التي تركها الزائر أسفل المرأة. وقد كتبت بخط أحمر عريض. ويبدو أن كاتبها يتمتع بشيء من الفن، كأنه من الخطاطين الذين كانوا يكتبون اللافتات السياسية في بلادنا القديمة التي تنازلنا عنها للقيصرية الجدد، وجئنا للإختباء خلف هذه الجدران التي لم تسلم هي الأخرى من المدهامات وفرق التفتيش.

جلس الماوردي على الأرض، وهو يستعيد منظر الأطلال التي تضمنتها قصائد الشعراء العرب في العصر الجاهلي.

"وما أوجه الإختلاف بين الجاهلية الأولى والجاهلية المعاصرة يا ماوردي؟ هناك أطلال الطين والرماد، وهنا أطلال البشر والأوطان. إن ما يحكم تاريخك، لم يكن إلا سيفاً. وهكذا طغت الكهولة علينا، لتتال من عالمنا العربي. في الزمن الغابر، كانت سنايك الزحف المغولي. والآن.. فرسان وزعماء الخراب الجدد، بثيابهم الأنيقة التي يصنعها بيار كاردان وأرقى دور صناعة الأزياء في العالم. كان المغولي القديم، يرفض ارتداء غير ثيابه. وإمتشاق سيف من غير السيوف التي يصنعها بيديه. أما المغول الوطني الجديد، لا يفعل شيئاً من هذا القبيل. إنه يريد استيراد البشر والدم والأطعمة من الخارج! إنهم يستوردون الأرض حتى. أليس من يستورد الطعام، كمن يستورد أرضاً؟ أم ماذا!!!"

عندما توجه الماوردي إلى جهاز الهاتف، تأكد من موت الحرارة فيه. فلم ينس الزائر أن يحيل أسلاكه إلى قطع صغيرة، الأمر الذي يدل على أنه بذل جهداً، وأنفق وقتاً من أجل جعل الهاتف مخلوقاً بلا حراك. فصمت قليلاً. بعدها غادر المكان متوجهاً نحو منزل مورغ. كان وهو في الطريق إليها، يضرب الأخماس بالأسداس. يفكر، ويستعرض كل التفاصيل عن علاقاته بالآخرين. لم يترك نفسه لتشك بأحد. ولم ير نفسه متهماً بجناية أو ثأر أو قضية ما تتطلب أن يفعل به الآخرون هذا الذي جرى. حتى أنه رفض الانصياع إلى طلب مورغ بإبلاغ البوليس عن الحادث، فالزائر أو الزوار - لا فرق - لم يسرقوا شيئاً غير قلم الحبر القديم الذي كان يتركه الماوردي على الطاولة باستمرار. وربما حمل أحد الزوار القلم بالمصادفة ودون قصد.

"أنت تتركب حماقة كبيرة بعدم القيام بإبلاغ البوليس."

قالت له مورغ ذلك بغضب وعصبية، وهي تساعده بإعادة ترتيب البيت من جديد.

"لا أحيذ الشرطة حتى وإن تحولوا لملائكة أو لراقصات ستربتيز."

أجابها ببرود. وكأنه يحاول عدم إقحام ذهنه باستعادة صورة الشرطي الآسيوي القديم.

"كفاك تعنتاً وتعقيداً. هناك بعض الأمور الملحة التي يجب فعلها وفقاً للمصلحة العامة. وإلا كيف

يمكن للقانون توفير الحماية للناس يا سيد ماوردي؟"

"اسمعي مورغ: لا تدعي الحماس يقفز في خلاياك ككرات النار. لقد مررت بأكثر من هذا الموقف الذي أنا فيه. فالسلطات التي لدينا هناك، تُقطع جثمان المخلوق البشري، أكثر مما فعله الزائر بأسلاك الهاتف هنا. ثم تدير ظهرها وكأن شيئاً لم يكن. لقد تجرنا الخوف بالتقسيط. وتعلمنا لغة الرعب درساً اثر درس. حتى بات المواطن يشك بقدرته على الحياة، عندما يمر عليه يوم هادئ لا يحمل له بعض المنغصات."

تطلعت مورغ في وجهه ملياً، ثم هرعت نحوه، لتأخذه بين ذراعيها. كانت كمثل من رأى دخاناً يخرج من عينيه. فحاولت قطع ذلك المشهد، وهي تشده للخروج من المكان نحو منزلها القريب.

-لا عليك. سنفكر بذلك فيما بعد. المهم أن لا تتحرك تلك البراكين في دواخلك. أنا مرتبكه الآن مثلك. ولكن ليس من المفروض أن نرسم الأشياء السيئة فقط. هذا ما أتمنى أن تفعله مثلي في الأوقات العصيبة.

-ما كان عليّ أن أقوم بزجك في هكذا موضوع. اعذريني مورغ. فأنا لا أحتمل ثيابي التي أرتديها في الكثير من الأحيان. من يدري، ربما قدرك هو الذي أسقطك في عالم لأشخاص، ينبعث الخراب من جلودهم كرائحة خيول السباق.

-سنقابل العالم الفجاعي ذلك، بلغتنا الخاصة. فقد نغرق نحاس اضطراباتنا، أليس بإمكان النساء الأوروبيات أن يفعلن ذلك يا ماوردي؟

-يا للجنة.. يبدو أنك مشغولة بالرنين الذي يصنعه الحزن. أجل فنحن نرن حينما نكون غرقى الحزن. وربما نزمراً ألامنا أثناء النوم! هل أفعل ذلك يا مورغ؟

تمسكه من خاصرته ضاحكةً، وهي تدفعه إلى داخل منزلها.

-لقد بت أغار عليك من نهر الكلمات الذي يسكن أراضيك. إنها المرة الأولى التي أجد نفسي تافهة بهذا القدر من الإحساس: الغيرة التي تبتث اللهب في الأعماق؟!

-ومع ذلك، لا يبدو عليك شيء من هذا القبيل!

-وهل تريد رؤية النيران وهي تزحف فوق ثيابي، لتتأكد من ذلك؟

-لا أقصد النيران ولا الثياب، بل أنت بالضبط.

تترك مورغ قبينة النبيذ التي كانت تعمل على نزع غطاها الذهبي، ثم تتقدم نحوه كاللبوة المتحفزة قائلة:

-وماذا رأيك عن هذه المورغ؟

نظر الماوردي إليها، وكأنه يتخيل أمامه امرأة مصرية تتحفز للنزاع مع بعلمها الدرويش، على غرار ما يحدث في الأفلام. إلا أنه يترك طبيعة الذهن التخيلية تلك، ليجيب:

-مورغ. المرأة التي تترنح في الحب، ليست هي المرأة التي تسقط فيه!

-وأين أنا من هذه الحكمة.. في ضفة الترنح أم في ضفة السقوط؟؟

يقطع الماوردي الذهول الذي اعترى مورغ، فينهض نحوها ليمسك بيديها في محاولة منه لنزع الفتيل. هكذا أحس بها وكأنها قنبلة على وشك الانفجار. فقال في نفسه:

"لم هذه الفلسفة الوقحة؟ ثم ماذا تريد من امرأة تهزّ قامتك من أخصص القدم إلى رأس هرم الجسد، وكأنك شجرة تساقط جنوباً؟ أتريد أن تضمها إلى ممتلكاتك من الكتب والأقلام والمحابر

والفكار والخمور؟ أم أنت ما تزال بذهن الشيخ القديم، الذي يحاول أن يفرض على مورغ الصلاة على قدميه، كل صباح ومساءً، مقدمة له الطاعة وقسم الولاء على غرار النساء في مجتمعات بلدان الشرق؟"

-أنا متعب يا مورغ. وقد لا يكون من مانع لديّ، لأسفك دم الظلام الذي يتراكم في عيوني. أرجو أن تفهمي ذلك جيداً، وبطريقتك الخاصة. لا يمكن للمرء أن يبقى كحزمة أوراق تبعثرها العواصف، وإلى ما لا نهاية!

يصفق الباب خلفه، تاركاً مورغ وحيدة في المنزل، حيث راح يحدث الخطى باتجاه محطة القطار.

"لن أتركك حراً.. وأنت تمارس هذا العبث بحياتي أيها الوغد.."

و ما هي إلا دقائق، حتى كانت مورغ إلى جانب الماوردي في مقعد القطار المتوجه نحو العاصمة كوبنهاغن.

كانت الساعة تشير إلى العاشرة مساءً. عندما جلس الاثنان تحت قاعدة نصب حورية البحر، صامتين، وكأنهما ضجرا من الحكي وبرغبان لو تحولا لتمثالين من النحاس أو الحجر أيضاً. أجل. ففي ذلك متعة. عندما يأتي السواح ويلتقطون لنا الصور للذكرى بكاميراتهم. أنت مورغ الدانماركية حفيذة سلالة الفايكنغ. وأنا الماوردي، ابن الشرق المتسكع على هامش الحضارات، لم يبق من تاريخها سوى التشرذم والنفي. ومن ثم، لم يكلف الأجانب أنفسهم مشاق السفر والترحال وهدر الدولارات، ليذهبوا نحو الشرق، ويكون بإمكانهم الحصول على أجمل اللقطات منه هنا؟

كلا. فالغرب له أزماته كذلك. مثلما ذلك للشرق. لذلك اطمئن يا ماوردي. فلا أحد يستطيع الإفلات من هذا الشخص. ما دامت الأزمات تختار الضحايا في مواسم الصيد، وفقاً لقانون العرض والطلب. صحيح أن الأزمة التي أنت فيها، لا تشابه أزمة مورغ، ولكنها أزمة تحرث في الكيان الإنساني.

-هل تسلل النعاس إليك؟

-قليلاً. ما رأيك لو نرتاد حانة ما لتناول البيرة. هل لديك استعداد لذلك؟

-البيرة أم الأوزو يا مورغ؟

-سأحتسي الاثنين معاً. ومن هنا.

ويلتقط شفتيها بفمه، كقاطع صحراء، يحاول سحب كل المياه من أول نبع يصادفه على الطريق. فيما بعد، أحس بأن عليه أن يستكمل انسحاب لسانه من أعماقها، فربما ذلك الإنسحاب، سيستغرق وقتاً طويلاً، إلا أنهما إستفاقا على صفعات طالت ظهريهما بشكل مباغت.. ضربات من نوع اللطش الذي تحدثه ذبول الأسماك على سطح النهر. فنهضا وهما يتطلعان إلى حورية البحر، وهي تغادر مكانها، مخلفة قاعدة التمثال لجسديهما.

ما ذاك الذي حدث.. قالا هذه الجملة، ثم ابتلعت آثارهما الزقاق.

إنني لأذكر تماماً ما حدث في تلك الليلة على وجه الدقة: عندما دعاني الرملاني لمصاحبته في جولة ليلية. فقد كانت السنة في نهايتها كما هو الحال من كل عام. أي ليلة رأس السنة بما تحمل من البرد والتلج والعممة. وكنت آنذاك، ميالاً لقضاء الليلة الأخيرة في العاصمة. مع الصخب الذي يدور في دواخل البشر، ويخرج كالمفرقات. إلا أن الرملاني كان يحمل في ذهنه مشروعاً آخر غير الذي كان في نفسي. فبدلاً من التوجه قطاراً إلى العاصمة، ركبنا القطار الذاهب إلى هلسنغور. ولم تكن نحس بوقت الرحلة. فقد كان القطار قنينة امتزجت بكافة أنواع الخمور. هكذا كان يطوي الطريق بركباه من السويد والدانمارك والنرويج وملحقاتهم من الأجانب. السكارى الذين تنبعث من أفواههم وجلودهم وأحذيتهم رائحة الخمر والحشيش، ومن مختلف الأصناف والمراكات الغالية والرخيصة. وكيف الوضع.. واللييلة رأس السنة؟

في الأيام العادية.. يجيء السويديون إلى الدانمارك، من أجل التزود بالوقود "الخمر". أو ربما من أجل الإحساس بالنزوح من أمكنتهم نحو مناطق الجنوب ولو قليلاً، طرداً للتعب الذي يصيبهم تحت سقف القطب. ويدفعهم للإنتحار المبكر بين السكك الحديدية وعجلات القطار، كما هي العادة المتبعة هنا. فالسفر، غالباً ما يكون مشاعر خفية، تزيد من ميول المخلوقات نحو الحياة. وقد لا ينطبق هذا على الإنسان فقط، بل على الحيوان والنبات أيضاً. فعندما ينتصف الليل، يعود الجميع إلى منازلهم في القطار الذي يطلق عليه "قطار السكارى".. كونه آخر قطار في الخدمة.

"في هذه الساعة حيث الليل يتغلل للخروج من حذاءه الميرنق

نأخذ الزمن مثلما يأتي

كحائط متصل بجدار سجوننا".

إخنت في الذهن مقطع اندريه بريتون. أو قفز هكذا. فيما كنا نقطع الطريق بمحاذاة البحر نحو شارع يعزل نفسه عن المدينة، ليفضي إلى قلعة هلسنغور الشهيرة. كان البرد يقص المسمار. فيما غطى الثلج كل شيء، بما في ذلك الروح. هكذا يكون الحال الدائم لنا في الدانمارك: في الشتاء تتكلمش أرواحنا فنعود إلى كهوفنا الجليدية، محمولين على نقالات الكآبة. وعندما يحل الصيف الخجول بشمس، سرعان ما نتمدد قليلاً كالمعادن. أما في تلك الليلة، فلم يستطع معطفي المبطن بالفراء والصوف، والذي يحتاج حمله لشخصين معي، أن يرد عني الزمهرير الذي كان يفتح جسدي بنباله اللامعة.

- لا تتذمر. ها قد وصلنا.

لم تصلني كلمات الرملاني. بل وصلت برودتها. فكل كلمة خرجت من فمه أو فمي آنذاك، لا بد وأنها سقطت كلوح من الجليد.

- وصلنا ماذا. الجحيم؟

"إنه أفضل الأمكنة التي رغبت بإرتيادها في مثل تلك الساعة".

- يمكن أن نعتبر المنزل كذلك! وأضاف الرملاني:

- سيكون من حفا في هذا البيت النظر فقط. لا آراء. ولا حكي. ولا تعليقات.

"يا للهول. ها قد تحولت إلى بهيمة يا ماوردي. وإلا فلا بد من الرد الحاسم."

لكن الرملوي لم ينتظر ما سيسفر عن الماوردي من ردود أفعال. فقد ضغط على الزر، لينفتح لهما الباب سريعاً، ليصبحا في الداخل، مع قرابة الثلاثين شخصاً من كلا الجنسين. كان الجميع وقوفاً بانتظار شيء ما. وكأن الكل فقد لسانه آنذاك.

كانت الشموع الكبيرة.. هي التي تترثر فقط. بعد ذلك. سقط جدار السكون. عندما جلست فتاة على مقعد البيانو. وبدأت بعزف مقطوعة من الموسيقى. فيما دخل رجل مهيب الثياب، ليخترق الصفوف ويجلس على كرسي كان موضوعاً على منصة ليست بالمرتفعة كثيراً.

وبعد إنتهاء الفتاة من العزف. نهض الرجل على طول قامته. فيما زحف الجميع نحوه بالدور، لمصافحته. فيما هو، راح يناول كل شخص من هؤلاء مظروفاً مغلقاً صغيراً.

"أين أنت الآن يا ماوردي. في مدرسة ابتدائية؟ في حفل ماسوني؟ في شبكة تهريب دولية؟ في مصح للأمرض العقلية؟ سنقول: لا أعرف! ولكن لم جاء بك الرملوي إلى هنا، وكأنك أعمى؟ أريد منك أن تكون له شاهداً في يوم من الأيام؟ وعلى ماذا بحق الشيطان؟"

لكز الرملوي الماوردي من خاصرته، وطلب منه التقدم كالأخرين لمصافحة الرجل. ففعل الماوردي ذلك بعد الرملوي مباشرة.

"أهو أنت؟"

تمتم الرجل وهو يشد على يد الماوردي. وعندما شعر الرملوي بأن الكلام سيتدفق كالطوفان من فم الماوردي، غرزه بلكرة أخرى من أجل أن يتحرك دون أخذ أو رد في الكلام.

وكان للرملوي ما أراد. فسرعان ما انسحب الماوردي ليأخذ مكانه الأول في القاعة.

عادت الفتاة ذاتها، لتعزف المقطوعة نفسها.

"يا للرب! نحن في تكنة عسكر؟"

وما أن انتهى اللحن، حتى قامت إحدى النساء بنزع الثوب المطرز بملايين الخيوط الذهبية والفضية ومن كل الألوان عن جسد الرجل المهيب، ليبقى على صدره قميص شفاف.

"بارك الله بك يا رملوي. ها قد بدأت أفهمك جيداً. فأنت لم تأت بصديقك إلى هنا عبثاً. لقد تركتها مفاجأة له في ليلة رأس السنة العظيمة. وها هي حفلة الخلع وقد بدأت أمامك. النساء والرجال معاً. وعندما يأتي الدور عليك، لا تتردد. ضع رأسك بين الروس.. وقل يا قطاع الروس.. والدنيا فرص يا ابن العم. بل، وهل فاز بالذات من كان غير جسور وحنطور وعمرم؟"

- اخلع الجاكيت بسرعة يا ماوردي؟

- وهل لا بد لي من فعل ذلك أيضاً؟

- أجل. ستعرف الآن...

وانطلق الجرس يرسل رنيناً عجائبياً. كان يأتي من مكان وراء القاعة. فتقدم الرجل - رمز الأمة في المنزل - ليحمل في يده صولجاناً وينزل نحو دهليز. فتبعه الآخرون بصمت. حتى صار الجميع في الشارع المظلم هم يشكلون رتلاً.

"اللجنة على أبيك يا رملوي. الميت أبوه ما بيطلع من بيته الآن. هي هاي حفلة الستربتيز التي جنت بي إليها!!!"

- ما هذا الذي يحدث برب السماء؟ صرخ الماوردي عالياً.

لكن الرملوي كان له بالمرصاد. فكّم له فمه، بحيث لم يترك كلماته لتتجاوز شفثيه. ثم الكلمات نفسها تتجمد بين الأسنان.

- سوف لا تأخذ الرحلة إلا ساعة واحدة. طمأنه الرملوي.

لكن الماوردي، لم يعد يثق بالرملوي.

"ابن العرص. يحاول أن يصنع مني فيلماً سوربالياً في ليلة رأس السنة"

فراح ممسكاً بمؤخرة المرأة التي تسير أمامه طلباً للدفيء، كما قال لها بعدما التفتت إليه في المرة الأولى.

"بنت العاهرة.. هي أيضاً سعيدة. لأنني أشد على مؤخرتها فتمتص حرارة يدي. لأبأس. لكل شيء ثمن. ولكن لا تحلم بأن تصل إلى شهوتك وأنت في هذه الكارثة الثلجة. الدب القطبي نفسه، لا يستطيع بلوغ شهوته في مثل هذا الطقس. وفيما لو أصرت الدبة أن يفعل ذلك في ليلة عرسها، لكان قد كفر بالزواج وبصق لها وريقة الطلاق على الأرض، وفرّ إلى هناك.. للنوم في المغارة.

صحيح إنها مؤخرة فاخرة، ولكنها لا تصلح إلا للصيف. أي عندما تكون حرارة المرأة فوق الصفر بعشرين درجة على أقل توقع. وهذا غير كاف أيضاً.. فلا بد من الركض السريع. حيث يكون على المرأة، أن تقطع مساحة ملعب كرة القدم هرولة، ثلاث مرات. الملاعب الرسمية طبعاً، آنذاك. تصوروا. كيف يكون وضع المؤخرة؟ كئيبان من الزبدة التي على وشك السحان.

"لكن هذا الحب لا يتجلى في الغالب إلا تفاهماً بين إحساس حيوانين- هكذا تكلم زارا-"

- ما رأيك بالنيبيذ؟

- سم. مثل الدم الذي يجري في عروقك يا رملوي. أهكذا فعلت! يلعن أبو الساعة العرففتي ببيك. ما علاقتي بهؤلاء المجانين؟

- يجب عليك إعتياد كل شيء في منزل "إعادة المفقودات" هذا!

- المفقودات التاريخية أم الجغرافية أم البشرية..؟!؟

ولم. ومن أجل ماذا. هل فقدت ساعة. خاتماً. كتاباً. يخبأ ليعيدوه إلي. أم أن هؤلاء المجانين لم يجدوا ما يتسلون به غير البؤساء من أمثالي على طريقة ما يفعله السحرة والمشعوذون؟

- كنت في مثل وضعك الآن منذ عامين. امتلىء سخرية. وأختص ضحكاً، مثل صهريرج المازوت المحمول على ظهور العربات التي تجرها الخيول في شوارعنا قديماً. ولكن الأشياء، سرعان ما إنقلبت رأساً على عقب فيما بعد.

- رأسك الذي انقلب. أم الأشياء؟

- ستعرف ذلك فيما بعد يا ماوردي. فثمة موضوعات لا يمكن الحديث عنها الآن.

- وهل تتضمن أسراراً نووية؟

- بل بلداناً تعيش قريباً من غابة نووية!!

-دعني أربط شريط حدائتي وكف عن هذه المسخرة التي تجعل من النفس اشبه بمنجم الفحم.
بعد مغادرة الرجل المهيب أخذ الجميع أماكنهم إلى الطاولات التي أعدت لهم أثناء الرحلة
المشؤومة في الخارج. فبدأت الموسيقى تبت أحياناً مختلفة. فيما كانت هناك فتاتان تقومان بسكب نوع
من الخمر في كؤوس صغيرة. يكاد المرء يلمس أشعتها الرقيقة، تلك التي تعكسها أنوار الشموع
الكبيرة أو نيران الخشب المتوقد في الكوائن الجانبية.

ومع بدء زحف الحرارة في عظام الماوردي، أخذت الأسئلة بالإنشطار في رأسه. هل يمكن
للمرء المتلج، التفكير بشيء. كما فعل أخونا الدب! وها أنت يا ماوردي في منزل "إعادة المفقودات؟!"
"يا للجنة."

كانت أول فكرة قفزت لذهن الماوردي.. أن يضع يده على طرف من تلك الظروف التي وزعها
الرجل المهيب على هؤلاء. لو كان الرملوي يملك واحداً من تلك المظاريف، لهان الأمر عليك يا
ماوردي. تستطيع أن تلتطشها من جيبه وتعيدها إليه بعد القراءة. لكن الرملوي، أستثني من تلك
الهدية؟

"لماذا بحق السماء...؟ هل من أجل أن يضعني هؤلاء في الأفانوس، ورقة يتلاطمها الموج؟"
"وإذا كان الهدف هو التورية والتمويه أمامك يا ماوردي.. فلماذا جيء بك إلى هنا؟ من أجل أن
تتمتع بأسرار هذه الجمعية أو الشركة أو المحفل أو العصابة أو النادي مجاناً؟!"

عندما وضع الماوردي الظرف الذي لطشه من حقيبة إحدى النساء في جيبه، غادر القاعة التي
كانت مشتتة بالرقص والغناء. نحو التواليت. وهناك قام بفض المظروف وقراءته. لكنه لم يستطع أن
يفهم شيئاً مما كان مكتوباً على الورقة: مجرد أرقام، كانها من الشيفرات التي تستخدمها السفارات
ودوائر المخابرات لدى الجيوش. فأقفل عائداً، ليضع الظرف في مكانه، وكأنه لص بارع.

الموردي الذي أطل برأسه على المنفى من بوابة القطب الشمالي، رأى أن المعارضة فاكهة النظام.

- هل لي بسجارة لأهش بها على دماغي في هذا الصباح؟
- تفضل، ولكن -
- ولكن ماذا يا أخا العرب؟
- أن تسأل عن أصلي وفصلي ومن أي البلدان أنا قادم إلى أوربا؟
- صحيح. من أين أنت يا أخا العرب؟
- ألم أقل لك ذلك. ها نحن ندخل خان السياسة!
- وهل محظور عليكم التكلم بالسياسة يا أخ العرب؟
- كلا. ولكن السياسة عندنا، تبدأ بسجارة وتنتهي بخازوق في قبو.
- لم أفهم ماذا تقصد بالخازوق والقبو، وما علاقتهما بالسياسة؟
- أنا مثلك لم أفهم. ولذلك دخلت المنفى من أوسع بواباته لاختصار علوم السياسة وفنون السياسة البقية الباقية من تكنولوجيا الايولوجيات.
- كلا. أنت غير طبيعي يا أخا العرب. هل زرت طبيياً نفسياً؟
- السياسة في بلادنا لا تحتاج لأن تكون طبيعياً. والسياسي هو طبيب نفسي.
- أنت متشائم جداً.
- وأنت جئت على آخر السكائر في العلبة.
- السكائر غير مهمة، المهم هو الإنسان.
- بمعية صحته، أم دونها؟
- هذا سؤال محرج. كيف تخطون السياسة بالصحة بعلبة التبغ؟
- من كثرة الاستعمال يا أخا العرب!
- وهل تستعملون السياسة استعمالاً في بلادكم؟
- نستعملها استعمال المبيدات الحشرية والمنظفات الكيماوية لغسل المخلوق من أوساخه.

- والحمامات.. أليست لديكم الكثير منها؟
- نعم. ولكننا نفضلها للقراءة فقط.
- حقاً أنتم شعوب حضارية متطرفة.
- ولنا سبق في ذلك أيضاً.
- ماذا تعني يا أخا العرب؟
- أعني أن حمورابي مثلاً، كان أول من ارتدى التنورة لدينا.
- تقصد قبل الإنكليز والإسكندنافيين؟
- أجل. وقيل أن يخترعوا الأيس كريم حتى.
- وماذا يعمل حمورابي الآن يا أخا العرب؟
- إنه يسن الشعوب ليس غير.

جاري الدنماركي مثل قطعة الشمع، أحياناً تراه مضيئاً، وأحياناً تجده ذائباً، إلى درجة لا تكاد تتلمس شيئاً من تصارييس وجهه، فتراه في الكثير من الأحيان، مشغولاً بنفسه، وتراه في مرات أخرى، أشبه بالوهيمي الذي لا يكف من التفريط بنفسه داخل مكعب الحياة التي يعيش داخلها.

"كف عن الهذر والشرح أيها الأحمق، فماذا تريد منه أن يفعل لك؟ أن يقف وسط الشارع ويقوم بإبداء التحية العسكرية، كما يفعل ذلك الجنود أمام جنرالاتهم؟ أن يهز لك بطنه، كما تفعل الراقصات الشرقيات؟ تكفيه لعنة الطقس هنا، فكيف ولعنة أخرى أمامه مثلك؟!"

"ولماذا لا تتركني وشأني، دعني أقشط شيئاً من تلك العتمة التي تبتلعني"

في الروح البشرية، فالظلام الذي يغلف الأرض، سرعان ما ينفث، بمجرد خروج الشمس من كهفها البعيد.. فميا الظلام الذي ينزل في الروح البشرية، يتكلس طبقة فوق طبقة، ومن الصعوبة بمكان، تنظيفه من تلك الأعماق"

نحن نعيش عالماً داخل عالم، ونفتش عن مواقفنا، أين؟ هذه الثنائية الإزدواجية، تملي علينا فكرة أن البحث عن طراز جديد من التفكير، لا يخصنا وحدنا، بل هو الآخر بهم العالم الذي نحن على هامشه، كي نتجاوز الهامش إلى النقطة الأبعد: العمق، فحينما يصل المرء إلى هناك، يكون الطرف الأضعف إغتراباً وغربة، قد خرج من مثلث التهميش والتهميش معاً، فيكون بإستطاعته البحث في صياغة العالم المشترك.

- هل سنكفينا سفينة واحدة؟ لا أعتقد ذلك، ولكن لأبأس من توفير واحدة كإحتياط!"
- آه، لو كنت أستطيع، لوضعت على ظهرها وفي عنابرها كل اللاجئين الخطايا، وثم تقبها بصاروخ من نوع "سلكورم" لتغرق في تلك الأعماق السيحة.
- ولكن، من كان منكم بلا خطيئة، فلرجمها بحجر، لذلك فلا تدع الأفكار الإستثنائية والعدوانية، تسلب دماغك، وباسم من تدعو لذلك؟
- باسم العدل، القانون، التاريخ، الجغرافيا.
- لاتقل ذلك، فالذين يضعون القوانين خليط بشري في عالم تقرض الجرذان روحه.
- إذا كان القصد النفايات، فالزمن كفيل بتصريفها، فملوك الخطايا، لا بد أيلون للسقوط.
- كأنك تريد وضع كتاب مقدس جديد.. أسألك: هل قرأ هؤلاء الكتب المقدسة القديمة، ليفعلوا ذلك مع ما تريد وضعه؟
- أنا متفق معك.. فلدى هؤلاء استعداد للتبول على كل الكتب وكل المعارف وكل الفلسفات وكل القوانين..
- هل لأنهم أميون؟
- كلا، الأمية متعة بالنسبة لهؤلاء، وهم يستطيعون إستثمارها من أجل المنافع الشخصية.

- لذلك.. كنت أفكر بالسفينة التي يتم شحننا على ظهرها، وإغراقنا في أعماق نقطة عند البحار العالية!

- وأنت؟

- أنا لم أستثن نفسي من هذه العملية الجميلة، لأنني سأكون في المقدمة!

كانت أفكار النمس، تأخذ منه كل وقته. فهو لا يتوانى عن ترديد جملة "أفقدنا اللاجئين الاقتصاديون والسيئون الاحساس بكل متعة هنا، حتى تكاد البلاد أن تأخذ شكل الزريبة التي لا يمكن حصر أمراضها." وهي أفكار جعلت منه شخصاً منبوذاً بين أفراد جاليته التي لا يتشرف بالإنتماء إليها على حد تعبيره: "ليس شرفاً أن تنتمي لحظيرة حيوانات." ومع الزمن، وتنامي حدة التوترات العالية بينه وبين الأصدقاء والخصوم على حد سواء، عاش النمس منبوذاً ووحيداً.

"كل نفسك بنفسك يا رجل، فذلك أفضل من أن تترك الآخرين يلتهمونك، فتتحول إلى نفاية في مرحاض المنفى القذر."

أما في اللحظات العصبية من تلك العزلة الليلية، فكان النمس ينفجر بالبكاء، لاعتنا القدر الذي بعثر حياته هنا وهناك. ودون نسيان أن يُذكر نفسه بسلسلة العقد والأورام الخبيثة التي تنتزع في دواخله.

"لا أحد يستطيع هضمك، حتى لو تصنعت رقعة شقائق النعمان وإيتسامة الجوكندا وصمت أبو الهول. ستبقى تلذغ وتلذغ.. أفعى ولها ألف رأس ينفث السم، حتى في الجسد الذي هو منك."

لقد كان ما يميز النمس إدعاءاته بمعرفة أسرار المخلوقات دون إستثناء. وهي ميزة سيئة ورخيصة، وضعت في فوهات المدافع، فنال من ورائها ما لم ينله بغل الجبل. وهو يدرك ذلك جيداً، لأنه دفع مختلف الضرائب. ويدفع ثمن إفضاض الناس عنه، وكرهيتهم له.

"أنا أعيش بالفائض من العمر. وكان عليّ أن أنتهي في تلك الحفرة منذ زمن طويل. ليس يفعل المرض العضال وحسب، بل وبسبب السلطات التي كادت أن تطبق على جوزة العنق، لتهرسها في بلاد العلجوم"

وعندما يُسأل عن الكيفية التي نجا بها، كان يقول:

"إنه الحظ والصدف..". دون أن يتوانى عن ذكر المغامرات الخرافية أثناء الحديث عن نفسه.

إن اللسان الذي يخفيه النمس المتطرف في فمه، لا يتمتع بالطول فقط، بل بلونه الأصفر وكثرة الدمامل التي تستقر كالقفايع على سطحه:

"كل فقاعة.. تنفجر زناً عن قصة مختلفة ضد شخص ما. وليس غريباً أن يصنع لك النمس قصة كل دقيقة. وكلها تتعلق بالخيانة والبذاءات والعهر والدناءة. ودائماً.. البطلات من النساء: زوجات الساسة والأدباء والفنانين والشعراء. وبالنتيجة، لا شرف للمرأة عنده. الكل نساء مواخير وحانات وقوادة. فأجملهن داعرة وداهية جنس. وأبشعهن عاهرة زنخة!"

هذا التصوير العدواني الفاضح الذي ينم عن مرض، يشع بالعفونة التي تسكن أعماقه، فالنميس يراهن على تفاهته ليس غير. يطالب بتنظيف الأرض من النفايات، دون أن يقوم بتنظيف داخله من المستنقع الذي بلغ غاية التعفن. مثله مثل "بول الشهري" الذي نال اللجوء السياسي في البلد على أساس معاداته لحاكم ولاية "العلجوم" ليتحول بعدها وجماعة زيتا زمبليطا، إلى داعية للتبشير بوطنية وديمقراطية ذلك الحاكم!

"ألم تشهد له أنت بأنه كان من المعارضين والمضطهدين هناك؟"

كنت غيباً ومغفلاً. فكل واحد من هؤلاء مفاجأة. فالعقيم منهم ينجب هنا. والأمي يصبح علامة وفتية في الصحافة والعلوم السياسية. والديمقراطي إلى مقصلة أتوماتيكية. أجل. فهؤلاء ما زالوا يتمتعون بدور المسمار في حذاء الديكتاتور، وإذا صادف أن مل أحدهم من هذه العادة، يصبح محرراً صدىً في لحوم الغير.

"كل الحق على السيكولوجيا.."

كلا. فالجثث المنحطة هنا، ليست بفعل التأثيرات السيكولوجية وحدها. هناك البيولوجيا والأيدولوجيا والسيوسولوجيا، لذلك من الصعب أن تعيد إنتاج بوبا الأحذية، لتصنع منها دماغاً.

"فطر سام، يخرج من الأرض، دون تدخل من البشر"

ولكن الغيوم التي تقوم بسقايتها، عادة ما تأتي من ولاية "العلاج" على ظهور المخبرين، والسياح الذين نالوا مؤخراً، تأشيرة الصفح الديمقراطي عن المعاصي القديمة! فراحوا يشدون الرحال إلى عاصمة "المعجزات!!"

" لكل شيء نهاية، فمثلما دق رأس نمس المتطرف بالحاء، ووجد جثة متعفنة في التواليت العمومي لأحدى محطات القطار، سينتهي "الشهري" برمبل نفايات في حوض غانيته الإفريقية على الرصيف، قاضياً نحب، دون الحاجة لمثل تلك السفينة التي كان يتحدث عنها النمس قبل عامين.

- كل واحد من هذين، يحتاج لرواية طويلة، كي تعطي كل منهما حقه.. أليس كذلك؟"

- رواية تكتب على جلود الصنادل، لا، الأفضل أن تقول النعل وليست الصنادل.. لأن الأخيرة كلمة موسيقية، فيما تستطيع أن تقلب الكلمة الأولى لنقرأها من الأخير، لتشعر بحقيقة الموقف: لعن"

هؤلاء هم الأبطال الوحيدون الذين لا يستحقون أن تفعل من سجلات أمجادهم حبكة فنية، فاللافني، لا يستحق لعبة الفن، دعهم يموتون، أو يتساقطون من على أي خط في الرواية، فدون هؤلاء، لا يمكن للسقوط أن ينتج معناه الحقيقي، فالبئر، الحفرة، الهاوية، كذبة أو وهم لولا رنين سقوط الحجر أو إرتطام الجثة في أعماقها، أقصد الرنين الأعمى للموت.

"مصيبة، أن يمرضك أبطال الرواية بهذا الشكل!!"

نظر الماوردي إلى ساعته، فقرأ فيها زمناً، كأنه نشارة خشب متطايرة نحو آفاق ليست قريبة، فلم يساوره الشك، بأن الحياة التي يعيشها، قد أصبحت تافهة، وربما لاتطاق، فمن الصعوبة بمكان، أن يتحول العالم إلى سرير، والمرء إلى مريض بالروتين، تظل قامته الأعطية، فتلك علامة سيئة لا تبيشر إلا بالتعفن، تعفن الجسد داخل الجسد، وتعفن العيون بفعل التلفزيون الذي اختاره الماوردي، كأن يكون صديقه الوحيد هنا.

"هذا الصديق، لن يتعبك كثيراً، صحيح إنه سيأكل منك كضفدعتين صغيرتين، ولكنك قادر على أن توقف هذره وهذيانه في الوقت الذي تشاء: إسكت يا ابن الكلب، فيخرس دون جدال أو نقاش، وكذلك، فهو لا يزعل، فالتلفزيون ملخص لكيانات تحاول أن تحظى باهتمامك"

"أنت تريد ضحية سهلة، ودون دماء، أليس كذلك؟"

"عندما تتواجه ضحيتان، تخرج من بينهما ضحية ثالثة."

"إنها نزع السلطة. تثب أنغامها على الجسد."

"طبعاً. ولكنها ليست كذلك السلطة التي تجعل من الجلود الأدمية طبولاً وصنادل"

"وهل تعتقد بأن ثمة سلطة لإنتاج الحرير؟"

أقصد هل هناك سلطة، لغمر أراضي الجسد بالمياه. أي أن تكون مختصة لقمع التصحر، أو لنقل الحيلولة دون زحفه إلى أخطر الأماكن حساسية في الرأس. لا أدري. لكن، ومع ذلك، فإن أغلب مشاريع تحصين الدماغ من الرمل، تبوء بالفشل في شرقنا. ربما لنفاذ الصبر الذي لم يعد له مكان في النفس، أو بفعل الآمال التي سقطت من على ظهورها الأجنحة، لتصبح عبئاً على نفسها والشجرة التي تتعلق بها. شجرة، هي الأخرى هرمة كذلك الآمال. وليس بمقدورها أن تفعل شيئاً سوى الإستسلام لمنشأ كهربائي عظيم، ليطيح بمجدها القديم، كالجثة، وللأبد.

كل شيء يتحول إلى نفاية ملتهبة في بلاد العجوم والمنفى: فالمدن تذبل وتشيب أيضاً. وقد أصبح لدينا الكثير من المدن المتوفاة. فهي إن لم تكن ميتة على الطبيعة، تجدها كالطلل على الخرائط. متوفاة سياسياً على الأقل. مدن سوداء ومدن بيضاء!! قد تموت مدن كثيرة.. إلا أن الأرض، ستبقى تتنفس. مثلما أظن بالبعض من البشر الذين يتنفسون داخل قبورهم؟ أجل. البعض فقط. وهل يشاهدون كذلك؟

عندما تضيف السلطات ظلامها لظلام الطبيعة، سيكون من الصعب على المرء تلمس أنفه. لأن الظلام الحكومي، سرعان ما يكلس العيون وهي في كهوفها.

قبل سنوات.. كان الخراب أرحم. والقتل أخف وطأة. والسجون أكثر رفاهية: أحواض التنزياب، وتذوب فيها العظام ومعادن الروح. والحروب الصغيرة: مسدسات كاتمة للصوت لنطريز الجسد بزخارف الحكم. والحريات أقل كلفة من حرية الوطن. أما بعد أن مدت الحروب الكبيرة أعناقها إلى خارج الحدود.. أصبح كل شيء في نهايته. فالوطن، وأنت تراه مثل برج "ببزا" تثير قامته المائلة الهلع في النفوس. والناس تنتظر الساعة التي يرتطم بها كالجثة العملاقة.

-أست أنت الذي قلت منذ عشرين عاماً:

"لنقف قليلاً يا صديقي ونتساءل:

لم تشيد كل هذه بنايات،،

بينما الإنسان يتهدم

تحت السلاسل التي لا تقود إلا للنشأوم والإنتحار؟"

-أنا قلت ذلك منذ عشرين عاماً، وضبط الفيلم. فما بالك بسبعة آلاف سنة من التاريخ، يتسلبت عليها حاكم وغلماؤه، لتحويل الحضارة إلى علف تجتره البهائم وعرفاء الجيش والبلطجية؟

-ليس ظلاماً. بل هو التنكيل. الشطب الهندسي البشع لذاكرة البلد، وضمن منتاليات سريعة، وصلت في نهايتها إلى معادلة: رأس واحد مقابل رؤوس ملايين من المخلوقات البشرية؟؟!

-اللعنة؟ على التاريخ والجغرافية والحضارة التي لا تكفي لمسح فضلات مؤخرة الحاكم!

-أية لعنة.. بحق السماء!!

-نحن منتوج اللعنة. هكذا يقول البعض.

-يا للهول!!

ها أنت.. وقد أصبحت بقرحتين يا ماوردي. كانت الأولى في مكانها الطبيعي، وها هي الثانية، تشتعل وتخدم في الرأس كالبركان. وما زلت تراهن على أولئك الذين تُزين المقاصل أعناقهم، كما لو كنت تستنهض تلك الأرقام المُخدرة في مربعات أوراق اللوتو الأسبوعية، لتريح جائزة اليانصيب الكبرى.

كم من العمر ضيعت في زقاق وشوارع وملاجئ المراهقات؟ والآن.. ماذا لديك لتفعل بالشلل الذي بدأ يرمي بشبكه في مناطقك المختلفة بالتتابع؟

"لم تخسر شيئاً.. أكثر مما فقدت. والأنهار الميتة، سيأتيها فيضان، ليعث الروح فيها من جديد. ولكن ليس أكثر من ربع قرن. فالطوفان لم يأت. مثلما فعل ذلك غودو. علماً بأن الغرق تحت رمال الإنتظار، بات على أشده، وهو أكثر هولاً وهلاكاً بالناس من الطوفان المنتظر."

إلى متى يا ماوردي.. كلما رأيت خنزيراً من هؤلاء، سرعان ما تحس بأنك تملك قرحة لا جسداً. قرحة نثور من الرأس وحتى أخمص قدميك. فتجعل منك عصفاً مأكولاً؟

لم تترك التشاؤم يقودك بعصاه الغليظة.. وأنت الأفرنجي المنتظر؟

أليس غداً هو ما تنتظر. حيث ستال مع كل الأجانب الجنسية الجديدة يا عم، لتصبح من السكان الأصليين لبلاد جلاله الملكة مارغيتا!

"سنبقى أجنبياً، حتى وإن حصلت على مائة جنسية من بلاد الفرنجة. سينظر إليك الآخرون وهم يشيرون عليك: ذلك هو الغريب الذي تعفن في المنفى."

آنذاك.. ستشوق الرماد الذي أنت فيه لتصرخ في الشارع: يا نخلة من نخيل العلجوم.

تعبر أيها الأنت

من كلية الظلام الواضح، إلى كلية الفضاء، وما بين الليل والنهار كلية
مُسودات العقل.

-ها أنت في النهار الفران!

-ها أنت في الليل، تبني تحت حساسيته مخاوفك العالية.

لم أتذكر شيئاً. غير أنني عبارة صامتة في نهاية الخطاب التدميري.

"الوطن الناقص، بلد مواطنين خدجاً. وهؤلاء، سيستمرون بتنفس الهواء
الناقص إلى ما لا نهاية. وباستعمال الحرية الناقصة. وبملامسة الحبّ الناقص.
وبالتعامل مع الثقافة والحقوق الناقصة" كيف نمحو فكرة المعسكر في الذهن، ونطرد
مرض العسكر من الدم؟

-نم حالماً!

-ولكن ليس دون امرأة. أليس كذلك؟

لم يكن ذلك بالسبق الصحفي. بقدر ما كان أشبه باللعنة التي بصقت نيرانها على الوجوه. فالرجل الأمريكي الجنوبي الذي فرز الأيذز في دماء الدانماركيات اللاتي تجاوز عددهن العشرين فتاة، كان على معرفة تامة بما يفعله. فقد تناولت الصحافة القضية من باب الفضائح ليس غير، ذلك لأنها لم تتطرق إلى أسباب القضية. ولم تنشر إلى موضوع الإباحية الجنسية ومخاطر الشذوذ وفقدان الغالبية من النساء لحصانة الجسد. بل كانت دوافعها تسير في طريق آخر: زيادة المبيعات، وتقديم الطازج من الفضائح للقارئ الذي تمسك بعنقه. وتقدم له يومياً، ماذا يفكر ويشرب ويدخن ويقرأ ويأكل ويتبضع، وربما كيف ينام ويحلم في فراشه حتى.

إذن. كيف يمكن للماوردي أن يجري حواراً مع شخص من طراز فيدلوس؟ فيدلوس الذي فعلها ببرودة أعصاب. وبسوء نية:

"لن أدع روحي تخرج من جسدي لوحدي. سأدفعهن لهذا المصير كذلك!"

ولم تفعل يا فيدلوس ذلك. ألم تتمتع بأجساد النساء وتقبض ثمن ذلك؟

"ولم تريد مني الوقوف في قفص المحكمة وحيداً؟ أليس من الأفضل أن تستدعي النساء إلى هذا المكان، وتقوم بجرد الأفكار والرغبات المشتركة في معادلة الموت الذي يشملنا بعد رحلة اللذائذ التي إنتهت بنا في المستشفى؟"

أنت حاولت الإنتقام يا فيدلوس. ولا مكان لمنتمقم إلا في نقطة العدم.

"ولماذا لاتقول العكس.. بأنني ضحية لإغتصابهن؟"

وهل تعرضت لذلك فعلاً؟

"كنت أبيع قوتي الجنسية في السوق السوداء، هرباً من الضريبة. كأية عاهرة في سوق العمل. وهناك الكثير من الرجال يفعلون ذلك في البلد. فنحن نترك للنساء العجائز حربة اغتصابنا بالعملة! ماذا يمكن أن تطلق على ذلك؟"

بسبب المال فقط يا فيدلوس. أم للمتعة أيضاً؟

"عندما نردم العقل بالمخدرات، ونرمي بالمفتاح إلى العتمة، فمن الصعب أن تعرف للحاف من غيره آنذاك."

لقد حاول هذا الرجل القادم من الجنوب الأمريكي، الإستسلام للحلم الأوروبي على دفعات. إلا أنه سرعان ما وجد نفسه في الأوقيانوس المتلاطم لمدينة مثل كوبنهاغن، وهي تغص بالبارات والديسكوات والمقاهي ونوادي الليل والمساح وعالم الرغبات الكبير. فلم يستطع مقاومة مغريات العاصمة. تلك التي سحبت من دمه نحو مواقع لم يكن لها من شيء في ذاكرته، سواء في الطفولة أو الصبا.

وها هو يلفظ أنفاسه في هذه العاصمة.

"لن يقرأ المارة غير تلك الكلمة الوحيدة على شاهدة قبرك يا فيدلوس: مات الجرذ الأجنبي في المبعي الأوروبي."

أجل. وماذا تريد أن يكتب هؤلاء على غلاف القبر. تاريخ رحلة كولومبوس أم فتوحات نابليون؟

"لن تصيدك إلا الفخاخ المستعملة للفئران، لأنك غريب، ولا تستحق أكثر من ذلك يا فيدلوس العاهر."

لنكتب عن بطولاتك كل الصحف وكل المجالات. ومن يدري. ربما سيقومون لك تمثالاً في هذي البلاد. بعدما عجزت في تلك البلاد عن تأمين ثمن الطابع الحكومي الذي يوضع على جواز الهجرة. وها أنت هاجرت للموت هنا.

"أست بالفخور حتى بمرضك يا فيدلوس؟"

إذن. مت بالأيدز بين فخذي امرأة، خير من الموت جوعاً في بلدان الإشتراكية هناك. فالموت ليس واحداً، كما يقول فلاسفة الطين. و الإستشهاد على سرير الحب، ليس مثل الموت أمام طولة التحقيق."

"كل ما فعلته يا فيدلوس كان قذراً، اللعنة على سلالتك. ما كان عليك أن تفعل ذلك. ما فعلته لا يسمى انتقاماً، بل مجموعة من الجنايات الوضيعة، فمتلما وافقت أنت على دخول عالم الوضاعة والوسخ والعفونة والإنحلال، عليك أن توافق على المصير الذي آلت إليه الأمور في حياتك الوضيعة. أما أن تسرق الحياة من الآخرين، فتلك ليست بالدعابة، أجل، الموت ليس دعابة يا ابن العاهرة، لقد نمت مع نساء كثيرات، وكنت مبهتجاً وسعيداً ومأخوذ التلابيب من شدة وقع الجنس في أعماقك.

ألم تقل في أيامك الأولى: "النساء قبل الطعام"

فلماذا فعلت بهن ذلك؟ من أجل أن يصبحن فاسدات كاطعام في علب الصفيح الملوثة؟"

خدم فيدلوس في مقعده، وهو يتأمل الممرضة التي أمامه.

"يا لها من مؤخرة، تصلح قبراً لنهائيتك، أو إن جدران لحمها، تستطيع احتواء كل نصوص أولئك الذين كتبوا وماتوا، وهم يرتلون العبارات الثورية في تلك الأراضي البعيدة، وماذا كتب أولئك غير كلمات تفوح منها رائحة أشد فتكاً بالدماغ من الأيدز، هل حرروا الإنسان من ألغامه التي تستبد به على حين غرة؟"

لا شيء.. كل الكذب لكل الناس، والعكس صحيح أيضاً، يا فيدلوس.

فجأة.. أمسك فيدلوس بيد الممرضة، وهو ينظر إلى حياته التافهة التي تستقر داخل الأبرة - علاجه اليومي - الجاهزة للحقن في جسده، وقال لها:

"هذا الجسد، لم يعد يرغب تمرير سوائل الأوهام، دعيه يكمل ذبوله النهائي بطريقة أخرى"

نظرت إليه بحنو زائد، وحاولت أن تحبس الدمع في عينيها

"في الكثير من الأوقات، يصبح المرضى من مستلزمات حياتنا، ربما بفعل الإلفة والعمل والصدقة، أو ربما لأننا نشعر بمسؤوليتنا الأخلاقية المحرجة، عندما يفلت منا هؤلاء، دون أن نتتمكن من إعادة الحياة إليهم."

قالت الممرضة ذلك في نفسها، وهي تشد على يد فيدلوس لبث شيء ما من الشجاعة في نفسه، ليقاوم.. لكن الأخير، سرعان ما أطلق يدها في الهواء، وهرع باتجاه النافذة، ليخترق زجاجها بجسده من الطابق العاشر، فيما تسمرت الممرضة في مكانها كالتمثال، وهي تمسك الأبرة عالياً بيدها اليمنى وتصرخ:

“لقد طار فيدلوس، خرج من زنزانته وطار”

فيما كانت عيون المرضى الآخرين، كشاشات التلفزيون بيضاء بيضاء، وكأن بث الإرسال قد انقطع عنها!

كان على برهان النهوض ميكراً في مثل هذا اليوم من الأسبوع: الاثنين، لم يكن ذلك من أجل مزاوله العمل، بل من أجل دفع الفواتير والضرائب وأيداع الرسائل في صناديق البريد، فرجل الأعمال، ليس وحده من يفعل هذا في البلد، بل الجميع يمارس هذه المهنة، بما في ذلك العاطلون عن الشغل، ويبدو أن البطالة صنعة ترافق الغريب إلى نهاية المطاف هنا، كأن القادم من الخارج، لا يستطيع أن يتقن شيئاً غير البطالة، فيمجرد أن تتقدم بطلب إلى شركة أو مصنع أو مرفق ما من مرافق الخدمات، ويكشف عن هويتك كأجنبي، من الصورة أو الصوت، سرعان ما يأتيك الإعتذار كقطار أعمى ليصدمك بالرفض، حتى أخذ الكثير من الأجانب بتغليب فكرة تغيير أسمائهم التي يحملونها إلى أسماء دانماركية، بهدف الدخول إلى العقلية السائدة في سوق العمل لتوفير فرصة ما من الحظ ضد هذا التمييز العنصري لدى الشركات ومراكز العمل، أو لمواجهة الرفض بالتحايل، ولكن، كثيراً ما تبوء هذه الألاعيب بالفشل أيضاً.

-سببى اسمك برهاناً، حتى لو مسحته من كل الوثائق والسجلات ووضت مكانه هنسين أو ينسن أو أي اسم دانماركي عريق.

-هل من سوء المصادف إنك ولدت هناك؟

-إن المرء لا يحتمل تغييراً آخر في جنسيته الداخلية، اللهم إلا إذا كان من نسل الرمل، ليولد في كل مكان.

-أوف، اللعنة على الولادات التي تخرج من الأرحام المحطومة كالفناديل.

-كن طفلاً، وإذا لم تتمكن من ذلك ارسمه على الورق، وتطلع إلى ألوان الطفولة بشغف.

-من، أنا؟ الطفولة تخرج من الأرض مرة واحدة، إنها لا تزرع أبداً.

"أليس من الأفضل أن تفكر في الصباح عن شيء آخر غير العمل؟"

هكذا إخترق صوت الزوجة رأسه بغتة، وهي تقف أمامه، فتغضن وجهه وبعض قطرات من العرق تسيل عليه.

ودون شعور منه، واحت يدها تتحسسان بطنها الحبلى.

وهذا، أليس من نتاج العمل؟

إذن، لا تشكو من البطالة مرة أخرى، ولديك شغل من هذا النوع.

قاطعها وهو يقول:

"ربما موهبة الأجانب الوحيدة في هذه البلاد: الإنجاب! أليس كذلك؟"

-ولكن علينا مراقبة أطفالنا الخمسة بانتظام، وتوخي الحذر من مغبة تكرار ما حدث للطفلة "روجان اسماعيل" في النوربوت.

-لا تعيدي تكرار قصة الجريمة القذرة على مسامعي، فلن أفلح بكبح جماع التوتر الذي ينتاب أعصابي، لقد كان فعلاً جنونياً أذهل الجميع باستثناء الصحافة التي أغلقت عيونها الإضافية،

وتطلعت للجريمة المروعة بلمح البصر، كان إغتصاب طفلة في السابعة من العمر، وتحولها إلى جثة مقطعة الأوصال في كيس للنفايات، ما نشيت لا يجلب الحلال للصحافة الدانماركية التي أعلنت عن الجريمة من باب رفع العتب.

أليس هذا ما حدث؟

-نعم، فكل قاتل يبقى طليقاً، يبقى شبحة يلقي بظلاله على العائلات.

-لم حدث ذلك بحق الرب؟ هل من أجل ترويع الأجانب ودفعهم للرحيل، أم كان الدافع من وراء قتل الطفلة هو الخلل العقلي؟ وإذا كان الجنون هو الحافز، فمن المسؤول عن إطلاق هذه النماذج حرة داخل المجتمع؟ بل ومن يستطيع منع وتكرار مثل هذه الجرائم بحق سكان البلد بين الفينة والأخرى؟

-أنت تسألين.. أم تحققين معي؟

-أنا قلقة على حياة الأطفال الذين أخرجناهم إلى الدنيا، دون أن نفكر جدياً بالمستقبل الذي ينتظرهم في طواحين عالم اليوم!

قد نقول لي: هذه مبالغات وتهويل للأوهام التي تستقر في داخلي، ولكن، ألا توحى الأمور بمثل الذي في ذهني؟

-أنت تجعلين من جسدي قماشة ترتجف، وليس من عادتي التجرؤ على دخول غرفة المستقبل المغلقة.

-طبعاً، أنت غارق في عالمك الخاص، دون أن تكلف نفسك عناء الإقتراب من مناطق الزلازل، نتركني وحيدة، دون أن تنتظر إلى القيعان التي تبتلعني حتى.

وهل حدث وإن إبتلعك الزلازل قديماً؟ ألسنت أنت أمامي الآن، أم أنت امرأة أخرى؟

-كما عهدتك منذ الزمن البعيد.. مثل "أبو الهول" يمسح العواصف بجلده دون أن يتحرك من مقامه!

-لا أظن.

-لا تظن بماذا؟

-بأن "أبو الهول" كان متزوجاً وله شلة أطفال، فلو كان كذلك، لما كنا وجدناه صامداً في مكانه هكذا!

-ولماذا لا تظن بأن النساء قد فعلن به ما يستحقه؟ أن يتحول إلى حجر بين الرمال!

-قد يكون ذلك صحيحاً، فالنساء يفضن بالعقوبات.

لم ترغب الزوجة بادارة معاركها من أجل الأطفال، بالكلمات وحدها، فتوفير الحماية لهؤلاء، تتطلب جهوداً مكثفة من الجميع، "هؤلاء أطفال لا فئران" ولذلك لا يمكن اعتبار قضية كهذه موضوعاً هامشياً في عالم اليوم، فقد ينكسر الطفل مثل أنية الكريستال وينتهي معه الحلم آنذاك، يصبح البكاء أو الندم من وسائل تعزية النفس الرخيصة.

"أنا مع هذا الرأي، ولكن لا أعتقد بأن كل أب صالح لقيادة هذه الخلوقات الصغيرة في فصل الطفولة الطويل، فكيف بالذي تطايرت طفولته كالوريقة الملونة عالياً، لتضيع فوق الغيوم؟ هناك

أناس لا يريدون الإنفكاك عن طفولتهم حتى آخر العمر، وعندما تصرخ بأحدهم، أن يكف عن إرتكاب بعض الحماقات، لأنه بات رجلاً، سرعان ما يرد عليك ساخطاً:

“دعني أتمتع بطفولتي! هنا تختلط الطفولة بكل الأشياء، أراهير بين رحي ثقافتين، عالمين، نقيضين، الشارع يربي، المدرسة تربي، البيت يربي، التلفزيون تربي، الصداقة يربي، الجار يربي، المخيلة تربي، المرأة تربي، فأين تقف أنت من عملية المزج الكبيرة، لنتنج طفلاً على القياسات النموذجية منيعاً ضد الإختراقات كسور الصين، وذكياً مثقفاً كالكمبيوتر، وحساساً كزهرة عباد الشمس، ونقياً شفافاً كالنبيع، ونبيلاً كريماً كفارس من الفرسان، وحصراً غير قابل للتذويب والتهميش والطنن، كيف نصنع عالماً بريئاً، نحن ذوي الطفولات التي إنقضت عليها كل المخالب دفعة واحدة، وعات الفساد بها، لبتركها جثثاً متفسخة من الأمراض والدناءات والعنف والنزعات التي لا تصلح لغير الدفن في الأعماق السحيقة؟ ترى.. كيف يتحدث المرء عن الطفولة بكل هذه التعنيف والتوبيخ؟ هل لأننا لم نكن أطفالاً ذات يوم، لكوننا خرجنا من بطون أمهاتنا شيوخاً تفيض بروح الصحراء، القسوة والعنف والجد والصراع مع الطبيعة وقراءة ما تفرزه من منتوجات.”

هزت رجاء رأسها، وهي تنقب في وجه بعلها المحتقن، كأنها تحاول التخفيف من وطأة الأفكار التي إبتأته فجأة في مثل هذه الصباح الباكر، فهي تترك ومنذ زمن بعيد بأن الحياة في المنفى لعنة لايمكن إحتمالها، ولكن أن تفعل شيئاً لمواجهة ذلك.. فهذا ما لا قدرة لها عليه هنا، هكذا تعتقد.

أما البعل المحترم، فهو يعرف في دواخله، إنه لا يستطيع غرس رجاء في هذه الأرض، هناك رفض داخلي شددس ولذلك فالكثير من المخلوقات، مثلها مثل الكثير من النباتات التي ترفض النمو في غير الأمكنة التي كانت تعيش فيها، أو أنها تنغرس بعض الشيء، لكن ليس بجذور طويلة تضرب في أعماق التربة، حيث تبقى على الدوام عرضة للتلف والذبول، وهذا لا يتعلق بأسباب الطقس والفروقات الجغرافية وحسب، بل بفعل العادة، ففي النساء الكثير من صفات التي يتمتع بها النباتات على سطح الأرض الواسعة.

“حاولي أن تجدي لنفسك الأرض المناسبة هنا، قليلاً من الصداقات لكسر العزلة التي لا ترحم، وكثيراً من الصبر لتحمل افرازات عالم الغريبة والتغريب والإغتراب، إنك إذا لم تفعلي ذلك، ستصبحين امرأة من حجر، أجل، ستتحول قامتك إلى تمثال تعوي حوله الريح، وتغطيه الثلوج.”

في الشارع، وجدت رجاء نفسها تتنفس بعمق، أحست بأن الجنين يخنتق في أعماقها، لم تكن تحس بذلك فيما مضى، أما اليوم، فقد نهضت من سريرها مبكرة، خلافاً للعادة، جلست عند النافذة، وأطلقت لنفسها الحرية بالتفكير، التفكير بكل شيء: العائلة، الأطفال، المستقبل، العواء الداخلي، الأحلام، الحمل، الأهل الذين وراء الحدود والبحار، التاريخ القديم للطفولة، مدرستها الابتدائية، صديقاتها، الحب الأول في حياتها، أجل، كل ذلك تدفق في أعماقها، وكأن أرشيفاً ضخماً، وقع من رأسها على الأرض، فبدأت بالتهام صفحاته كالبقرة النهمة.

-كوني قوية وتنفسي بعمق يا رجاء، فستصل سياراة الاسعاف حالاً.

-لم أعد أقوى على فعل شيء، يا رب، أكاد أموت إختناقاً.

-لا داعي للتفكير بالأشياء السيئة.

-أمي، أين أمي؟ أريد أمي، أبي، أخوتي، أين كل هؤلاء؟

-سيكون كل شيء على ما يرام. دقائق فقط.

عندما سقطت الزوجة كالسعة بين يديه بلا حراك، كان يسمع زمر سيارة الاسعاف دون أن يراها، فتخيلها أنها لن تصل، إلا بعد أن تلف السيارة المحيط أو الكرة الأرضية، ولكنهما وصلا المستشفى الذي لم يبعد عن مكان إقامتهم غير عشر دقائق، وكانت الدقائق تلك، بطول قرون من الزمن.

“هكذا يشعر المرء، عندما يضايقه الموت على حين غرة، يحس بتجمد الزمن كما لو أنه كتلة هائلة من الاسفنج الثقيل”

“ يا للرب، أية كارثة حلت بالمرأة بهذا الشكل الفوري المفاجيء؟”

لم تكن رجاء لتشكو من شيء، لا من مرض عضال أو سواه، فكل ما تعرضت له بالأمس، ليس غير لكمة جاءت في بطنها من شاب طائش أو عنصري عابر في الشارع.

هل هو مرض الحنين إلى تلك الأرض البعيدة التي انتزعت منها عنوة، أجل، فهناك نوع من البشر، لا يتمكنون من مقاومة العواصف التي تشدهم إلى ارثهم القديم على الدوام، هذا النموذج من المخلوقات، مثل سمك السلمون الذي يقطع آلاف الأميال في رحلة العودة بالاتجاه المعاكس لمجاري الأنهر، فقد يصل إلى موطنه الأصلي أو ينتحر في محاولات العودة، فالحياة في بعض صورها المدهشة، ربما تغطي خلايا المخلوق البشري بالنيران، وهناك الكثير من الوقائع التي تنتقل من الخارج إلى الداخل، لتتبدد كالرماح في الأعماق السحيقة، ليتم إعادة إنتاجها فيما بعد.

وأنت السبب يا ابن اللعنة، ألم تكن تعرف بأن النساء مثل الآثاث، يتخلل من كثرة النقل والترحال؟

أجل، أيم الخطوبة والحب، تقول لك المرأة: سأذهب معك إلى الجحيم فيما لو قررت دخول ذلك - تصور أن يقرر المرء اختيار الجحيم كمقر ومستقر له- ثم يكتمل الزواج.. فتبدأ بعده مياه الأسئلة بالطوفان، وكلها أسئلة تحركها موسيقى الحنين للبحث عن أقصر الطرق المؤدية إلى مساقط الرؤوس.

“هل تتذكر كونتاكتي في الجذور؟”

سأل برهان الماودري، بعد أن تعرف عليه في غرفة التدخين الخاصة بالمرضى والزوار التابعة للمستشفى، حيث كان يجلس الأخير هناك وذراعه مجبرة بالجبيين.

- ولكننا ليس كذلك النموذج، لنا بلدان نعرفها، ونرى جذورنا وهي تتقطع عنوة، والشيء الأفظع من ذلك، إننا غالباً ما كنا نساهم بأعمال التقطيع تلك.

- كناغر، تحمل بلدانها في جيوبها وتتحب من هول التعب ومن شدة التذكر، أليس هذا ما تحاول قوله؟ أجاب برهان.

لأعرف، ولكنني ما زلت أشعر بأن أراضينا الداخلية، وقد توحدنا في طبقة واحدة ما تزال تتحكم ببرودة وحرارة أحلامنا التي نحملها، طبقة، يصعب على الجيولوجيين فهم مكوناتها من الفلزات والأسمدة والطين المجدولة منها أجسادنا.

“إخرج من بئر الهذر هذا يا برهان، وتابع مشهد الزوجة في غرفة العناية والإنعاش”

“وما تراه سيصنع؟ إذا كانت الأجساد مثلها مثل الأراضي، تنتفتت، عندما يبدأ الزلزال بقراءتها” قالها الماوردي وهو يبخلق في وجه برهان الذي تتطاير منه النيران.

ثلاث ساعات من الوقت مضت، وما تزال الزوجة داخل تلك الغرفة المليئة بالأجهزة والمعدات الطبية الهائلة، فيما هو يجالس الماوردي الذي إلتقاء مصادفة في هذا المكان، ويثرثر.

- لا تأكل نفسك بسرعة، فالذين يفعلون ذلك يفقدون معنى الإنتظار، على الرغم من أن الإنتظار ظرف إذلال المخلوقات البشرية الحساسة . يا للهول! قال الماوردي تلك الجملة. وهو يحاول التخفيف عن برهان بطريقة مضطربة. " سيخبرني هؤلاء الأطباء، بأن كل شيء قد انتهى. الجنين والمرأة والعالم. عندها، سأندب الحظ العاثر قات الذي قذف بنا هنا، دون أن نتمكن من التحرر منه إلا بالموت، أجل الموت، أليس هو الذي يحررنا من كل هم وحزن وتفاهة، ظننت هذا منذ زمن بعيد، لكن الأمور سارت بإتجاه آخر: تجرع العذابات على دفعات، وربما ما يزال الوقت مكرراً على ذلك، وكما يبدو، فإن لكل مرحلة من الموت تقاليد خاصة، أنا برهان الجحش الذي يكتب لنفسه أسوأ الخيارات: غورباتشوف هدم الإتحاد السوفيتي، وبرهان هدم العائلة!! ما الفرق بين الاثنين برب الكعبة؟

لم يستطع الأطباء إقناذ الجنين، على الرغم من كل ما فعلوه، فكانت العملية القيصرية، بمثابة إقناذ لحياة الأم، ويبدو أن اللكمة التي صعقت بطنها من قبل ذلك الشاب المنطلق على دراجته في الشارع، الليلة البارحة، لكمة قاضية هرسست رأس الجنين وهو في شهره السادس.

“وهؤلاء لا ينجبون، ولا يريدون لأحد أن يقترب من الإنجاب”

“كلا، لا تبالغ، ليس الموضوع بهذا الشكل، فالطفل بمنزلة الملاك في هذه البلاد”

“ولكن ليس الطفل الأجنبي! لقد أدخلوا الأطفال في حلبة الصراع العرقي الديني السياسي الثقافي، وما هو الجنين يردي قتيلاً في رحم أمه، فهل في هذا حضارة أو أخلاق؟ أم لا مكان لأن يخرس الغرباء بذورهم في الغرب؟”

“ولماذا لا تعتقد بأن الجنين رفض النزول إلى الأرض الملوثة بيئياً وعنصرياً؟ ربما كان يملك درجة عالية من الوعي، كي لا يشارك الناس في مواجهات مستقبل الإغتراب!”

أجابه الماوردي وهو يتطلع نحو الممرضة.

هذه الليلة، هي الأولى يا برهان، دع النعاس يتحجر في عينيك، وإقترب من نفسك أكثر، لقد وضعتك في قلب الدريئة الآن، أجل، في ميدان المواجهة التي طالما هربت منها خلال السنوات الماضية، كنت تقول لنفسك: نحن لم نعط فكرة واضحة عن أوضاعنا، ثقافتنا، تراثنا، مجتمعاتنا، تاريخنا، واليوم تتلقى الطعنة، لتتزف نسلك هكذا، مجاناً، وبهذه الطريقة التي تخلو من المواجهة العلنية والشجاعة، كنت تتمنى أن تبارز واحداً من هؤلاء بالسيف والترس، أجل على طريقة الفرسان، ولكن هذا لم يحصل، فكل الذي حدث، أن تتلقى زوجتك طعنة خاطفة من شبح، سرعان ما يختفي أثره من العالم، مجهول، مخنث، أرعن، أزعر، مجنون، أليس هذا ما يكتب في محاضر الشرطة!؟

نحن نتحمل الضرب والشتائم يا عم، ولكن الأطفال شيء مختلف آخر، إذا لم توفر لهم الحماية يزدرونك، لذلك فأنت مضطر لأن تتناضل من أجلهم على الدوام، ومثلما يدافع البشر عن قططهم وكلابهم ومنازلهم وسياراتهم، تدافع أنت عن أطفالك.

نعم، أليس لديهم كلاب تسد فراغهم لخلو الحياة من الأُنس، ونحترم حقهم بذلك؟ فلنقل بأن الأطفال كلابنا! هل ثمة شيء رديء في هكذا افتراض؟ قال الماوردي.

ولكن.. ماذا لو شعرت بالعجز، هل تضرب رأسك بالحائط حتى ينفجر دماغك إلى ملايين الفتافيت؟

لن ننتحر بالطبع، إذا كان بإمكانك سحق الحشرات العنصرية التي تسببت في قتل جنين زوجتك، لكن ما بالك بالأجنبي الذي يكسر ذراع الأجنبي في هذه البلاد؟ ألا يلتقي هؤلاء في قاع مستنقع نتن واحد؟

إن العنصرية لا تملك وجهاً محدداً، فكل الفاسدين يلعبون لعبة قنزة وإن اختلفت الرقع التي يديرون عليها ألعابهم، ربما أنا في حالة بلفها الغموض، فما حدث لذراعي لا يشكل اعتداءً على الجسد، بقدر ما هو عملية لضرب ذاكرة العين التي تسجل هذا الكم الهائل من العنف والجنون والتجاوز للقوانين الذاتية وسواها، فرغبة أن تصاب العدسة بالعمى، هو الأمر المطلوب، فهؤلاء، يحاولون تحرير العنف من الأغلال التي تضعها المجتمعات بيده.

عندما تلمست الزوجة بطنها الفارغ في صباح اليوم التالي بعد إنتهاء البنج، شعرت بأن يديها كقضيبين من النار، فرفعت رأسها من على المخدة قليلاً، لتستطلع الأمر بعينها، ولم تستطع، ربما لأنها لا تريد أن تصدق ما حدث لها، لذلك تحولت عيناها إلى بحيرتين من الماء الحار، ماء التيزاب بالضبط، ولكي لا تدع نفسها ضحية للشك، نهضت بكامل قامتها وهي تصرخ: ابني، ابني، وما هي إلا لحظات حتى غابت رجاء تحت تأثير حقنة من المخدر مرة أخرى، حيث إمتلأت عيون الممرضات بالدموع، فيما أقفل الدكتور عانداً إلى غرفته وهو يتطاير سخطاً من هذا العمل القذر.

هكذا قرأ برهان ذلك على وجه الدكتور الذي تابع هذا الفصل التراجيدي في الغرفة التي ترقد فيها الزوجة هامدة.

الدانماركي الذي لا يقف في الشباك ليراقب العالم من خلال الزجاج، منعاً للفضول، يستطيع أن يقرأ ما يدور حوله بذكاء، فكل مخلوق بشري من هؤلاء، جرسه الخاص الذي لا يرن إلا في اللحظة المناسبة، لتهض فيه زهرة الصفاء، بعيداً عن الضجر الخاص به والتعب والتعقيدات، حتى القساء منهم، لا يستطيعون الفكاك عن طبيبتهم، عندما تندفق كالينابيع في بعض المواقف التي تتطلب النبل وعلى ما أعتقد، فإن البعض من الدانماركيين، ممن يرتكبون المساوىء والسيئات، لا بد أن ينتحبوا في نهاية الليل ندماً، عندما يتأملون صناعتهم السيئة وما آلت إليه من عنف أو جرائم، ليس أجمل من البداهة واللاإزدواجية، والدانماركيون الذين لا يرتادون كنائس العبادة في غالبيتهم، لهم الكثير من الطقوس الإنسانية التي ليست لدى كبار المؤمنين المزورين في حياتنا العامة.

“اللعة أيها المنفى..

ها أنت تخنق خصبنا في الأرض وداخل الجسد.

اللعة أيتها البلدان التي شردتنا خارج حدود تلك الحقول.

التي نتمنى رؤية أحلامنا فيها، حتى وهي تلفظ أنفاسها هناك”

بعداليوم العاشر.. قامت الزوجة من سريرها في المستشفى، قالباً من الثلج المجمد، ودعت الجميع بالاشارات، وكان خرساً شل كيانها كاملاً، فيما حمل الزوج حقيبة الملابس الصغيرة، ليتجه الاثنان برفقة ممرضتين حتى نهاية الممر، فيما الماوردي، راح يراقب المشهد من وراء بللور قاعة

التدخين، وبمجرد أن إستنشقت المرأة الهواء خارج المستشفى، إنتابتها موجة من العويل المفاجيء،
الذي لم ينقطع داخل التكسي على امتداد الطريق إلى البيت!
لم يكن لنا من الحظ في أن نراه، لكن، لا تهتمي، سنصنع في الغد طفلاً أجمل، داعبها الزوج
بهذه الكلمات.

لم، لنرميه في صناديق النفايات؟

أطبق برهان فمه بصخرة سيزيف، وليس بصخرة أخرى، وبدلاً من أن يجلس برفقة الزوجة
والأطفال، خرج ليجلس وحيداً على عتبة الدرج المعدني المؤدي إلى مدخل المنزل، وغرق في
الدخان، كأنه من أولئك الذين يستحضرون الأرواح، وإلا أنه لم يتمتع بتلك الجلسة، إذ سرعان ما
خرجت امرأته عليه، لتسحبه من ذراعه إلى داخل البيت.

يبقى المواطن الذي لدينا تحت طائلة المسؤولية: أمام شرطي السير وأمام المعلم وأمام الوحدة العربية وأمام الحب وأمام الكتاب وأمام راقصة الستريتينز وأمام الضحك وأمام الحدود وأمام الطهارة في أقبية السعادة وأمام حراس الحدائق العامة وأمام مخدة النوم وأمام ماسك المحضر الحزبي.

أهي الخيبة التي نستقل حافلاتها وقطاراتها منذ أكثر من ربع قرن؟

وما تزال معطلة في موقف اليأس!

لم لا نجد الفلتر الفلسفي لتبرير هذا اللامعقول الذي يرتفع بيننا كالجدارية الصخرية؟

كي لا نمنح الموت امتيازاً خاصاً.

“انت.. أمام المرأة الآن”

على مدار السنوات الأخيرة، صار الشعور بالإلفة مع النفس ناقصاً أو معدماً، كأن كل شيء وقد غادر مكانه، ولم يبق إلا الرمل يسد الأفواه والأنوف، وتلك الحميمية التي يتحدث عنها البعض، طردت خارجاً، فبشر اليوم، لا رغبة لأحد منهم بالإحتفاظ فيها، فكل فرد بات يقذف الحميمية من نفسه ومن لا يفعل ذلك يأكله التوتر والتلف.

لذلك كان على الماوردي أن يقرر إستبدال أبطاله باستمرار، خشية أن يتعفن أحدهم في سريره، ولا يستطيع أن يقوم برميهِ بعيداً أو دفنه، كان يقول في نفسه:

"ليخرج هذا البطل الفاسد من رأسي، كي لا يعيث الخراب بالنص، فلم تعد الرواية تليق بأمثاله، كل من يتصدع، لا يترك خلفه إلا الوجع!"

تلك.. ليست سياسة لأدلجة المزاج، بل طريقة لتنظيف عائلة الذهن من الأفراد الذين ليس لديهم وعياً أو مخيلة تتسرب منها الأحلام لمقاومة التلف، فثمة من البشر، من لم يكتسب غير سعادة الإيذاء، كونه الراهب الجليل من رهبان البعوض، وهذا الإنحطاط الذي أصبح يغلفنا في الكثير من الأوقات، لا يترك فينا غير النصوص المحترقة والأذرع المنكسرة ودوائر المؤامرات التي تتسع لإبتلاعنا على دفعات، عالم الغربة هنا عالم التفتت السري الصامت الذي لا إنعكاس مباشر له إلا داخل الروح.

لم تعد ذراعي الآن مثقلة بالجيصين، لقد سقط ذلك النقل في المستشفى، ليحل مكانه ثقل آخر: مرض الإنفعالات، فالذين حطموا ذراعي بغثة في أحد الشوارع، ووضعوني رهينة في المشفى سارعوا لكسر شيء آخر في الدماغ. اغتصاب مورغ في منزلها بعد مدهامة ليلية، أعرف أننا لسنا في شيكاغو أو لوس أنجلس، ليتمكن منا رعب الزعران، لكن إقتحام البيت على تلك الطريقة، وربط القدمين واليدين بالأشرطة البلاستيكية وكم الفم بقطعة مبللة من المخدر، ومن ثم غرز تلك المسامير الصدئة في الجسد يمثل تلك الوحشية، يجعل إعتقادي وارداً، بأنني من سكان تلك المدن التي تملأ خلاياها الوطوبيط والعصابات، هذا شعور لا تتنازل عنه.

"ها نحن على أعتاب مافيا جديدة يختلط تحت خيمتها السياسي والعنصري واللص والمحتال الجاسوس والدجال وابن السفاح، ألا تظن ذلك يا ماوردي؟ أم مازلت مقتنعاً بأن الغبار لا يمكن أن يصبح جداراً في يوم من الأيام؟"

أحياناً، تضيف الصرامة إلى الجسد حاسة جديدة، يمكن أن نسميها حاسة الخراب البارد، حيث يتم تحطيم كل شيء بكل شيء، وإلى ما لانهاية، فعندما تتصادم الأفكار، لا تجد لها مخرجاً في الذهن، يخون العقل مسقط رأسه، ولن يحاكي سوى الشبح الكبير الذي يحرس بوابة العينين في الأوقات العصبية، فكيف بأعظم اللعنات: الإغتصاب؟

لم أتمكن من مواصلة قراءة الرسالة التي بعثتها مورغ من النروج، والتي وجدتها في صندوق البريد مع الرسائل الأخرى، فقد كانت الكلمات وكأنها حمم خارجة للتو من بركان، ومورغ وراء الحدود الآن، لم تغادر المدينة "روسكلدا" في رحلة للسياحة، بل هربت من مخالب بشرية، لتخفف عن مشاعرها حدة التوحش الذي أصابها، ومن السفالة التي تفوح برائحها الكريهة،

فالسفر بالنسبة لها، كان أشبه بعملية تطهير من الدرن والقانورات التي تسمت بها، كنت أعرف أن مورغ وسواها من الفتيات الدانماركيات، يمكن أن تستسلم لأي رجل تجده في طريقها، فديهن الشجاعة لذلك بالمطلق، فيما لو رغبت إحداهن بذلك، بل ولا تمنع الواحدة منهن أن تضاجع أحداً ما في عرض الشارع إذا كانت تملك الحاجة لذلك، أما الإغتصاب، فتعرض عليه المومس وباتعات الهوى في هذه البلاد التي تشبه الملهى الكبير، فالشرف الذي تتمتع به المرأة الإسكندنافية، يتضمنه قانون اسمه الرغبة، فالشرف ما زال كلمة مبهمه في كتاب الحياة الأوروبية، إلا إنه في المطلق العام يعني: عدم الإحتيال على المشاعر الصادقة.

“وما زلت أحس بأن مسامير باردة تنهش تحت جلدي، على الرغم من أنني أنذاك، كنت مخدرة وخارج الوعي، لكن تلك اللحظات كتبت لي تاريخاً مرعباً، سأناضل من أجل محوه بالتدريج، ولو قدر لي وتعرفت على أحدهم، فإنني سأستشق دمه إستنشاقاً في أية ساحة عامة، هل تثير حربي الخاصة لدى الآخرين شيئاً من التقزز؟ لا أعتقد ذلك، وإن حدث شيء من هذا القبيل، فليس بمقدار التقزز والغثيان الذي يطفو في داخلي”

تملكني شعور غامض وأنا أنقظر على رسالة مورغ، كان دمي تحول إلى غيمة من الصمغ الكثيف، لبتساقط من على حبل غسيل طويل، كل قطرة منه، تحدث دويماً مرعباً في الأعماق، فهرعت إلى الحمام، والرغبة تتنابني بالتخلص من شيء ما علق في بلعومي: أفعى، سفينة، ذراع طاحونة، فربما سقط شيء من هذا القبيل سهواً بين اللوزتين، وعلى التخلص منه، غير أنني لم أتمكن من فعل شيء، فوقففت أمام المرأة لأرى خطوطاً وكتابات من ضوء أصفر على وجهي، أولون برتقالي مائل للون النحاس بالضبط، ويلمع، فيما كان شعري سجادة من الرمام، تأملت جيداً أبعاد الوجه الذي بدأ يغوص داخل الزجاج، ورحت أرسم تفاصيله بمعجون الأسنان، إلا إن شيئاً لم يبق من ذلك، فأسرعت بخلع ثيابي للتمدد في البانيو الذي راحت مياهه الساخنة تيبث البخار ليملاً الحمام ويمسح كل أثر لي هناك.

“ها قد نقلت الحطام إلى غيرك بالعدوى، وكان عليك يا ماوردي، أن نقلت كالنيزك من قبضة الجاذبية، لتتحطم إلى ذرات غبار لوحدك!”

عدت إلى مكتبي في المجلة، وبعد أن دخلت الباب الرئيسي، إنغرزت حذائي في سائل مجهول، حتى أنني لم أستطع سحب أقدامي من ذلك المكان، وبعد أن ضغطت على زر مفتاح النور القريب من الباب، وجدت أن الموكيت غارق بمادة تشبه الغراء الأسود الذي يستعمل لصيد الفئران، ووقففت متجمداً في مكاني الذي لا مناص من مغادرته، ولكن دون الحذاء الذي سرعان ما غاص وتجمد داخل ذلك السائل اللعين برائحته التي تمزق شبكة الأنف، بعد أن فشلت بإخراجه من الغراء.

تركت حذائي نائماً هناك، وأسرعت بالخروج، ويبدو أن الهلع، هو المادة الوحيدة التي لايد من التعايش معها في المستقبل، أليس هذا ما يهدف إليه الآخرون؟ أن تتوقف المجلة عن الصدور، ليبلغوا سقف الإنتصار الذي توهموا بأنه سيتحقق لهم عبر سلسلة من المضايقات والتهشيم والضغط النفسي؟ لكن فقدان الحذاء الآن، يشكل بالنسبة لي، طرف المعادلة الآخر في هذه المعركة الغامضة التي تجري ضدي في الظلام، فهم شيء والحذاء شيء آخر، وحاجتي للأخير، هي ما تثير في نفسي شيئاً من الحنق، فالיום هو الأحد، حيث ليس بالإمكان استدعاء عامل لتنظيف المكتب، وليس من مكان لشراء حذاء، والأفضل في كل الأحوال، التوجه حافياً نحو محطة القطار، والرحيل إلى البيت.

كانت الشاشة في المساء، تعرض فيلماً لأشخاص أشعر بالراحة تجاههم، عدا المخرج الوقح الذي يكاد أن يفترس البطلة من نهديها بشراة عبر فوهات وخراطيم كاميراته، ولأنني حاولت مقاومة رغبة المخرج بعناد، تناولت قنينة السنايس من الثلاجة، ورحت أسقي المصورين الأقداح ثلو الأقداح، كي تدب في قاماتهم الثمالة ولا يذعنون لإرادة المخرج. كنت أتخيل أن السكر سيمنحهم الكثير من الشجاعة. وهذا ما حدث فعلاً، فقبل أن يقضوا على قنينة السنايس حتى قعرها، بدأ أحد المصورين بالتمرد على المخرج، قائلاً له: "يجب أن تتخلي عن هدر الكثير من أفكارك، عليك بتعطيل رادار الأوامر والانتباه إلى شكلك أكثر من الإخراج، فأنت تشبه الضفدع، وسيكون علينا إخراج الفيلم بطريقتنا الخاصة" فيما عطف المصور الثاني بوجه المخرج قائلاً:

"لتهذب أنت وأفكارك العنكبوتية للجحيم: أنت مصاب بعقدة أوديب يا حمار، لنصور لك ثدي الممثلة من بداية الفيلم حتى النهاية؟"

هل ستعرض الفيلم في حمام أم كباريه؟"

أما الممثلة التي لم يصيبها من السنايس إلا جرعة واحدة، فقد خرجت علي من الشاشة في محاولة شجاعة لإستلطافي، وعندما أخذت مؤخرتها مكانها في مقعد كان يقع بالجوار، راح فمها يحسني البيرة معي، مانحة ظهرها للمخرج.

ودون مقدمات، كما لا يحدث ذلك في السينما العذرية، سألتني إن كانت مؤخرتها تشبه مجسم الكرة الأرضية التي رأتها في الصالون أم لا؟

وعندما شهدت لها بصحة ذلك، نادى على المصورين أن يشاركوا بهذه الجلسة الخاصة، بعد أن قامت باستئذاني " كأنها بحاجة لذلك؟! "

فترك طاقم التصوير العمل واخترقوا الشاشة، تاركين المخرج يصرخ بين معداته وحيداً كالحلجية المصابة بطلق ناري في عنقها.

حملت الثلاجة إلى الصالون، ووضعتها أمام الجميع، وكان المخرج يراقبنا بعينين نكاد أن نبلغنا بنيرانها ونحن داخل الصالون، بيرة ونيبيذ أحمر وروم وسنايس وعرق وأوزو القبرصي فودكا غورباتشوف، لكن، وبسرعة البرق، إختفى المخرج خلف إحدى الكاميرات، صارخاً في نفسه: أكشن!

هل بدأ الضفدع بتصويرنا؟ هكذا تساءلت ونفسي، إلا أن الممثلة الحسنة، رمت بذراعيها على كتفي قائلة: لم هجرت السينما؟ دخت قليلاً، وكأن صدمة ما لحقت برأسي، إنها امرأة جميلة وصارمة، ولكن، كيف أدخلتني عالم السينما دون دراية مني؟ هل أنا بطل من الأبطال البصريين ولا أعرف تاريخي السينمائي بالضبط؟

"أن صناعة السينما، تبدأ بضربة على رأس المخرج، ليقفز الفيلم إلى الشاشة ويستحوذ علينا! أليست هذه هي الصناعة الحديثة للسينما؟" قالت وهي تتأمل خريطة وجهي وما عليها من تضاريس، هي بالتأكيد ليست كتضاريس مارلون براندو.

"نعم" أجبتها، ويضاف إلى ذلك غياب الأبطال، ليس الغياب الذي نجد له تفسيراً بالموت وحده، بل بالذكريات المخمرة في تلك النفوس التي لا تهدأ، كونها تتضمن احتمال إنبعاث الذكريات من جديد، فلكل غائب سلطته التي تحكمنا عن طريق الإستشعار عن بعد، أحياناً أجد جلجامش في الكثير من الأمكنة التي أمر بها، وهو يتعقب خطوات أنكيبدو، لأن الأخير، كما أحس، وكأنه يستقر في كل منتشر منا. إن خلق حقيقة من هذا الطراز، تجعل من ماضيها وذكرياتها أشبه بتلك النباتات

التي لا تنمو إلا على الأسطح. نباتات يستحيل اذبالها أو محققها مهما كانت العوامل والظروف قاسية وماكرة.

“كنت شديدة التوق إلى مثل هذا اليوم الذي أجد فيه نفسي ممثلة أمامك، لقد ضجرت من السيناريوهات التي بعدها كتاب السينما فربما يكون مثل أولئك، أصلح لكتابة التقارير والمواد الإخبارية والتعاويد إلى دوائر المباحث والمخابرات وشبكات التلفزة.

أ.. نعم، أنت ممثلة تبحث عن الإضافات، أليس هذا ما يؤرقك بحق الرب؟

يؤرقني فقط!

وتمد الممثلة يدها لفنينة عرق لتكرع ربع الطوفان الذي يستقر داخلها، فيما كان المخرج خلف الشاشة يصرخ: أكشن!

أكشن، هذا كل ما يعرفه الضفدع العبقري عن السينما، تعلق ساخرة.

فيما كانت تمسك بيدي لتضعها كالقطة في حضنها “هل كنت فعلاً كنتك القطة؟ لم أفكر بالجواب، ربما لأن يدي كانت تذوب بفعل إستقرارها فوق البركان، هكذا كانت تترجمني حساسيتي إزاء ممثلات السينما وعارضات دور الأزياء، فجمال نساء من هذا الطراز ليس مستعراً وخالصاً، بقدر ما هو مزيج شهواني ملون يلقي بظلاله في العيون التي تقبض على متعة الفرجة، لتحولها فيما بعد إلى لذة تنكسر كالموجة في الدماغ.”

تفرست الممثلة جيداً، وقلت لها بشهية:

- ماذا لديك في الغد؟

- سأقوم بتنظيف نفسي من بعض الإضرابات!

أشرت لها نحو المخرج الذي بدا نائماً على الكاميرا

ماذا يفعل الآن؟ هل يعمل أثناء نومه كذلك؟

ردت بشيء من الجدية

- أنه يقوم بتصوير اللقطات الأخيرة من هذا الفيلم، هل تدرك ماذا فعلت أنت به قبل قليل؟

- أنا؟

- نعم، لقد سحبت فيش التلفزيون، لتقطع الكهرباء عن تعابيره، وحينما أعدته مرة أخرى، لم يجد في نفسه الرغبة بمواصلة الحياة، أو التنفس على أبعد إحتمال.

- هذا يعني أنني قتلته مع سبق الإصرار والترصد؟!

وبصوت عال مليء بالعريضة والدلع، تنفست البطلة بعمق وصرخت:

أجل، فأنتم المشاهدون تفعلون بنا ذلك على الدوام، تقتلون المخرج والممثلين والمصورين، لمجرد أن الفيلم لا يروق لكم، وهذا ما يتم فعلاً، فأغلق أجهزة التلفزة إعدام لنا! هل تدركون هذه الحقيقة؟

حاولت النهوض من الكرسي الذي كنت غارقاً فيه، لكنني لم استطع إنتزاع جسدي، فسرعان ما نهض المصوران ليشدا على رقبتني حبلاً من البلاستيك الشفاف، وبياً بالضغط التدريجي.

“يا إلهي، هل سأواجه مصيري بهذه الطريقة؟ من أين هبط عليّ هؤلاء الأوباش، ليفعلوا بي كل هذا؟”

حاولت الإستجداد بالممثلة التي كانت تعشقني وتموت فيّ منذ قليل، لكنها دخلت الشاشة لتوقظ المخرج من نومة أهل الكهف، ليبدأ بمهمات التصوير، أجل، فسرعان ما نهض الضفدع الخرافي وراح يدير العدسات نحوي. فيما كان المصوران يمزقان الثياب التي على جسدي.

ها قد أصبحت عازباً وستأتيك الممثلة لتتام وإياك فيالسرير وأنداك سيصرخ الضفدع الذي ما زال عالقاً بأجفانه اكشن. ولا بأس بقبلة طويلة تطير بها حياتك إلى آخر الأجرام السماوية، فالممثلة ماتزال شابة، وشفاتها أشبه بنهرين متلاصقين تفوح شفاتها بالطمي الأحمر.”

لكن العملية، كما تبدو، لا تتعلق بمحاولة شنق أو شيء من ذلك القبيل، فقد أرخى المصوران الحبل عن الرقبة، وقام الأول بتمشيط شعري، فيما أمسك الآخر بذراعي، ساحباً جسدي نحو جهاز التلفزيون، وهناك، مد لي المخرج يده من الشاشة، ليساعدني على الدخول.

“باللروعة، ها أنت في الأستوديو، الأضواء والكاميرات والتابلوهات وعدة المكياج والمايكات والأقلام الملونة والعدسات التي تغلف المكان تغليفاً”

جلست أمام الممثلة، هي على كرسي ينطوي على نفسه، وأنا على كرسي مثله، فيما غادر المخرج والمصورون الأستوديو إلى الخارج بسرعة.

كنت أراهم، لقد جلسوا أمامي في صالون منزلي، وهم يحتسون آخر المشروبات المنبغية في الثلجة، فتمنيت عليهم أن يردموا لي عطشي بقنينة جعة، لكن صوتي لم يصل إلى هناك كما أعتقد، فقد قام المخرج الضفدع بسحب فيش الكهرباء عن الجهاز، لأختنق أنا والممثلة الحساء بماء من الظلام، ولولا وجود الأخيرة معي، لكنت أعلنت إحتجاجي على هذه الميئة السخيفة خلف الشاشة.

باللرب.. أي مصير موحش هذا الذي أعيشه في مثل هذا المكان المقفل بإحكام وراء هذا الزجاج؟ حياة تسيل مثل الضوء المتشنج، وموت لا يتفسخ في مناخه الجسد! فيما الخمر هوالمؤلف الذي يسير على ضفة العقل، ويهش بصولجانه على قطعان الأحلام التي قد لا نجد فيها إلا متعة التيه، حتى ونحن في طبقات النوم العليا التي لا نصلها على الدوام إلا من خلال تلك الإهترزات السحرية، فمن الصعب أن نقنع النوم بأن يلقي بجثته على السرير وينهدم كالجدار.

..كيف

..لماذا

..أين

..متى

....

والبقية تأتي في المسلسل المطل على شرفة العين الغائمة بكثافة الضباب “أن
يصبح الماضي هو خيارك الوحيد للتنفس، فلا بد من هزة عنيفة لشجرة اللغة.”

كيف تتحول عاصمة مثل كوبنهاغن إلى صحراء؟ تخيل ذلك، القصور والأبنية والبنوك والعمارات والمخازن والمحال والملاهي والجسور والمقاهي، كلها تطفو فوق الرمال، وأنت تقطع المدى على ظهر بعير هرم، له من العمر سبعة آلاف سنة؟ كنت أنظر إلى البحيرات، وأتأمل آثارها، وعندما استبد العطش بي في مثل هذا القيط، عرجت على "السكالا" فكانت كقبة من النور، تعطرت ببخارها وغادرت المكان، حيث لا أحد هناك ولا من يحزنون، نزلت ببعيري عند محطة السكك الحديدية، حيث لابد وأن أكون بانتظار مورغ التي ستعود اليوم من النرويج، وفعلاً وجدتني على الرصيف، اشبه بحمامة، ولكن دون ذلك الأمان الذي في عيون الحمام المنتشر تحت سقف المحطة الخرافية المليئة بصور عارضات الأزياء لمايوهات الصيف والكثير من الإعلانات الأخرى عن المشروبات الغازية والأيدز والبيرة والزبدة والعنصرية ورحلات السياحة إلى مناطق الشمس!

غمرني هذا الإحساس المراهق، وأنا ألتقي بمورغ العائدة توأ من رحلة قسرية للعلاج، فدارت الأمكنة برأسي دورة غير عادية هذه المرة، وكأن الوحدة الأثمة قد فلتت بنبان الإنس المتبقي في الداخل، وبالإضافة إلى ذلك، أحسست بأن أكثر الكاميرات تعقيداً وتطوراً، لا تستطيع التقاط شيء من ذلك المسحوق الناري الذي كان يغلف الأعماق، أكان ضرورياً ما أشعر به وأنا أستقبل مورغ في مثل تلك الظهيرة التي لم أر مثيلاً لها حتى في دول الشرق؟

ظهيرة حمراء كوردة من الجوري، وعلى تلك الوردية ندى بنفسجي يدعي هذه المرة: دموع مورغ، تلك الدموع التي أيقظت المدينة الصحراوية، لتحرك كل شيء في العاصمة، القطارات، الحمام، البشر، المصاعد الأوتوماتيكية، الكلام وأجهزة الغناء، القلوب، الأرصفة التي صارت تميد، الدم، النيونات الملونة للإعلانات التجارية، النوافذ، الباصات، الكلاب، المطابع، أجل، كل ذلك تحرك دفعة واحدة عندما بكت مورغ، وكأن دموعها سقطت على ذراع طاحونة عملاقة، استطاعت هز كل هذه الأشياء مجتمعة، من أجل تعذيبي بمثل تلك القسوة!

كانت مورغ تشع بضوء أزرق، حاولت تلافيه بدفع سؤال ما من فمي الذي إلتصقت شفتاه بطن من الصمغ:

- بنتا على أبواب الخريف، ولم نر صيفاً حقيقياً هنا!
- لن تطهرنا الشمس، حتى لو نزلت من قصرها السماوي وجلست بيننا ياماوردي.
- وماذا عن النرويج؟
- دمية من تليج، لا تثبت الدفء، حتى لو وضعتها في حضنك.

تابعت كلمات مورغ دون تعليقات، وسرني أنها التقطت بعض أنفاسها بعد ذلك العدوان، فلا شيء أفسى من محاولة تحطيم مخلوق خارج دائرة الصراع، هذا النوع من العدوان، يكرس خطراً شيطانياً لا يمكن ترويضه في المستقبل، وأنا لألوم مورغ التي عانت من الإغتصاب بسببي، أن تجنح بها أفكارها وأفعالها إلى المدى الأسود من تلك اللعنة، لأنها تؤكد على عجز الآخر الذي لم يوفر لها الحماية، على أقل إعتبار.

حين هبطنا من الباص وتسللنا باتجاه منزلها، رفضت الدخول إلى هناك، فقد إستبد بها خوف داخلي، أعرف دوافعه جيداً، عندها قلبنا وجهة الطريق نحو منزلي، وشيئاً فشيئاً أصبحنا في الداخل عندها أنارت مورغ كل الأضواء، وبدأت قامتها بالانتقال من غرفة إلى أخرى، وكأنها تفتش عن شيء ما، أنه الرعب أجل ففي داخل كل مخلوق جرس اسمه: الذعر، حتى أنك تكاد في بعض الأحيان تسمعه.

- من الآن فصاعدً، لا تستغرب أي تصرف مني، عليك إختبار كل شيء بدقة ودون مبالاة، وجهت لي مورغ هذه الكلمات، لكنني إمتنعت عن التعليق بهدف سبر أغوار الذات الجديدة التي تتقمص مورغ.

- هل بدأت تعي جيداً، بأنهم يتبعون خطواتك يا ماوردي؟

- سيتعبون قلبي.

- سيتعبون من ماذا؟ من ملاحظتك، أنت لست موجة ليتعبوا من تعقبها بين زحام البحار، أنت مرسوم بوضوح على الورق، فيما هم كالحبر السري لا يعرف لهم مقر أو مستقر.

- هل تعرفين ماذا توحى كلماتك يا مورغ؟ قتل الأمل وعلان الهزيمة.

- لا أقصد ذلك بالضبط، ولن أشارك في صنع قرار بهذا الإتجاه، إلا أنني أدفعك نحو التفكير بخيار عدم الإستسلام الشامل لهم، وعدم الإستقرار بالإفصاح الشامل لإرتكابتهم.

- "ما أبأس أن تفتل من القبر الذي يعده إليك الآخرون، بحفر قبر إختباري لك، وحسب الموصفات التي تريدها.

أن تصبح الإطار لصورة غير صورتك، والأسطوانة التي تدور في دماغك، وهي بصوت يغني عن حطامك وهزائمك وأحزانك التي لم تجد لها حبلاً لتجف، كل هذا، ليس بئساً وحسب، بل هو إعلان للموت، ولوبطريقة لا تمر عبر خرم الدفن، فكلما وجدت فرصة لبناء جسر ممكن بينك وبين الآخرين، سرعان ما يخرج عليك رعييل قطاع الطرق والأغبياء، ليدمروا تلك الفرصة، علماً بأن الوضع هنا، ليس متيناً أو محصناً بالدرجة الكافية التي تمنع العدوان السافر ضد الأجانب، فالمجتمعات لا تحتاج إلى محرض، كي يستنهض تلك النزعات الهيستيرية القديمة التي حفرها الكثير من المفكرين الغلوانيين وأساطين الكراهية والحقد والتجني ضد الشرق، والتي تعود بجذورها التاريخية إلى ما قبل مرحلة الحروب الصليبية.

إن مراحل التاريخ المظلمة للقمع والحروب والإرهاب والمجازر والمخلفات الإستعمارية للثقافة والفكر والهيمنة المسلحة، لا يمكن أن تكون كالإنفلونزا الآن، لتصاب الشعوب بأمراضها عن طريق العدوى، فاستنهاض الهوس التاريخي الدموي الأعمى، كما ينبغي أن يقال، لا يحق لأحد منا التنقيب عن آثاره وزرعها في العهد الجديد، ونحن لو فعلنا ذلك كعرب، لطالبنا بإعادة الإعتبار للإمبراطورية الإسلامية القديمة من حدود الصين وإلى قلب أوروبا، أو لكننا قد أفرغنا الديانتين اليهودية والمسيحية من ثقلهما اللاهوتي، وقمنا بضمهما إلينا، لأنهما ولدتا على أرض عربية، مثلهما مثل الإسلام، لكن مثل هذا القمع والإحتواء والإستلاب لم يحدث، وظل العرب بمنأى عن فكرة تدمير المؤسسات الدينية لكننا الديانتين، مثلما يفعلون مع مؤسساتهم، وبكل ما تعنيه كلمة التسامح من معنى، فالدين لله، مثله مثل الأرض".

ربما كانت مورغ قد سمعت الغليان الذي فار في أعماقي، ولا أستطيع أن أجزم بذلك، رغمًا عني، أو لأن التركيز في مواجهة الهزيمة المقترحة لي، لم يعد وراثيًا، وللأسف، وجدت نفسي وكأنهما قنينة ترمى في بحيرة من الغيوم.

“أنا مدين لمن يفتح لي مخيلتي، والهزيمة غلق لها سواء كانت على جبهة من البارود، أو أمام بغل من بغال الجبال، لكن التنفس بعمق هو الانتصار. فكيف إذا كان بين نهدين تعشوشب فيهما النيران، وعند مورغ؟”

بعض أحلامنا تطفو على سطح المياه، وبعضها يختفي فيغرق في القاع، وبعضها يتفتت، لكن، لا ذكريات تموت لدينا، أليس كذلك يا مورغ؟

أجابت بعث مزلزل:

الأحلام العاطفية كالأحذية، لا يمكن إستعمال فردة منها وترك الفردة الأخرى!!

إلتبس الوضع عليّ وغرقت في جهل مطبق، والحق أنني لم أعرف شيئاً عن الرموز التي باتت تندلقها مورغ مع كلماتها، هل هو الخبث الذي تعمق فجأة في نفسها؟ أم هي محاولات لفلسفة تشق طريقها، كالبرعم بين الأحرار التي وجدت ذاتها غارقة في روائحها؟”

- ما من حزن يكسر الجسد أكثر من رائحة الأحلام المهزومة، وها قد بدأت أشم ذلك الآن، أحببتها بخفوت.

- وأنا أشم أحزناك على بعد آلاف الأميال، وعندما ترغب بالهروب، تأتي الخمرة لتكسر جرة الشجن في الليل.

- وهل تعتقدين بأن الحزن نفاية يجب التخلص منها، قد لا تعرفين بأن الليل مقبرة ندفن فيها خصائصنا السرية، فالأرض ليست إلا خيمة، لا ظل فيها للغريب.

- إسمع، أنا لا أريد منك أن تفسد حياتك كالفقاعة داخل الخلاط الكبير، ولا أن ترمي روحك كقارب من ورق على سطح الطوفان، قد تجد في الكتابة إنقاداً لنفسك من الهلع، ولكن ليس مع هؤلاء البرابرة والمتوحشين.

ها قد بدأ فصل الجد بالنسبة لمورغ، ورداً مبهماً في مثل هذه المواجهة، يمكنني من المقاومة،

- كنت أدرك جيداً يا صديقتي، بأن الرحم هو السجن التمهيدي للجسد، وبأن الكتابة بعد تخطي مرحلة الحضانة السياسية للعقل، تصبح سجناً، هي الآخر في نهاية المطاف، غير أن العناد، قد يرافق المرء كداء الكلب، ولم أكن قد خططت لمثل هذا الوضع إطلاقاً، بل أنني، لم أخطط لأي مشروع في حياتي، كنت وما زلت أترك العالم في ناحية ونفسي في ناحية أخرى، وكل واحد منا يتطلع إلى الأخرى بنظرات من العيب، كأن الحكمة التي تتقمصني، هي عدم الريبة: العالم طبقة من نور وطبقة من ظلام، أحدهما تنتفس الثانية بالتناوب، ومن المستحيل بمكان، الفصل بينهما أو إلغاء أحدهما، طبقتان متعايشتان ضمن شروط استراتيجية لا فكاك منها، وعندما يجد المرء نفسه في شفق أحدهما، سوف تتسلل إلى روحه الكتابة، ويجد ذاته الطليقة في حقول من المتعة العالية التي تفوق متعة اللذة.

الله يا ماوردي! لو كنت نحلة لما وقفت إلا على الزهرة التي أنت، لأمتص رحيقها حتى الهلاك.

- إذن قومي لنكتب بعضنا في العري يا مورغ.

تنهض النحلة ويتبعها الحقل المتفتح، جسدان ينتثران من هول الرغبات المشاغبة، ويسيران على جسر من البللور الموصل بين ضفتين لنهر يطير ويحط كالهدد في الفضاء، وكنت أتبع تلك الخطوات، ليس كأنني الحقل الملعوم بألاف الزهور وحسب، وإنما الكرسي الذي يجلس السحر عليه، ويهتز كقوس قزح سكران أمام غيوم شابة. كان السرير الذي أنظر إليه في تلك الساعة المتموجة، قائماً على ساقين فقط، أما الساقان الأخريان فكانا يرفعان سقف السماء بما تحمل من كواكب وأقمار وأجرام ومذنبات ونيازك، وعندما سألت مورغ ان كانت قد تعبت من حمل تلك المجرات على ساقها أم لا أطلقت تأويها كادت أن تسقط السماء على رأسي، بل سقطت فعلاً على ما أتذكر، لأنني لم أجد نفسي، عندما فتشت عنها آنذاك.

الأسئلة أيضاً، تبحث عن نفسها، ألم تدخل أنت مجالها وتختلط في تلك القيعان
الرطبة للفكر الذي يدخن شخوصه؟

“الأيام تأكل شكل الموتى، ونحن لا نستطيع التعبير عن كل الرماد الذي
نتحصن في خندقه، لتذود عن المجهول.”

فر الماوردي من جسده، وسقط كالمقص على حواسه، فيما كانت النيران
تعوي في ذلك الكهف التي تستنطق الروح فيه طيورها.

الجمهرة التي حضرت إلى المنزل في ليلة عيد ميلاد الماوردي، تجاوزت العشرين شخصاً، وقد كنت مرعماً على إقامة مثل هذا الحفل الذي تخلى عنه منذ سنوات طويلة، لسبب واحد، أنه يوم لا يليق بذكر مناقب عمر، هو أشبه بالجنّة المهترئة، متقطعة الأوصال، وفي زمن، لا يرى فيها ما يناسب الإحتفال بالخراب، قد تكون هذه النظرة سيئة وغير حضارية كما يقول المتفائلون، ولكن الماوردي أدرى من غيره، فهو صاحب البنيان الهرم الذي يحمله معه، والذي ما زال يتقلش ويتبدد في المنفى منذ قرابة الربع قرن.

قد تكون الأحلام في الكثير من الأوقات، بمثابة المصدر الوحيد للقلق، فعندما تجف قامة اللحم يتزعزع العمر، ويصير الوقت ضيقاً علينا، والأفدح من ذلك إستخراج تلك الأحلام من الأرشيف، والبدء بقراءتها تبعاً في الليل، أسراب طويلة من الطيور، وقد تحولت إلى مومياءات، تبت في الأعماق تلك الرائحة المخيفة، وهنا، لابد من تذكّر جوقة الصيادين، ممن يمارسون مهنة صيد الأحلام قبل طيرانها من الرؤوس حتى.

“هل من الضروري إسترجاع هذا النشيد النازف الليلة؟”

“صحيح، الليلة أناخرجت من ذلك الرحم الضيق إلى الرحم الكبير، رحم الأحراب والحروب والجنون والمستشفيات والياباب ومصانع الأحمية والإفكار وموانع الحمل والكومبيوترات والصعاليك والشامبو والسجون وثياب الجينز، كل ذلك صحيح، فالأرحام تتواصل بعضها ببعض الآخر دون مشقة، ومن يدري، فربما تفكر بلغة التخاطر.”

بدأت الكؤوس تصهل في الأعماق سهيلاً، ومن الصعب على الماوردي أن يغيب بعيداً، فقد توغلت الخمور إلى كل المنافذ والأصدقاء هنا تحاول إستكمال دورة العمر مع الرنين الذي تبتّه الأفداح، كل فرد يحاول أن يحصد حقل حياته في لحظة مناسبة، أما تعبيراً عن الكآبة السرية التي تكمن في الأعماق، وأما بهدف الولوج إلى بوابة النسيان الكبرى، تلك التي يدفع الدانماركي على وجه الخصوص ثمناً باهظاً من أجلها، فالفرح، ومهما تكن مساحته، أنما هو من الممتلكات المستحيلة التي نعترف زوراً التصرف بها في بعض الأحيان، وكل ذلك يصبح وهماً، لأن الأسي السري يغمرنا، على الرغم من محاولات المخلوق البشري الداعية لإبعاد شبح الخيبة العملاقة التي تحتل أرض الإنسان الداخلية بتلك القوة الغامضة.

هذا الشعور ليس مفاجئاً، أو هو وليد شمالة متطرفة، فهو بالنسبة لأصدقائي الدانماركيين، نظرية حياة تكاد أن يكون شبه شاملة، فقد إستطاع ابن الشمال الإحاطة بها عن عمد من خلال إسلوبه بالتعاطي مع العالم الذي يعيش في قوقعته الثلجة، وكنت أتمنى لو يربط كل بيت في الدانمارك بخرطوم مباشر للبيرة، مثله مثل تمديدات الماء والكهرباء والغاز والهاتف، لأن ذلك سيوفر الكثير من الأعباء على المواطن هنا، وهذا الحلم الذي يراود ذهن صديقي “بيتر بيدرسن” وسواه من أبناء البلد، قد يصبح أمراً واقعاً ذات يوم، فإذا كانت ثمة دول تنتج النفط لتفقير شعوبها، فثمة دول أخرى تنتج البيرة لإسعاد البشر الذين وجدت من أجلهم، بعيداً عن النتائج المنظورة، وليس من فانتازيا في هذا الوضع المأمول، فإنك لو تفصد دم “بيتر بيدرسن” الآن، لكان جعاً تلونها

خطوط من السنابس والويسكي والروم والفودكا وموجات من النبيذ، فهل أصبحت هذه المواد ومشتقاتها، أفضل من النساء عند الرجال؟

قد تكون الذاكرة ملغومة الآن، ولكن ليس بالضرورة أن تنفجر في مثل الساعة، على الرغم من التدايعات الحزينة التي تتوافد إلى الرأس من مختلف المناطق القريبة منها والنائية، وهذا الإحساس الذي يعتريني وأنا في أجمل اللحظات، ربما يستند إلى أرشيف ضخم من خراب الداخل الذي نشره اليأس عبر الأعوام الطويلة الماضية، والتي كانت ضياعاً في ضياع، حتى أصبحت السنة الكاملة، تساوي في بعدها الزمني ساعة أو أقل من ذلك الوقت.

كانت مورغ تطلق خلفي عيونها بترقب حاد، فيما كان الحاضرون يحشدون أفواههم بالنقاش في موضوعات غلب عليها الطابع السياسي والإجتماعي والثقافي، ومنها ماأثاره الدكتور الوراق حول مسألة الرسائل التي باتت توجه للكومونات من قبل مجهولين، وكلها تقارير مخبرانية تتعلق بسفر الأجانب إلى الخارج، تحت طائلة المسؤولية وفرض عقوبة قطع مخصصات اللاجئين، ممن هم على برنامج المعونة الإجتماعية!

-أيها الأجانب: ها أنتم في السجن الدانماركي المرفه الكبير!قال يوهنس معلقاًبسخرية على الموضوع ومضيفاً: فيما الدنماركيون والأوروبيون ممن يعتاشوا على برنامج المعونات الإجتماعية. طلقاء وأحراراً يسرحون ويعملون في عالمنا الأوربي دون أن يحصد منجل العدل الالهي في البلديات، شيئاً من كرونااتهم

-ولم لا تسخر من مسألة تجنيد البلديات للاجانب كمخبرين ضد بعضهم لبعض؟ سأل كاسبر .
-تلك ديمقراطية حديثة يا سيد، وربما لا نفقه الكثير عنها راهناً، قبل حدوث فضيحة أشبه بفضيحة التاميل! رد يوهنس ضاحكاً.

رفعت تينا كاسها قائلة:

-سيأتي اليوم الذي تحاكم فيه دولتنا الأجنبي على عدد المرات التي يتبول فيها، تحت شعار نظافة البيئة!

فساد الضحك الجو العام، ولم يستطع أحد من تمالك نفسه تهكماً بالقرارات التي باتت البلديات تمارسها بهذا الشأن، وهو ما دفع الدكتور الوراق إلى إشهار صورة عن الرسالة التي تلقاها من المشرفة الإجتماعية، والتي كان مفادها متعلقاً بشأن سفره إلى خارج البلاد من تاريخ كذا!

اللعنة، قالها كاسبر عندما قرأ عبارة "محب الدانمارك": التي ذيلت الرسالة بهذا الاسم

المستعار، معلقاً بتهكم: كأن ما ينقصنا حب هذا الجاسوس القذر، ثم بصق على الرسالة.

لقد ترك كاسبر ردود فعل حادة لدى الجميع، الأمر الذي دفع "ليز" وهي مدرسة جامعية إلى الإعراب عن قلقها من إنتشار هذه الظاهرة التي تستوجب الجدل والنقاش في البرلمان وغيره من الدوائر.

"إن قبول الكومونات لرسائل يوجهها مجهولون، تشكل خرقاً للقانون، لأنها تضع اللاجئ في وضع يشابه وضع الرهينة المعتقل كما تخضع اللاجئ للرقابة والترصد، ولا تعتبر إلا من وسائل التجسس الممنوعة، وخرقاً للحريات، بل أن إعتقاد الدوائر الحكومية على هذه الرسائل، سيفسح المجال واسعاً لعمليات إنتقامية وتصفيات حساب بين الأجانب أنفسهم، سيكون مداها خطيراً في المستقبل"

ساد الدهول قليلاً، فتطلع الماوردي إلى الساهرين وأحس بضرورة قلب صفحة جديدة من الليل، فالذهن، لم يعد يتحمل أعباء النقاش، لذلك كان لابد من الموسيقى لتملاً سلال الأجساد بتموجاتها، ونسيان جوقة الأوباش ممن باتوا يفضحون أنفسهم عن طريق ممارسة هذا العمل النذل، فهل يكررون دورهم القديم الذي كانوا يمارسونه في بلدانهم، كمخبرين في دوائر الأمن والشرطة .

سألت سوزان فريدركسن بصوت عال:

"أما من أحد منكم يرغب بالرقص أيها البشر؟".

فرد عليها جون أولف وهو ينهض إستعداداً للرقص قائلاً: "نحن نرغب بالرقص مع الذئب فقط!" ثم تبعه الأصدقاء بإطلاق أقدامهم مع الموسيقى التي راحت توقظ ما في الداخل من مشاعر وأسرار في ذاك البنيان الإنساني الغامض في أغلب الأحيان، كم من الموسيقى التي تطاير معها الأفكار والأحاسيس، وكم من المخلفات التي تستلم لها منذ البدء.

كنت أشعر جيداً بوضوح الصورة هنا، وأحياناً بغموضها لدينا، وكأن الموسيقى لا توقظها أبداً، لأنها اعتادت على هذا الإيقاع، فبات لا يوقظها إلا السوط أو محرك الدبابة أو بوق النفير العام، فالإنسان يتعلم حيث يولد، وقد كنت أدرك هذا الإيقاع المعرفي للحزن الذي ولدنا نحن على أرضه في الشرق، لذلك لازمنا التطرف دون إنفصال. فنحن متطرفون في كل شيء: في الحب في السياسة في الكتابة في الغناء في الهرولة في الهجرة في المعرفة في المثالة في الفنون في التعذيب الذي نقيمه للذات وللآخرين، أو لسا ضحايا للحنين المرعب الذي نتقلش تحت خيامه في المنافي؟

لا نعرف إلى أي مدى يصل بنا، ولا إلى أين أو لماذا؟ فهو يسكننا كالشبح فقط. ليقطع علينا كل إتصال بعوالم البهجة، لذلك ترى الكثيرين منا، وقد تحولوا إلى جنائزين معادين للفرح، وبشكل مطلق، لأنهم لم يجدوا لمشاعرهم الداخلية إلا في دائرة الحزن الذي يستمد قواه الخفية من غابة التاريخ الثقيل الذي يزرع تحته بشر الشرق.

"أين وصل بك رأسك المجنح يا ماوردي؟"

سألتني مورغ وهي تسحبني من ذراعي نحو أرض الرقص والغناء والخيل، لم أجد أية مقاومة، على الرغم من أنني هنا ولا هنا، تلك عادة وريثها بجدارة عن أحد لا أعرفه تماماً، ولكن الشخص الذي أورتني هذه العادة، عظيم بالتأكيد كما أعتقد، فعلى المرء أن يكون موزعاً على أكثر من مكان في آن واحد: هنا، وهناك، فهذا أفضل، لأن التوزع، يمنع المرء من إستهلاك نفسه في حفرة أو في قالب واحد، وهو أمر يستحق التقدير.

قبل إنتصاف الليل.. بدأت قوافل الأصدقاء بالرحيل، ولم يكن بالإمكان ترك "كاسبر" وصديقتة "ليز" أن يفعلا ذلك مثل الجميع، فقد أفلتت الخمرة عيونهم تماماً، وكان من المستحيل على أحدهما قيادة السيارة في مثل الوضع الذي هما عليه، وبخاصة في الليل، لذلك قررت التخلي عن السريرلهما، وقضاء البقية الباقية من الليل في منزل مورغ، وقبيل رحيلنا، قمنا بوضع الاثنتين في التخت، وغادرنا البيت بعد إغلاق الباب.

- هل لك رغبة بتناول كأس من الماريني يا ماوردي؟ سألت مورغ وهي تحضر القنينة وكأسين.

- كلا، ليس لدي الرغبة بذلك.

- وكيف عرفت ذلك، هل ثمة من يقرر بالنيابة عنك؟ ردت مورغ وهي ممتعة.

فتحصت وجهها ملياً، وهي تدلق المارتيني في جوفها وقلت:

- لا بد من شيء هناك فهل لك أن تطلعيني مباشرة على الكابوس الذي يخنقك يا مورغ؟
- ليس من كابوس هناك، ولكن علينا الإعتناء بحياتنا بالقدر المطلوب، فلم أعد أطيع صمودك العبثي أمام أوغاد يستطيعون إشعال النار في الهشيم.

- تقصدين أن نصمم هزيمة ماء، تليق بنا؟

- لأعني الهزيمة، بل الإنسحاب من إكواريوم التماسيح يا ماوردي.

عندما اقتربت مورغ وسقطت بين ذراعي، أحسست بأنها لا تتوسل، بل تنذر بإحتمالات وقوع أشياء، كنت أتوقعها منذ أن صدر العدد الأول من المجلة، فقد أمطرت اللعنات علي تباعاً، وها هي مورغ تحاول أن تكمل قامتي بعاصفة الهزيمة الكبرى، وذلك من خلال التخلي عن المجلة، وإلا فما الفرق بين الإنسحاب والهزيمة في مثل هذه الحرب التي تخاض من طرف واحد: هم.

تناولت الكأس برغبة عارمة.

"إنها الرغبات التي تتوالد فينا فجأة، لتبدد وتخلق ما ليس في عداد المشاريع المقررة للتنفيذ"

وقلت بصوت خفيض كصوت سمكة تخرج من المياه:

- هل تصدقين يا مورغ.. بأن الطريقة الوحيدة للحياة، أن يظل المرء طفلاً إلى الأبد، كي يتحمل الآخرون غلاظاته وعبئه لا العكس؟

- عندما أقرأ الدموع في عينيك يا ماوردي، أزداد تعلقاً بتمثال الجنون المتحرك وهو يحتل قامتك، ولكن الخوف هو الذي يجعل الحياة محتقرة لدينا، أليس كذلك؟

- ربما يمكنني النيل من تفكيرك في الصباح، أما الآن، فوداعاً يا شهرزاد.

العالم الضيق يا مورغ.

الحلم الضيق، البشر الضيقون، كل ذلك يحدث في هذه العين التي تهول على أراضيها أحصنة النيران.

فيما نحن والبكاء الطويل،

سلسلة جبال لا تحمل غير الرماد على ظهورها.

كانت الشمس قد تطلّأت على زجاج نافذة غرفة مورغ للنوم واشغال الليل، إنها العاشرة صباحاً بالضبط، القهوة يعيهاها التقييل الذي تعودت مورغ على عدم التخلي عن إعدادها هكذا، كانت جاهزة، فتناولها كل منا بطريقته الخاصة: هي دون سكر وحليب، وأنا العكس تماماً، ومع تسلل دخان السيكارة الأولى إلى ممرات الجسد، بدأ الرأس يستعيد وقاره، هكذا أحس دائماً، فكأن الرئتين لا علاقة لهما بالدخان الذي نتشرب به، خاصة في الصباح، أعرف مايقوله الأطباء والعارفون عن ذلك، إلا أن المسألة تتعدى حدود كيمياء الجسم، إلى شبكة أخرى من شبكات الجسد البشري، لأن إستنشاق التبغ في الصباح، يمنحني أنا شخصياً، نوعاً من الأمل، لم أستطع اكتشاف هويته حتى الآن، وهذا في حد ذاته متعة غامضة.

كان علينا أنا ومورغ العودة لمنزلي لإعداد القهوة والإفطار لصيفينا، ولكن لم نتمكن من إنجاز ذلك، فقد حضر رجال الشرطة إلى منزل مورغ، وأبلغانا بما حدث لليز وكاسبر في منزلي أثناء الليلة الماضية، لذلك كان علينا الذهاب إلى مقر البوليس من أجل التحقيق وتثبيت بعض الوقائع هناك، ولولا إفادة كاسبر الأولية، كنت قيد الإعتقال.

جاء في إفادة كاسبر هنيئاً ما يلي:

"لا أعرف الوقت تماماً، فقد كنت تملأ، ولكنني صحت بفعل ركلات قوية على معدتي ورأسي، وعندما أيقظني الألم من سكرتي، رأيت رجلين يوجهان لي تلك اللكمات، لم أستطيع المقاومة ولا التفكير بشيء، فقد سقطت من التخت أرضاً، ورحت أتوى مثل الثعبان المطوق بسور من النار، وعندما هدأت الآلام التي كانت تتبعث من معدتي، إستيقظت لأجد "ليز" وهي تنز في جوارى أرضاً، فامتلكني الهلع والذعر، فأسرعت للهاتف دون جدوى، لأنه لا يعمل بفعل قطع الأسلاك، فتشجعت لجمع قواي، وحملتني إلى سيارتي وتوجهت بها نحو المستشفى"

أصبحنا نحن الثلاثة خارج دائرة البوليس، وقررنا الذهاب للمستشفى، بهدف الإطلاع على وضع ليز الصحي، إلا أننا لم نستطع رؤيتها اليوم، كما قالت الطبيبة المشرفة على علاجها يلزمنا ٢٤ ساعة لمراقبتها في غرفة العناية المشددة".

لذلك خرجنا من هناك دون أن نعرف الوجهة التي سنرتادها، إلا أن كاسبر إقترح علينا أن نستعير سيارته إلى الغد، بعد أن نقوم بإيصاله لبيته، جراء شعوره بالتعب والإرهاق والنعاس، وهكذا حدث، ودعناه في مدخل البناية التي يقطن فيها، وإنطلقت مورغ تقود السيارة دون تحديد الإتجاه وهي صامتة كالروبوت.

"دعها يا ماوردي في مواجهة نفسها، فالنساء نصف أحلام، والنصف الآخر رغبات"

كانت مورغ خلف مقود العربة، وكأنها تقود معركة، أمر الذي أربكني، فأقترحت عليها تناول فنجان من القهوة في احدى الكافيتيريات، إلا أنها غيرت وجهة سير العربة، منطلقة نحو منزل صديقتها روزينا، كما عرفت ذلك فيما بعد، ولم ترغب مورغ بتناول شيء هناك، وهذا ما دفع روزينا للإستفسار عن سبب توتر مورغ التي لم تعط جواباً كافياً عن أحوالها الراهنة.

- هل من جديد يا مورغ؟ لا تحاولي تجاهل ما أقصد.

- كلا، ما من شيء سوى أنني أكاد أصاب بالغثيان.
- الغثيان.. من ماذا.. من الرجال أم من أفعال الرجال؟ سألتها روزينا بشيء من التهكم وهي تنتظر إلي.
- بل من كثرة الأسئلة التافهة بالضبط.
- يبدو أن الورطة أكبر ما أظن.
- إذن، حاولي معي أن نخرج الماوردي من عالم الرعب وإنقاذه من المخاطر، فقد عجزت معه من تحقيق شيء، هل تعديني بذلك أيتها الروزينا؟
- حاولت التدخل في معركة التفاهم بين الاثنين، لتهديئة الصخب والتصريحات والقرارات التي تحاك أمامي، ولكن مورغ قطعت علي الفرصة، عندما نهضت فجأة لتعلن لي رغبتها بالخروج قليلاً، ولتقطع وعداً لروزينا بعودتنا إلى منزلها مساءً.
- "يا للرب، إن الجدية تقصم ظهر الفتاة، فيما الماوردي غارق في العبث داخل هذا المسرح الذي ربما لم يأخذ أحد فصوله على محمل الجد، ولكن، هل فعلاً الأرض تحترق تحت قدمي دون أن أشعر برائحة الدخان؟"
- بعد أقل من ساعة، كنت ومورغ أشبه بتمثالين في مواجهة البحر، يغلفنا الصمت، كأن الكلام سقط كلياً من الفم، ولم يبق منه حتى رائحة الإيماء، فهل جاءت بي مورغ إلى هنا، لتمنحني فرصة للتأمل؟
- لا أعتقد ذلك، فالوقت الذي يضغطنا بمكاسبه، لم يمنحنا مثل تلك الفرصة، بقدر ما كنا نحاول الإغترس بالرائحة البحر من المتاعب التي نحن فيها. ربما، أو هكذا أحسست وأنا أختلط بلغة الموج العالية لبحر الشمال، فيما ظلت مورغ جالسة خلف مقود العربة، وهي تتطلع نحو الحقول المجاورة.
- لحساب من يعمل البحر يا مورغ؟ طرحت سؤالاً.
- لحساب الشباك والأقفاص والسنارات.
- وأين الحالمون؟
- لم يزل هؤلاء في طور اللامتكيفين، ويحتاجون إلى زمن ليس بالقصير.
- من أجل أن يتكيفوا مع الصيد؟
- كلا، ربما من أجل الإرتقاء إلى درجة الحس الذي تتحلى به حواري البحر.
- ألا تعتقدين بأن حورية البحر هي الأخرى فقص للذي يبتظرها وللذي يقع في حبها وللذي يكتب عنها؟
- ربما، ولكنها بالتأكيد قصص مرسوم على الرمل، ويستطيع المرء الخروج منه في الوقت الذي يشاء.
- قبل أن تكتمل جملة مورغ الأخيرة في طبقة الأذن الوسطى، كنت وجدت نفسي خارج العربة وأنا أتنفس البحر إلى آخر رذاذ من رذاذه المتطاير.
- "لا أجمل من مواجهة البحر والإستفراد بنظراته، أليس البحر هو الفستان الذي لم يبيل نسجه الأزرق منذ ملايين القرون؟"

هكذا هتفت داخل نفسي وأنا أمتزج فيه على بعد أقل من مترين.

يا بحر الشمال..

يا بحر القراصنة والحواري والغوصات والحيثان.

يا قامة اللحم المرير وياورق الحنين الممزق.

يا غربة مُركبة في المنفى الغارق فينا كحطام تلك السفن النائمة في أعماقك.

أي نشيد يتلى الآن، لسمكة معوقة في منازلك.

أو لسمكة فضت نجبها على الرصيف.

يا بحر الشمال.. أين الطريق إلى الفرات.

وكل حدودك شباك والغام وأفصاص وخفر سواحل.

لم يكن في اللغة أنذاك، سوى الدمع المقطر، وهذا أمر فادح كما أدرك، فبمجرد أن يظهر الدمع في مشهد من مشاهد اللغة.

يتسرب الفساد إلى قوة الدفع في النص، وهنا، لأبد من الهرب والإختفاء، وهذا ماكنت قد فعلته حقاً في تلك الظهيرة، فقد أفلنا عائدين من الماء إلى التثرثرة في حانة كانت مرمية على تلة بمحاذاة الطريق الريفي.

كنت قد أردت الإبتعاد عن شفرة الموت الصدئة داخل الكلمات، ولكن الذي يتأمل الليل وشكل الليل وروح الليل، سرعان ما يدرك بأن اللغة التي تتحدث، انما هي لغة موت لا يمكن الفرار منها.

ومهما تعطل رادار التأمل في اللغة أو في الليل، ستجد نفسك في الفرن.

"هكذا ودون مقدمات يا ماوردي"

اليوم الاثنين.. ولم يحضر الاجتماع الإسبوعي المقرر لهيئة التحرير، سوى السكرتيرة ومحرم واحد من المجلة، وهي علامة شوم، كما إعتبرتها قياساً للظروف التي حاولنا التملص منها ومن متاعبها، ويبدو أن الإمتناع، كان بمثابة إعلان أولي للهزيمة، وليس مجرد انقلاب لتعديل أو تصحيح مسار المجلة بالتعاطي مع القضايا والأحداث الخاصة بالأجانب، فقد طارد الخوف الجميع، بواسطة التهديدات المجهولة، لوضع كل محرر في مكان لا يحسد عليه، ولم يكن بالإمكان مواصلة بث الظمأنينة في القلوب التي طالها الرعب الخفي، فالجرأة مثلها مثل العناد والكرم، طبيعة وليست تطبعاً كما أستطيع أن أجزم.

أشعلت غليوني وأنا أنظر إلى النافذة بصمت، وحزّ في نفسي النظر في ساعتَي اليدوية، كي لا أعطي الإنطباع بأنني بانتظار مجيء أحد بعد مرور ساعة على الموعد، فيادر زياد، وهو محرر الشؤون الإجتماعية في المجلة بطرح إقتراح لتناول القهوة في مكان عام، ربما ليفك الحرج أو شيئاً من هذا القبيل عني، فسألت سوزانا، وهي سكرتيرتنا للعلاقات العامة عن رأيها، فلم تبد إعتراضاً.

وهكذا إنتقلنا في عربتها، تاركين لها حرية إختيار المقهى.

قالت سوزانا وهي تلصق عينيها بوجهي

- هل من شيء يعمل في رأسك الآن يا كابتن؟

"تشرح جثة الهزيمة، لإيجاد المبرر للإسحاب وليس غير، ألم يكن هذا ما تطمحين إلى معرفته؟" أجبتها.

فردت على الفور:

"تفكر بالأشياء القاسية، لا تلغي القسوة ذاتها"

فقال زياد معلقاً:

"لقد إزدادت خبرتنا بمعرفة الأشياء السيئة، وما نحن ننظر إلى صورنا في مرآة مهشمة، ماذا يعني كل ذلك؟".

"ليس غير تغيير المرأة.. أليس هذا ما تقصده؟" أجابته سوزانا وهي ترفع عن عينيها خصلة عن شعرها.

فقلت لهما:

"هذه الساعات وقت خصب لإختراع أجمل أزياء الهزيمة، الآخرون إتكاليون، كل منهم يلقي الحبل على الغارب، وينتظر من الوقت أن يجترح معجزة تزيل الركاب الذي في أفواهنا، يكفي أن تراهم نائمين في مقصورة مريحة، وينتظرون من القطار أن يختار لهم، أفضل المحطات أمناً وسلاماً ونفعاً، أي أنهم يحاولون إستثمار كل شيء جاهزاً، دون التفكير بدفع أدمغتهم إلى دائرة الفعل حتى، أليست هذه هي صورة الواقع المر الذي نحن فيه؟"

فرد زياد قائلاً بشيء من النرفزة:

"عندما لا يتحسس الآخرون حتى صفير الخراب الذي يزحف إلى دواخلهم، جراء أفعال السوء التي يقترفها البعض من الأجانب، فعليهم تقبل ما سينتج عن المناخ الرديء الذي يهيئه الخارجون على القانون في هذي البلاد، أنذاك ستطال يد العنف والكراهية الجميع دون إستثناء، وستغرق السفينة التي تحمل الألوفا على ظهرها في المستنقع، جراء أزاميل المئات من المخربين، ممن لا يهتمون لا بالأجانب ولا يغرق السفينة، ولقد أنذرنا من مغبة الإستسلام لهؤلاء."

فعلقت سوزانا وهي تستعيد صورة مؤلمة بقولها:

"تتملكني الآن صورة ذلك اليوم الذي دخل فيه زياد الجريدة، بعين متورمة ووجهه ينزّ دماً، عندما حاصره الثلاثة في الزقاق الخلفي للمجلة، لينهالوا عليه ضرباً، بفعل التحقيق الصحفي الذي نشر عن أصحاب الشهادات الجامعية المزورة، والممهورة بأختام وزارات العالم الثالث!"

فنطلع زياد لروزينا بشغف، ربما لرغبتته بمعرفة مشاعر هذه السكرتيرة الجميلة إزاءه، والتي لم يكتشفها من قبل، وقال بمودة لإستدراجها.

"وهل كان تلك شفقة وحسب يا أنسة.. أم..؟" ولم يكمل جملته، بل ترك الفراغ لتملأه روزينا. فردت عليه ضاحكة:

"المقاتلون يا زياد، لا يتركون السطور الفارغة في المعارك، ليملأها لهم الآخرون!"

"ها قد عدنا إلى نقطة الصفر معك يا روزينا"

ردّ زياد عليها والعبوس المسرحي يملأ وجهه.

"هنا لندن" عبارة كانت تتكرر في ذاكرتي منذ الطفولة، أعوام الخمسينيات، وكنت أستمع إليها من ذلك الراديو الخشبي الضخم الذي كان أبي يملكه، هو الشخص الذي لا تقوته نشرات الأخبار في مواعيدها. فعندما تطلق دار الإذاعة ابريطانية بثها.

يحل الضيوف من الجيران في منزلنا للإستماع إليها، والسهير مع ما كانت تقدمه من برامج سياسية متنوعة.

"الإنكليز.. كل شيء لديهم ممتاز.. بما في ذلك المكائد!" هكذا كنت أسمع مثل هذا اللغظ الذي لم أفهم شيئاً منه آنذاك في مجالس الكبار، لكن، وبمرور الزمن أدركت إن الإنكليز، هم أول من أدخلوا الشاي إلى بلاد العلجوم مع عساكرهم، ليصبح المشروب الأول، ليس بالنسبة لنا فقط، بل لسكان مستعمرات الأمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، وهم أيضاً الذين دفعوا السياسة والأحزاب إلى عقول أبسط الناس لأن يكونوا من فئة المسييسين في الشرق.

والآن أقول في نفسي:

"أمن أجل هذا، لا يحس البريطاني حرجاً من رؤية الأجنبي في بلاده، كونه إنكليزياً من سلالة المستعمرات القديمة التي جعلت التاج البريطاني مرصعاً بثروات الشرق التي لا تأكلها البينزان لقرون قادمة؟"

"هنا لندن" ولكن هذه المرة ليست عبارة عبر الأثير، كما كنت أستمع إليها في الماضي البعيد، بل بالتماس الجغرافي المباشر على الأرض، فعندنا هبطت الطائرة في مطار هيثرو بعد الظهيرة، أحسست باختلاط الزمن وذوبانه في أنية واحدة، ولم أحس برغبة مغادرة المطار - المدينة الواسعة، دون القيام بنزهة بين أروقتها ومطاعمها وأكشائنها ومقاهيها ومحالها التجارية، وهكذا فعلت. فقد إبتعت بعض الصحف والمجلات العربية، وجلست على مقهى لتناول القهوة وممارسة التدخين بشراهة، تعويضاً عن فترة القمع التي مارستها شركة الخطوط الجوية البريطانية بحق المدخنين أثناء الرحلة من كوبنهاغن إلى لندن.

لم أفكر أبعد من تلك الحدود آنذاك، فالذي لا يحمل غير حقيبة يستطيع رميها على الظهر، يقدر على الدخول المباشر في الزمن، دون لعبة تقسيم اليوم إلى ساعات والساعات إلى أرباع وأنصاف ودقائق، وعندما غادرت المطار بعد استخدام الهاتف، تركت مواعيدي مع الأصدقاء إلى المساء، فكان لا بد من التسكع ورؤية التايمس أولاً، ربما بسبب تعلقي بالأنهار، وثانياً، للإستفاد بنفسي والتفكير على نار هادئة بما أرغب بصنعه، فطبقة الظلام التي أكاد أتكلس بينها وبين اليأس الذي يبني أسواره العالية داخلي، هو شأن روحي قيل أن يكون شيئاً آخر، لذلك أتى عليّ هاجس السفر إلى لندن، بهدف منع الإتهيار، كمحاولة أخيرة قد تمنع إرتطام قامة المجلة على صغر حجمها بالأرض، وفي لندن التي إستقطبت الصحافة العربية بعد العاصمة بيروت، قد نجد المخرج، وإن مؤقتاً للصدور من هنا.

لكن الأصدقاء الذين قابلتهم في المساء، أبدوا إحتفاءهم بي، أكثر من المشروع، وذلك بالنظر لحجم التكاليف المالية الباهظة التي تترتب على الطباعة والتسويق في بريطانيا، وكل ذلك جرى

خارج تكاليف الكتابة التي إستعدوا للمساهمة فيها مجاناً، لدعم المجلة بالنصوص والمواد والخبرات الإعلامية.

في ظهيرة اليوم التالي، وجدت نفسي فجأة في حديقة الهايدبارك، فقلت لم لا تشد العزم يا رجل، وتلقي خطاباً في هذا المكان المأهول بالبشر من كل الجنسيات؟ جلست على ذلك المقعد الخشبي، متأملاً الموسيقيين والرسامين والخطباء والصعاليك والعشاق والشعراء والفوضويين، وقلت في نفسي: ربما كان حلم هتلر أن يخطب في مكان كهذا، فبدأت الحرب، لأن الأكتليز إعترضوا على منحه مثل تلك الفرصة! ربما، فمن يدري بالأفكار التي تدور في عقول القادة؟

ألست الأفكار تهرب في الكثير من الأحيان، مثلها مثل البشر والحيوانات، عندما يحسون بالخطر؟ وها هو رأسك يا ماوردي وقد فرغ من كتل الحجر الذي كنت تثقل به دماغك، يا إلهي! ليس من المعقول أن يتحول هذا الرأس العظيم المعقد فجأة من فرن إلى ثلاجة خاوية من كل شيء، عدا الجليد، لن تكون هناك فرصة للعناد بعد ذلك، والآمال التي كانت ترفرف مثل رايات الكرنفالات، ها هي خرق لا تصلح لمسح الأحذية أو طاولات المطاعم.

ويبدو أن الثقافة من منغصات الحياة بالنسبة للكثير من الأجانب، وأن العصر ليس عصر فكر وفن وثقافة وحضارة، بقدر ما هو عصر "بسنس" وشفط ولهف في مراثون التجارة الحرام وغير الحرام في بلاد جلالة الملكة مارغريتا، حتى الثقافة بالأسود، على سبيل الإفتراض، فإنها لا تجمع اثنين من الأجانب في فكرة واحدة، أو على إتفاق مشترك، ويا للهول!!

هكذا أنهيت خطابي الداخلي الساخط، ونهضت مغادراً الهايدبارك، دون تحديد هوية لمكان أو إتجاه، أليس الأفضل أن يفعل المرء ذلك، وكأنه خارج للتو من رحم أمه؟

السيدة التي كانت جالسة إلى جوارى، كأنها الشخص الوحيد الذي إستمع إلى الخطاب السري الذي كنت قد إنتزعت كلماته من فمي على طريقة ما يفعله أطباء الأسنان مع الرحي الغائرة الجذور والمستعصية، فأمسكت بيدي قائلة:

"إجلس، ما زال الوقت مبكراً، ثم إن كل الأمكنة والأزمنة تشابه بعضها، عدا بعض الفروقات التي نضيفها بنفسنا عليها، كي تبدو مختلفة بعض الشيء" ثم أضافت تلك المرأة الستينية:

- ألسنت أنت من بلاد العرب؟
- نعم، هكذا يقال، من العرب الدون بلاد، وماذا عنك أنت أيتها السيدة؟
- أنا بلاد دون عرب الآن! أي بعكس ما قلته تماماً.
- هل يعني ذلك بأننا كطرفين لمعادلة واحدة في نهاية الأمر؟
- لا تتعب نفسك بالرياضيات، فقد تخسر كل الأرقام دفعة واحدة، لأن ثمة خواص نادرة لكيمياء الأجساد التي لدينا.

- هل السيدة مختصة بالكيمياء..أم ماذا؟
- يعني، ألم تر أفلاماً قديمة لراقصة كانت تجعل من الدنيا زيباً زمبليطاً؟
- آ، أتذكر، فالتاريخ الذي لدينا، لا يعطينا من هذا الحق، هل أنت "ثريا" أليس هذا صحيحاً بحق الشيطان؟

- أجل، وها أنت تقعد إلى جانبها بسهولة، يوم لم تكن تسمح أنذاك، إلا بمجالسة الباشوات والوزراء والأعيان!

- وأين هم الآن؟ ألا تزالين تفكرين بسلطة الجسد الذي لدى الراقصة، وأنت في مثل هذا العمر؟

- إسمع، سلطة الجسد لن تنتهي مع الزمن، إنها تحيا في ذاكرة من عاشها وإستسلم لها برضاه ذات يوم، لذلك تجدني في الكثير من الأحيان وأنا أرقص وأراقص الآخرين ذهنياً، لقد كنت أحكم بدأ أكثر ممما يحكمه القانون، وليس من خطأ في ذلك كما أظن، لأنه أفضل من اللاقانون، وهذا لا يثبت بأنني كنت قاسية ومرعبة ومتسلطة، بالعكس فقد كان الجسد الذي لديّ آنذاك، يخفف من القسوة والعنف على الكثيرين، ويجعل غلاظ القلوب أرائب زينة، فإنك لتلين الحديد، ضعه في حضن المرأة، فاقسى الرجال سلطة، أولئك الذين يديرون ظهورهم للنساء، وهذه الراقصة التي إليّ جوارك، خدمت الأمة ثلاثين عاماً من تعاقب الحكومات التي كانت ترميكم بأحجارها نهاراً، وترثمي عند حجري في الليل.

- ستتالين الثواب العظيم يا سيده! وأرجو أن تتالي ذلك عن جدارة؟

- لا تحاول النيل من أحد بالسخرية، فلو كانت الجنة بيد مخلوق من جنسكم، لأقل أبوابها دون البشر، وظل يهز مع الراقصات "من أين خرج عليك التاريخ هذه المرة يا ماوردي؟ فلو كتبت هذه الراقصة سيرتها، لتهدمت تماثيل كثيرة في بلدان الشرق، وهل تدرك يا ماوردي إن التاريخ الحقيقي، هو في راس هذه المرأة؟

قد تقول تلك ترهات ومبالغات، ولكنك لو حفرت بالأبرة في ذهنها، لخرج عليك طوفان من الروايات والأخبار والأسرار. ألسنت صحافياً؟ إذن خذ هذه المتعة التاريخية الطارئة التي لم تكن تخطر على بالك في يوم من الأيام؟".

عندما دعوتها للعشاء في أحد مطاعم، رفضت ذلك بلباقة، ولكنها رحبت بفكرة تناول الشاي في المقهى، وقبل أن نتوجه إلى الخارج، تناولت الهاتف من حقيبتها وتحدثت مع أحد ما بلغة فرنسوية، فسألته بعد الإنتهاء من المكالمة، إن كانت تفضل مقهى محدد هنا. معتدراً عن جهلي بمعرفة خريطة لندن، فردت عليّ ضاحكة:

"سنركب العربة أولاً، وبعد ذلك ستقرر...".

لم أكن مشغولاً أو قلقاً من التفاصيل: الحديث أو المكالمة أو السيارة الفاخرة التي إنطلقت بنا في جولة داخل العاصمة، فحتى الآن لم أفكر بالأشياء السيئة مع هذه المرأة المحتشدة بالتجارب، والتي بنت عقلها على نحو مختلف للبناء الذي تم لعقولنا في المدارس والأحزاب والمنظمات الثقافية ومقاهي الصباح ونوادي الخمر والنقاش النكدي في الليل، فبنيان عالم الراقصات، عالم مختلف، عالم مزيج من اللذة والمرارة، من الحرية والقيود، من الموت والحياة في آن واحد، وجسد الراقص المجسم لا يثير رغبة القراءة، بقدر ما يدفع الأفواه لأن تفتح بواباتها إلى الحدود القصوى، فهناك الكثير من المعاول الصدئة التي تحرث بالصد من رغبة أراضيهم في الكثير من الأوقات.

إنتهت حفلة الشاي في المقهى، ولم ينته نهر الكلمات، فقد كانت ثريا طبيعة عارقة بالرموز، لا تدخل التفاصيل، بل تلوح بنشرها كاملة الوقائع، وقد أدركت بسرعة البرق، أن إقتحام راسها ليس بالمسألة المعقدة، ولكن في الوقت المناسب، أي عندما يتضخم الماء المر في الذاكر، ويهدم السدود

والموانع التي في طريقه، وهذا جائز على ما أعتقد، ففي مرحلة ما، لا يستطيع المرء خزن ما في دواخله إلى ما لانهاية، على الأقل من أجل تطهير النفس من المعلومات التي نعتبرها نحن ذنوباً. شكرتها وأنا أستلم الكارت الشخصي لأسمها وعنوانها ورقم هاتفها والتلفاكس، ومتفقاً معها على اللقاء عصر اليوم التالي في المقهى ذاته.

"غداً، سنكون لدينا مادة شهية للمناقشة، فأرجو أن يكون إستعداداً مثالياً يا ماوردي، إلى اللقاء"

كانت هذه هي الكلمات التي نطقت بها ثريا وهي تودعني مساءً عند باب المقهى. ببربرية منطرفة، أخذت أجلد ذهني بالأسئلة الحادة، وأنا في الطريق إلى الفندق الذي أنزل فيه، إلا أنني سرعان ما قررت تغيير الإتجاه، مقترحاً على نفسي شرب الجعة بهدف التفاوض مع نفسي ذاتها، فالمرء، ومهما كانت براعته في تمرين ذاته على أحوال الدنيا، إلا أنه لا يستطيع إكتشاف نفسه الكامل، هناك مناطق وعرة من الذات البشرية، لا تمكن المرء من دخولها إلا في اللحظات المناسبة، فعوالم الذات ليست جغرافية وحسب، بل هي نسيج مكثف من مادة لم أستطع إكتشافها تماماً، على الرغم من إدعائي الساذجة بمعرفتها أحياناً، ولذلك، فتفاوض المرء مع نفسه، من المشقات كما أستطيع القول، لأن لا سؤالاً محدداً على أرض النفس، ولا جواباً قاطعاً لها أبداً، فالأسئلة تسيل وتتجمد، والإجابات تفتقر أعلى الموانع.

لقد كان اليوم التالي غائماً في لندن - هو شبه مشرق بالمناسبات طبعاً- وبعد حفلة الشاي والأحاديث المتفرقة، هيأتني ثريا لمغادرة المكان، فشعرت بعيون الرواد تشيعني، وهو ما بث بعض الخجل في نفسي من رفقة هذه التاريخ الذي يمشي إلى جانبي.

هزرت رأسي دون شعور، وقلت بصوت عال:

"ليكن ما يكون"

فنظرت ثريا بوجهي وهي تقول:

"هل من أمر يا ماوردي؟ فأجبتها بنعم، مشيراً إلى ساعتني.

"إنها مثل الكائنات الحية، تعظ في بعض الأوقات"

"وهل ثمة إرتباطات لديك؟ أرجو أن لا يكون ذلك، لأنك مدعو على العشاء في منزلي" هكذا سألت، وأضاف في آن واحد.

فأجبتها مازحاً:

"من أجل ديك رومي مطبوخ بالنبيذ، يمكن إستبدال المواعيد أيتها السيدة؟".

عندما أصبحنا على عتبة منزلها وسط العاصمة لندن.. قالت لي وهي تدبر المفتاح في قفل الباب:

"معي صديقة فرنسية أسمها "سونيتا" إنها كاتبة وصحافية مميزة، وتسكن معي في المنزل، وهي تعرف بأنك ضيفنا في هذه الليلة"

فطأطأت لها براسي متفهماً، ثم دخلنا المنزل المتحف، صافحت السيدة سونيتا، وتبادلنا الإبتسامات، متطلعاً في فضول إلى المقتنيات الفنية والصور واللوحات التي تنتزع الجدران وزوايا الصالة، ولم أتخيل كيف وصلت إلى هنا من خلال هذه الصدفة التي غالباً ما تحدث في السينما فقط.

بينما كانت السيدة ثريا، تعد لنا الأرواح في الكؤوس، بعد طرح السؤال التقليدي عن نوع الشراب المفضل لشحن رؤوس ضيوفها، تناولت حقيقتي اليدوية، وإشغلت بالبحث بين الأوراق، هو ما أضيف طابعاً جدياً لدى سونيتنا لتسأل: "إن كنت قد فقدت بعضاً من أوراقك أم شيئاً آخر؟"

فتأملت في وجهها ملياً، وأجبت متسائلاً: "أجل، أريد أن أتأكد إن كنت قد جلبت الحظ معي أم نسيته كالعادة!" فضحكت الاثنتان طويلاً، ولم أكن أتوقع أن يكون لسونيتنا المعرفة باللغة العربية بطلاقة، فقد أخبرتني بأنها عاشت رداً طويلاً من الزمن في القاهرة وبيروت، كمراسلة لصحيفة فرنسية، وهو أمر زاد في إنعاشي، أنا الذي فشلت على طول الخط بإتقان أية لغة أجنبية، ربما بفعل الغباء الذي أتمتع به، أو بسبب اصابتي بمرض اللغة الأم، وإنعدام وجود مساحة كافية للغات الأخرى في دماغي، أو لأن المنطقة المخصصة للغات الأخرى، ما تزال مقفلة مثل الصحراء بفعل عامل فيزيولوجي، المهم، لا أعرف، فكل اللغات تدخل أذني الشمال، لتخرج مهرولة من الأذن اليمنى، أشبه بأشخاص مطاردين من قبل الأنتربول، أو لنقل بشكل أكثر فانتازية: إنني أفكر بحقوق فصيلة من البشر: المترجمون، أي يذهب هؤلاء، عندما يتقن البشر لغات بعضهم البعض؟ ألا تموت الترجمة في مثل تلك الحال؟

كانت الطاولة زاخرة، وكان الكلام سلة فواكة تتبخر منها الذكريات، لتضيف للطقس نشوة أشبه بلون الشفق عند الغروب، وكنا نحن الثلاثة - عدا جورجيت الخادمة الوسيمة التي يطلق عليها مديرة المنزل، والتي تتردد علينا بين الفينة والأخرى، وباليتهأ أخذت مكان الاثنتين - من راكبي الهوادج، وبمحاذاة نهر طويل اللسان، ما أن يدرك المرء سعادته في شيء، حتى يجد شيئاً آخر، أجمل من الأول بالكثير من الزخارف والألوان، أليست هذه هي السعادة: وهم مستمر من الفلسفة والمال والجنس والغرور والثقافة والرقص والغش والحلم والخيانة والتأليف والجمال والقسوة والدعارة والأزياء والحب والجنون.. وإلى ما لانهاية .

"ألم تكن يا ماوردي مع الراقصة، فاصبحت مع الكاتبة، وها أنت تتابع الخادمة جورجيت بحواسك المنظورة وغير المنظورة، أليست السعادة في التحول، أم تلك خيانة كما ينص عليها القاموس؟"

- هل توافق مبدئياً على تبني المشروع والتوقيع على عقد عمل: تنسيق وترتيب وكتابة سيرتي الذاتية؟

سألتني ثريا بشكل مفاجيء، وهي تنتظر برغبة مشوبة بالقلق رداً قاطعاً.

- وهل سبق وأن عرضت المشروع على أحد ما؟ سألتها.

- أجل، على ثلاثة من الكتاب وصحافي وقد وافق هؤلاء في البداية، وما لبثوا أن قدموا إعتذاراتهم عن تنفيذ المشروع.

- ولم حدث ذلك؟

- ربما كان ذلك بسبب الضغوط والمخاوف التي تعرضوا لها من قبل بعض الأطراف الاجتماعية والسياسية هنا وهناك، فقد افادهم البعض بأن الإجراءات ستشمل سحب جوازات السفر وإسقاط الجنسية وتعريض عائلاتهم للملاحقة والإعتقال.

"يا للرب، إذا كان نشر السيرة الذاتية لراقصة واحدة، تستدعي كل هذه الإجراءات الإرهابية! فكيف الحال إذا ما قامت راقصات العرب جميعاً بنشر مذكرتهن؟! أية كارثة سنتفتحها على نفسك يا ماوردي هذه المرة؟ لقد جئت إلى لندن من أجل أن تدفع عن المجلة 'إرهاب عصابة ضالة، وها أنت تدخل في دائرة إرهاب الدول، قل يا ماوردي لهذه العاهرة التي أمامك: أنك لن تستطيع إعادة ما هو مأكول من لحم جسديك أبداً، وليس عليك إلا أن تضعي بفمك أكبر أحجار الطبيعة وتخرسي، قل لها يا ماوردي أن لا تلحم بحكم الباشوات والأعيان والوزراء والأثرياء وأحفادهم مرة جديدة، فالشرف الرفيع لا يسلم من الأذى؟ وإن لم تستطع فعل ذلك.. إقفز من النافذة يا ماوردي حالاً، ودع الراقصة تهز خصرها وصحونها وذهنها وبطنها وأموالها وحيطان منزلها الفاخر لوحدها وحتى الموت، فالذي فيك يكفيك!"

لكن الفكرة التي طرحتها عليّ ثريا، كانت بمثابة رمح إخترق الدماغ، وهي فرصة قد أكون محتاجاً إليها، دون أن أسميها أو أعرف مضمونها على وجه التحديد، لذلك لم أمتنع أو أسجل اعتراضاً على المشروع، فقد قمت فوراً بإعادة جدولة ترتيب ذهن أو تنظيفه بالضبط، وكأنني بذلك، قد أطلقت أضخم فصائل الفئران لتسحق الأشيف الكبير الذي كان في أعالي الراس، "ولم لا تجدد يا ماوردي الصور والأفكار والمعلومات القديمة بجديد السيدة، فقد أتعبتك الشبطين وملاتكة الأنابيب؟"

- يا سيدة ثريا، أنا موافق، وجاهز لتوقيع عقد العمل فوراً.

- يا ليوم السعد الذي أنا فيه، قالتها بذهول، مضيئة: سيأتي اليوم الذي سأنصب لك فيه تمثالاً، في حديقة الهايدبارك، أي في المكان الذي كنت إلتقيتك فيه، فهل أنت متأكد من قرارك يا سيد ماوردي؟

- وهل لديك محام تستطيعين إستدعاءه الآن؟

- أجل، والناشر الانكليزي أيضاً.

تنهض السيدة نحو التلفون وهي في أبهى حالات السعادة.. لتستدعي المحامي الخاص بها، والناشر الانكليزي معاً، للإضمام إلى السهرة معنا.

"ولم لا.. إذا كنت الفكرة تتعلق بالسلطة، امرأة تنهض من الرماد لتستعيد ثلاثين عاماً من الحكم والرقص والمجد الذي دفعنا ثمنه تحت شعارات ويافطات، ظهرت كلها لعنات في النهاية التي لم نر خطها بعد!"

"ولم لا تقول بأنها تحاول ختم حياتها بقنبلة من العيار الثقيل؟".

"لا تستعجل الأمور كثيراً يا ماوردي، قبل أن تصبح كاتب سيرة هذه الدعارة الجميلة، فيوم كنت أنت مراهقاً، وكانت هي على عرش الفن، كنت تمارس العادة السرية على صورها في المجالات والأفلام، جيل كامل كان يفعل ذلك، في حين كانت هي تنام في حضن وزير أو ثري تافه أو خنزير من خنازير الحكومات."

"أكانت تتوسل إليك الآن، لو لم يضربها الخراب بزلزال عنيف؟ أم هي بلوى جديدة، تصطف أمامك على ضفتي الطريق، وأنت كالأعمى فقد عصاه، تلك التي يطلق عليها الأكابر بالوصولجان؟".

أفقت صباحاً لأجد على المنضدة الصغيرة في غرفة نوم الضيوف، نسخة من العقد موقعاً وجاهزاً مع كل ما يترتب عليه قانونياً، وربما كان ذلك بهدف معرفة ردود فعلي، فقد كان ذلك الصباح مثالياً، فبدل فنجان القهوة شربت الخادمة جورجيت ساخنة وبالحليب ومع كل ما في العالم من حقول السكر، وبعد أن قامت الأخيرة بتلخيصي ورقة وريقة، طرحت عليها سؤالاً غامضاً قد يثير بعض البلبلة في نفس سيدتها:

"إن كانت هي الأخرى قد وقعت على هذه الأوراق أم لا؟"

فضحكت بخبث لم يفسد الخيال، فيما راحت يداها تفككان صخور جسدي تحت طائلة المساج في غرفة الساونا الملحقة بالحمام، قلت لها ذلك، لأنني أعرف أدوار الخادمت، فأغلبهن يعملن بمناياة مخبرات لسيداتهن في المنازل والقصور، والواحدة منهن رشوة رخيصة في أبسط الظروف تعقيداً.

كنت غارقاً بتأمل جسدها الصحراوي الذي تنتصب فيه تلك الخيمة السوداء من الوبر الفاحم، وسائلاً نفسي: ترى لم يهرب الرجال الأشاوس من ملوك وأمراء وأثرياء وموظفون كبار من فراش زوجاتهم إلى مخادع الخادمت بالسر؟

وقلت لأفنع النفس الأمارة بالسوء: الزوجات هن التفاح - رمز الخطيئة الأولى - والخادمت هن رائحة التفاح، لذلك يشبع الرجال من الأكل، ولا يشبعون من الرائحة، أليس هذا هو السر؟ ربما!

لم تجب جورجيت، فقد أدخل البخار نفسه في مسام جسدها، لا ليثبت نظرية دورة الماء في الطبيعة، بل ليطارد تلك الرائحة التي نتورط وهماً بصيدها، فيما لا يمسك الفخ أحداً بمخالبه غيرنا.

عند حوالي الظهر.. كانت السيدة ثريا قد عادت من البنك بأوراقها الخاصة، حياة الثلاثين عاماً من الرقص والترقيص، الأبهة والبكاء، الأضواء والألم الذي لم تستطع العدسات إنقاطه، كانت مرحة إلى حدود إنك تستطيع مسك سعادتها، كما لو كنت فيثاراً ورث عن الأرض كل المعزوفات، وعندما وقعت عيناها على الملفات، قلت لنفسي: كم سأحتاج من الأيام، لتتساق وتترتيب هذه الأوراق، لأبدأ كتابتها بفن وأمانة، دون أن أخون شرف هذه الراقصة التي خدمت الأمة، أو أقع في مطب خاطيء لتشويه السرة الذاتية الجليلة لهذه السيدة!!؟

لم أكن متشوقاً لقراءة الفضائح، بقدر ما كنت أسعى لفهم ما سيرشح من ترسبات عن أبطال تلك القصص، فربما تلك هي متعتي الوحيدة التي قد تتيحها لي تلك الأوراق والكاسيتات الصوتية التي ستسحقن معي إلى الدانمارك، فأنا لا أستسلم للفضائح بشكل عرضي، بل أنخرط في مناخها لأستخلص عبارة أو عبرة عن العش القومي الذي نسكن فيه.

- أراك اليوم مشرقاً يا ماوردي؟ قالتها ثريا، جملة لتصيد صحة الوضع من الصنفقة، وكانت تبتسم.

- ولم لا، وكل الشرق هنا أيتها السيدة؟ بل ولو لم يكن هنا لقمنا بإستدعائه فوراً، أليس كذلك يا عزيزتي سونيتا؟

- أنت شخص من الذين يبنون أجمل أفكارهم من الأفاض، وأنا أحسبك على ذلك يا صديقنا الماوردي.

- ومن الذي يعيدون إنتاج البكتيريا، كي تكون صالحة للإستعمال في عصرنا.

فنظرت السيدة إلى جورجيت، وغمزتها بطرف عينها لتسحب خلفها إلى غرفتها الخاصة، فأدركت بأنها تريد الإستماع إلى التقرير الكامل عن أحوالي، فماذا ستقول لها مديرة المنزل؟ لا أدري.

إزاء هذا الأسلوب التجسسي، تقع مصائر ملايين الناس بين أيدي المخبرين، ولكي أقطع عن نفسي التفكير بما ستقوله جورجيت لسيدتها، إعتبرت بأن تقريرها سيكون في صالحني، عدا نقطة واحدة، قد يكون تفسيرها لدى السيدة مختلفاً بالنسبة لي، وهي ذهاب الخادمة معي إلى الدانمارك، كمساعدة لي طيلة فترة صياغة المذكرات وإعدادها وهو ما نص عليه العقد كما أردت، ولا أعتقد بأن الشرط سيكون تعجيزياً، خاصة وإني اكتشفت إرتياب ثريا، من تعلق سونيتا الشديد بجورجيت، وهذه قد تكون فرصة مواتية لإبعاد الاثنتين عن بعضهما لفترة من الزمن، أو للقضاء على هذا الحب، إذا ما كانت الرغبة جاهزة لدى السيدة.

فقلت لسونيتا وأنا غائم بعض الشيء:

- ما مدى تقديرك للمشروع بشكل عام؟

فأجابت وهي تقضم شفتها السفلى بأسنانها:

- لا يمكن أن نسأل السمكة لماذا إنتلعت الطعم بعد خروجها من الماء؟

كان الجواب صاعقاً بالنسبة لي، فهو أشبه بتحذير مريب أو هكذا، أو لنقل بأنه تحذير مبطن من مغبة الموافقة على المشروع، لذلك هرعت إلى البار الواقع في زاوية الصالون، ملتقطاً أول زجاجة من خموره لأدلق ربعها في جوفي، ثم لأصرخ بعدها:

- سيدة ثريا، هل كل شيء جاهز؟

- فخرجت هي وجورجيت من الغرفة والذهول بادٍ على وجهيهما.

- هل حدث شيء يا سيد ماوردي؟ سألت وكأنها تعتذر عن شيء سيء قد يكون وقع فجأة.

- كلا، ولكن على أن أعادر، هل كل الأوراق والأشرطة جاهزة؟

فسألنتي وهي تتطلع في وجه سونيتا بشك واستغراب:

- أجل، كل شيء على ما يرام، بما في ذلك جورجيت التي قررت الذهاب معك للمساعدة، ولكن قل لي بحق الشيطان، مالذي حدث بالضبط، لتفعل هذا فجأة؟

"ولم ذهاب جورجيت، هل هي طاولة ليفرش السيد الماوردي عليها أوراقه؟ أنت أحوج إليها منه، أليس كذلك يا سيدة ثريا؟"

- كلا، لأن عمل السيد سيكون شاقاً لو قام بتفريغ أشرطة التسجيل وحده، ثم أنني أستطيع الإستغناء عنها حالياً بسبب ذهابي إلى هونغ كونغ.

لم أشعر برغبة في الرد، فقد حملت حقيبتني اليدوية بيد، وصندوق الأوراق باليد الأخرى، وأنا أرتج سخطاً، وتوجهت نحو الباب فيما إنتظمت السيدة مفاتيح السيارة وخلفها مديرة المنزل وهي

تحمل حقيبة أشرطة التسجيل، بالإضافة إلى حقيبة ثيابها، وكان الطريق نحو الفندق، حيث تمت من هناك إجراءات الحجز، لننتقل بعدها من مطار هيثرو إلى كوبنهاغن.

قالت السيدة وهي تودعنا:

"سنبقى على إتصال دائم، ولا بد لي أن أعرف ما حدث لك يا ماوردي مع سونيا! إسهري على راحتك يا جورجيت"

كنت إلى جانب النافذة وأنا أقذف بعيونني وذهني في الأفاق البعيدة، فيما كتل الدخان تحلق فوق رأسي، وفجأة تطلعت إلى جورجيت قائلاً لها: من حسن الحظ أن التدخين مسموح في رحلات الخطوط الجوية الهولندية، ولو لم يكن كذلك، لكنت إقترحت عليك قطع الطريق مشياً على الأقدام من لندن إلى كوبنهاغن، فابتسمت جورجيت وهي تضع رأسها على كتفي.

بدأت تحولات الطقس واضحة في منتصف سبتمبر، فنحن على أبواب الخريف، الغيوم والأمطار الخفيفة والقليل من البرد، فروح الشتاء، تكاد تسكن كل الفصول في الدانمارك، وهو ما يدفعني في بعض الأحيان، للتفكير بلصق أو تثبيت شمس صناعية على السموات الأسكندنافية، بواسطة مسامير عملاقة، لكن، وكما تبدو الوقائع، فحدث ذلك يبقى هو الآخر صعباً، بفعل ما تنتجه الأفواه من أبخرة البيرة، والتي ستحجب الشمس التي نتخيل لصقها هنا.

إذن، لا فائدة من عمل ذلك، ففي كل الأحوال لا شمس لدينا، وعلى المرء أن يصنع شمسه الخاصة، لأهمية الأمر، فذلك أفضل لمواجهة الانقلابات الدائمة في المناخ، لأن الطقس، هو من يبني السلوك البشري في هذه البلاد، والدانماركيون أمزجة لا تحتاج إلى تلسكوب لقراءتها.

كنت أحدث جورجيت عن المناخ، فيما كانت عيونها غارقة باستطلاع جمال الريف الدانماركي الرائع، من خلال نافذة السيارة التي تقلنا لإستلام المنزل الريفي الذي قررت الانتقال إليه، بعد الطلاق الذي جرى بيني وبين عوالم المدينة، والذي لا يشبه في كل الأحوال أوراق الطلاق التي يوقع عليها البعض من الأجانب، للإفصال الصوري عن زوجاتهم حيلة، بهدف كسب بعض الكروونات وهي ظاهرة بلغت أوجها في صفوف الأجانب، كما تقول بعض الإحصاءات، فالمرء الذي يوافق على الانفصال الصوري، وإن بالتزوير المتفق عليه بين الزوجين، يصبح أمراً حقيقياً بمرور الوقت، كما هو ضربة موجعة للتقاليد الأسرية والدينية في نهاية المطاف.

لقد كنت أفكر بالانتقال إلى الريف طيلة الشهور الثلاثة الماضية، أي بعد الإعتداء الأول على منزلي، ثم حالة الإغتصاب التي تعرضت لها مورخ، وما أعقبه من إعتداءات، كان آخرها ضرب "كاسبر" والرضوض التي تلقفتها جمجمة "ليز" التي خرجت قبل إسبوع من المستشفى بفعل تلك الجريمة الوحشية.

كم إن السكن في الريف، كان حلماً قديماً يراودني خاصة بالنسبة للكتابة، وها هو مشروع السيرة الذاتية لثريا وقدام جورجيت إلى هنا، يضيف سبباً أو دافعاً جديداً للانتقال إلى الريف، من أجل التمتع بهدوء أفضل، ونسيان عالم المدن، هذا بالإضافة إلى أن حلم الإستمرار بإصدار المجلة، قد تهشم نهائياً جراء الضغوطات على المحررين والإعتداءات عليهم، وعلى مكتب المجلة الذي تعرض إلى حادثة إشعال النيران في مقتنياته أثناء غيابي في لندن.

إذن.. فالهزيمة بكل مظاهرها قد وقعت، وبدلاً من أن يعاقب الجناة المجهولون، صار عليّ الاختفاء والتواري عن الأنظار التي لم تعد تتحمل رؤية فاضح سفالاتها في هذه البلاد، فهؤلاء الأوباش لا يتوانون عن إعلان الإنتقام الذي طالما هددوا وتحذثوا عنه ضد كل من يقوم بتضييق الخناق عليهم، من خلال كشف مخالفتهم ضد القانون، ويبدو ان المكافأة، أصبحت في الإتجاه المعاكس، تحويل الإنتصارات الصغيرة التي حققتها المجلة ذات يوم، إلى رعب يلاحق محرريها.

"وما رأي المديرية الجديدة بالبيت الريفي، أليس رائعاً؟" سألت جورجيت.

"ها أنت قلت ذلك، وأيان يحل الماوردي فالمكان رائع" أجابت، مسددةً نحوي الجملة الجميلة، وهي تتفحصني كدريئة مستسلمة.

"الله الله.. ها أنت تمنحين الماء للصفصافة اليابسة بسخاء، أليس في ذلك مبالغة يا امرأة؟".

هتقت بها وأنا أرتب بعض الأثاث في الصالة الصغيرة، فيما كانت هي تفرش الأغطية على السرير، وربما كانت تفرش الليل هناك أيضاً، فالنساء يتصرفن على غرار طبيعة النور، ينتصبن في مكان، ويتسربن إلى كل الأمكنة التي تستطيع استقبال الضوء الأحمر الحار المدمى بالتأوهات، لذلك، فمن المخاطر الجدية على المرء، أن يقوم بحبس ذلك النور في دورق من خشب أو ما يشابهه.

في السابعة مساء.. رن جرس الباب، فكان في الخارج امرأة وسيمة في الخمسينات تحمل باقة من الزهور، فيما وقف إلى جوراها رجل بدين أحمر الوجه، ويبدو أنه في الستينات من العمر، لم تكن نتوقع مجيء أحد، كما لا يعرف أحد عنوان السكن الجديد إلا الدكتور الوراق.. والذي لم أمنحه ترخيصاً بإعطاء عنواني ورقم الهاتف لكائن من كان، عدا مورغ التي حاولت الإتصال بها مرات عديدة، دون أن أبلغ مكانها، ولا أن أكتشف سبباً واضحاً لغيابها بعد وصولي من لندن.

عندما فتحت الباب، قدمت لي السيدة باقة الزهور، قائلة:

"نحن جيرانك ونرحب بكما في هذه القرية، فيما صافحني الرجل مقدماً لنا الدعوة لتناول القهوة في منزلهم عند تمام الساعة الثامنة، فشكرت الاثنين على البادرة الطيبة قائلاً:

"سنفعل ذلك بالضبط" فحياني الاثنان عاندين إلى منزلهما الذي يقع إلى شمال حديقة بيتنا.

جلست على الأريكة متأملاً الطبيعة من خلال نافذة الصالون، فيما دخلت جورجيت للحمام للاغتسال، كان الزمن توقف قليلاً، هكذا أحسست دون أن أجد تفسيراً منطقياً لذلك، فليس المنطق طيقة واحدة لتبرير الأشياء، فهو الآخر مناطق متجزئة، منها ماهو منخفض، ومنها ما هو عال بتوتراته، ومنها ما ينتمي إلى المناطق المهشمة التي لا ينطبق عليها منطق في بعض الأحيان، فطالما حاولت أن يكون ذهني كبركة ماء راكدة ومعزولة عن أي مورد، ولم أستطع نيل تلك الفرصة أبداً، وحين يبلغ بي التعب المدى الأقصى، أذهب للكتابة بهدف تكفيك تلك المخلوقات في حجرات الذهن، وطردها إلى أسطحه النص.

ها هو الريف الذي طالما بث السحر في نفسك، فتوزع على نشواته بالتدرج، لنلا يتجمد تموجه في أعماقك وتفقد طغيان جماله عليك، فالمخلوق البشري بستان أيضاً، ولكن لمجرد أن يتسرب إليه الاتهاك يتحول إلى جدارية سميكة وسيئة، لذلك ترانا نلصق الصمت بالطبيعة، ونمنح النطق وهماً لذواتنا فقط، وعندما نتورط بالكلام، تخرّ الأحجار من أعماقنا بالتتابع، فكل جملة لدينا مسطبة يرقد فوقها جثمان، ولكننا نخدع بعضنا ببلاغات لم نفهم منها إلا الموت، تذكرت هذا فجأة، لأنني في حالة تجميع العوالم المبعثرة في أعماقي، تلك العوالم التي فشلت بالوصول إليها، ربما لأنها أراض مأهولة بكائنات ترفض إتخاذ خطوة جدية للقاء مخلوقاتي المنظورة، هذي التي تجلس معي وتفكر عني وتكتب لي وتنام لتعلم بإختراق العالم الداخلي الذي مازال مبهماً وشائكاً.

- هل أرف موعدي لزيارتنا للجيران يا سيد ماوردي؟

سألت جورجيت وهي خارجة عليّ في روب الحمام، وكانت تفرك شعرها بالمنشفة.

- بقي نصف ساعة على ذلك، فهل ستكون القشطة السمراء جاهزة؟

- هل ثمة قشطة سمراء يا ماوردي؟

- ودون تأجيل أو تأمل أو تفكير صرخت: أجل، إنها القشطة الجورجيتية، يا سبحان الله! هنتفت دون وعي مني، متذكراً خبز الصاج الشفاف، عندما تدهنه بالزبدة ساخناً! أليست هذه هي جورجيت؟ نعم، ولكن يفارق واحدة، هو أن خبز الصاج يفقد حرارته ويجف سريعاً، فيما جورجيت ذاتية الحرارة، تجفف ولا تجف!!

فقلت وهي تراقبني عن قرب:

- وماذا عن صمود الرجال يا ماوردي؟

- أفضع الهزائم أمام الجمال! وليس من عادتي أن أفعل ذلك حتى أمام التماثيل الجميلة.

فأدركت اللعينة المعنى، شابكة ذراعي، ومتجهة نحو الباب للخروج بإتجاه جارنا، وفي الطريق الذي هو أقل من عشرين ياردة بين المنزلين، همست قائلة:

"أنا أحس بالدبيب الذي يسري فيكم، فكيف بالذي يتهدم أمامي كالجبل، قطعة قطعة!!".

دخلنا منزل البحار، وكانت جملة جورجيت العاصفة، ما تزال تشيل وتحط أحجار الجبل المبعثرة، إلا أن الكلب أعادني إلى اليقظة من جديد، فتحدثنا عن المناخ وروح الريف والكلب "بوب" والمزرعة والمجلة وزربية الحيوانات والحبّ "الكيسوك" الوحيد في القرية- يعني بالعربية الدكان- وبعض الموضوعات المتفرقة، فشرنا بإلفة حادة تجرّفتني نحو الشخصين: سورن وزوجته فيبكا.

كان لا بد من وضع خطة للعمل في هذا الصباح، هكذا وجدتني أنهض من السرير مفكراً بالتخطيط لشبئين، الأول يتعلق بتحويل المجلة إلى نشرة إسبوعية تكمل عملنا الماضي، ولا تمنح الهداريس حتى فرصة لتخيل الإنتصار. والشىء الآخر البدء بالإستماع إلى أشرطة التسجيل وتفريغها من المواد، ليتم دمجها مع الموضوعات التي تتضمنها الأوراق، بهدف تنسيق السيرة الذاتية للراقصة ثريا، كما جرى الإتفاق على ذلك في عاصمة الإنكليز.

وللهجة.. فقد سبقتني جورجيت لتنفيذ البند الثاني، عندما وجدتني في غرفة المكتب، وهي تقوم بتفريغ مواد الشريط رقم "١" بواسطة آلة التسجيل، فهذه المرأة كما يبدو، تحاول أن تجعل من النشاط فضيلة لدى، فقد نهضت مبكرة، لتعمل القهوة وتنجز الإفطار وتنقل المذكرات على الورق، وهو شيء طارىء على حياتي المليئة بالكسل والعبث.

"ربما هي أوامر سيدتها ثريا، تجهيز المواد ووضعها تحت تصرفي بسرعة، منعاً لهدر الزمن، فالوقت من كبرى مشاكل الراقصات، كما يدرك ذلك خبير الفن"

وعلى الرغم من أنني سررت بما كانت تفعله جورجيت، إلا مشاعر الضيق سرعان ما إبتابتني، فقد كنت أريد الإستماع المباشر إلى الأخبار والمعلومات التي سجلتها ثريا بصوتها على تلك الأشرطة أولاً، وثانياً من أجل أن لا أقوم باعادة شيء منها، للتنقيب عن معلومة قد اشك بصحتها، ولكن لآباس من إستمرار جورجيت بنقل ذلك، لأنني سأعمل على قراءة المعلومات المنقولة للأوراق، بمرافقة سماح تلك الأشرطة، والتأكد من تطابق المعلومات، ولا يشكل عملي هذا ظناً سيئاً بجورجيت، بقدر ما هو الحرص على عملية التوثيق، فليس من شأنى، ولا من صلاحياتي اضافة جملة صغيرة من رأسي لمذكرات خادمة الأمة.

قالت جورجيت:

- هل ستسمح لي بتناول قهوة الصباح معك أيها السيد؟
- ولم لا أيتها السكرتيرة، دعينا نشرب القهوة ثم نرمي الفناجين إلى الحديقة، ليس الفناجين، بل الأوراق وجهاز التسجيل والأقلام والراقصة ثريا كذلك.
- وهل كنت تفعل ذلك دائماً؟
- فقط في المطاعم والمقاهي التي تكون على متن البحر.
- زهل سبق لك وأن قذفت بامرأة إلى هناك أيضاً؟
- كلا، كان العكس هو الذي حدث، فعندما تكون هناك امرأة جميلة، أقذف بجسدي فقط، هل يساورك شعور بالخوف من شيء؟
- أنا، لم تعد لدي مخاوف من شيء، فقد علمتني أمي المصرية كيف يمكن تجاوز المطبات، وأخذت عن أبي اليوناني الجرأة في مواجهة وتحدي المآزق، فقد كان صياداً بارعاً وشجاعاً.
- وثرثيا.. وماذا تعلمت عنها؟

- إسمع، سأقول لك شيئاً خاصاً علمتني إياه تلك المرأة: أن أقوم باحترام لذتي العميقة، وأن لأعيش أو أعتاش من جسدي. قبل حلول الظهيرة.. أنهت جورجيت الشريط الثاني، فيما أنا لم أنجز شيئاً مهماً على الإطلاق، عدا التدخين وتناول القهوة ومطالعة الأوراق وتصفح بعض الجرائد والإعلانات والقيام بجولة تفقدية للحديقة، ربما لأن الاعتياد على الأمانة الجديدة، يتطلب مني وقتاً طويلاً على الدوام، ولا أعرف، إن كان الآخرون يعانون ذلك مثلي أم لا؟

لذلك دعوت جورجيت للقيام بجولة في القرية، والتبضع من الكيوسك الوحيد فيها، وهكذا فعلنا ذلك في امتداد ساعتين، عدنا بعدها للمنزل، لتناول الطعام وممارسة القبلولة القصيرة، التي لم أتنازل عنها حتى وإن نمت خلالها وقوفاً، لمدة نصف أو ربع ساعة من الزمن.

خلال إسبوع من الإقامة الجديدة، ما أمسكت أصابعي قلماً، كأن الرغبة كانت متوفاة في الزمن الذي كان يجري داخلي، هذه المشاعر لا تتابني بشكل مفاجيء، بل هي فصل من فصول الكتابة التي تسكنني، وهذا الوضع نفسه، ينطبق على كتابة وتبادل الرسائل بيني وبين الأصدقاء، فكل كلمة، كأنها لا تخرج من تلك الأرض، إلا في الموسم المقرر لها، وإلا فهي نتاج تافه، ولا قيمة لتدوينها.

- أحبيك يا جورجيت.. وأنت تعملين بهذه الطريقة العجائبية في تفرغ شحنات السيدة ثريا! قلت لها ذلك، ونحن نتجاوز منتصف الليل، فأغلقت اللعينة فم جهاز التسجيل، وتناولت قنينة النبيذ لتفتح أفاق الليل.

- إترك محلول الذهب والفضة "البيرة" وافتح لنا شربان الليل الأحمر يا ماوردي، مناولة أيادي قنينة النبيذ لنزع الغطاء عنها.

"أليست النساء أدوات اللحم اللاتي نحفر بهن الليل يا ماوردي؟"

"كلا، أنت غلطان يا سيد، فالنساء هن حفرة اللحم التي لا قرار لنا فيهن".

"ولم الحفرة، إنها كلمة لا تناسب مقام اللحم؟"

"ولكن النساء مدافن الرجال"

"ألا تستطيع أن تهذب أقوالك؟ وما لنا ومال الدفن في هذه الليلة!"

أوقفني غناء جورجيت المثير في الحمام، فاقتربت لإستراق السمع والنظر معاً، وهناك رأيت الغناء العظيم كاملاً، حيث العري يتدفق من جورجيت والماء يتوضأ فيها. فيما هي غائبة تحت الرذاذ .

الساخن، وكأنها تعني ذلك النشيد الأبدى، وعندما رأنتي منتصباً عند الباب، أغرقت جسدها تحت الماء سريعاً، لتسألني إن كان صوتها هو الذي سحبني إلى هنا أم شيء آخر؟ فقلت لها:

- أحب الغناء العاري يا سيدتي!

حينها لفت المؤزر على جسمها دون أن ترتديه، ودخلت غرفة النوم لإرتداء ثيابها، وكنت لا أزال اسمع رنين صوتها وهي في الداخل. ويبدو أن الغناء مثل الأشجار التي تختار مواطنها في الطبيعة، ولو كان غير ذلك، لتعفتت في دواخلنا الأصوات من كثرة الخلل وكم من المرات التي

يضطر فيها المرء لتنظيف ذاكرته من الغناء الرديء، كي لا تتردم منطقة الذائفة بالوحل، هذا لا ينطبق على الغناء وحده، بل على أشياء العالم المختلطة المشابكة.

لقد أثارت في داخلي السيرة الذاتية لراقصة مثل ثريا- وهي واحدة من مئات- صورة مصغرة عن الأكواريوم الذي تعيش فيه الأمة، فهي ليست صورة جديدة تعكس الفساد، بقدر ما هي قطعة من تاريخ داعر كانت الناس تتبناه بشرف وكرامة ونضالات وشهداء وسجون وتأليف سياسي وأدبي وفني من الدرجة الأولى، فيما كان الأبطال الكبار يغوصون في مغاطس الجنس والحب المبتذل مستخدمين السلطة بتطرف، كوسيلة للوصول إلى عالم الجنس والثروة والقمع.

في أوروبا مثلاً.. عندما يقع الوزير أو المسؤول في ورطة من هذا النوع، فإنه سرعان ما يعتذر أمام الصحافة ويقرر الإنسحاب من منصبه والحياة العامة، فيما يتم عكس ذلك تماماً، لا الصحافة تجرؤ، ولا المواطن يجرؤ، ولا الدولة تجرؤ على فعل شيء حتى، لأن ذلك إلى حد التعبير الرسمي "يضر" بمصلحة وسمعة البلاد!! فيتم مسح الجميع بالأرض، ويبقى باشاً السلطة في قلعة الرذيلة محصناً وإلى ما لانهاية!!!

ليست هذه هي آلامك وحدك يا ماوردي، ولكن قل لي: هل هو ذنب ثريا وأمثالها من راقصات ومطربات؟

إن أغلب هؤلاء يتساقطون كالذباب تحت أقدام الفنانات، باعتبارهن من الشخصيات العامة التي تسيل للعباب، وهذه المزاحمة في سوق السلطة، جعلت من إنتشار البترونات والسماسة والقوادين ظاهرة في المدن الكبرى، فمن لديه صداقة فنانة من هذا الطراز أو ذاك يسجل إضافة لإمتهاداته، وتفوقاً ومدعاة للمباهاة مع الأقران من ذات الصنف.

"وهل تعتقد بأنك اكتشفت قارة جديدة، لإضافتها إلى أرضنا؟ إخرس ياماوردي، فلو كان الطريق إلى عالم الراقصات معبداً، لكنك قد حملت شعلة الأولمبياد ووصلت إلى هناك منذ ألف قرن!!"

عندها شعرت بالخيبة من صفاقة التحليل بعرض الجانب السري من الصورة، فقدمت الاعتذار لنفسي عن محاولاتي غير المتعمدة لإفساد السهرة، وقلت لها في الوقت نفسه: "معك حق أيتها النفس، فكل الأرض رقص وترقيص، وربما دون ذلك، تحس الأرض بالبلادة، فتخرج علينا بزلزال ليشق عنها ثيابها البالية، لا وقت للنظريات الآن، لأن جورجيت تزحف بزلزالها والأرض تبدل ثيابها من شدة الهزات الخافتة.

بعد شهر من الحياة الريفية والعمل الشاق في قراءة وإستماع أشرطة وأوراق ثريا، كان رغبة جورجيت بزيارة العاصمة قد تضخمت وأصبحت في أوجها، التجوال في الشوارع وشراء الثياب ومشاهدة السينما، على الرغم من أنني لا أدخل داراً لسينما إلا لرؤية الأفلام الهامة، وذلك لكثرة القنوات التلفزيونية التي يفوق عددها الستين قناة، سواء تلك التي تأتي عبر الكابل العام أو من بث الأقمار الصناعية بواسطة الستلايت أو الإرسال الخاص، فهذا الجهاز أصبح سرطاناً ملوناً، يستهلك العين والوقت وينشر الدماغ، مسيطراً على المرء، وشاداً الخناق عليه بشكل خرافي هائل، لذلك يعتبره الكثيرون منا، خطراً على تربية الأبناء، واعتداء على التقاليد، لأن هذا الجهاز لا يفرز غير أخلاق شرائح الألكترون وشركات الإعلان: أفلام الإباحية الجنسية والشذوذ الامتثالي والعنف وبناء العقل البشري بناءً سينمائيًا بشعاً!

خيل لي وأنا أدفع ثمن القهوة في الكافتيريا، أن شخصاً ما، قد اقترب من الطاولة التي كنا نجلس عليها، ليناول جورجيت وريقة صغيرة، بعدها ليختفي بسرعة، ولكنني لم استحب لمثل تلك الشكوك كعادتي، فقد نهضنا للتجوال، وبعد ذلك لتناول الغداء في أحد المطاعم الصغيرة، ثم ألقنا عائدين إلى الريف بعد قرابة عشر ساعات من ضجيج العاصمة.

"هل تعرف جورجيت أحداً في العاصمة كوبنهاكن؟" قلت ذلك لأهنيء نفسي ببطلان السؤال وعدم شرعيته.

"وإن حدث عكس ذلك يا ماوردي، أليس الأفضل قطع الطريق على ما سينتابك من تلك المخاوف التي تحيط بك؟ ألم تقل بأنني لا أشك بأحد، كي لا تستبق الأحداث وتفسر العالم غلطاً؟"

كانت جورجيت مستأنفة على الصوفا في الصالون، ويبدو أن التعب قد أخذ بها قليلاً من نزهة العاصمة، فتركها هناك، لأقوم بالتنقيب في أوراق ثريا وقراءة ما كتبتة جورجيت على الورق بعد تفريغ القسم الكبير من الأشرطة، فلاحظت أن فروقات قد وقعت بين ما كانت قد قرأته، وما بين ما كتبتة جورجيت، فأسرعت إلى التفتيش عن مصدر هذا الخطأ، من خلال ترقيم الأشرطة، فوجدت عدم الإنتظام في تفريغ المواد من الأشرطة وفقاً للتسلسل، وعندما حاولت التغلب على المشكلة، وحلها بنفسني، وجدت صعوبة في العثور على بعض الأشرطة!

"ها قد وضعت في الحفرة يا ماوردي! فثمة أشرطة غير موجودة، هل ضاعت أم ماذا؟".

"الشك عيب، وما عليك إلا سؤال جورجيت يا ماوردي، فقد تكون وضعتها في مكان غير هذا الذي فتشت عنها فيه".

تضاعدت النيران إلى أعالي الدماغ، وتوسعت رقعة الحريق لتشمل عواطفني إزاء المرأة، فإذا كانت المؤامرات قد بدأت في لندن، فهل عليها أن تستمر إلى هنا في الدانمارك؟

نهضت جورجيت قائلة:

- ماذا ترغب الآن بعمله يا سيد ماوردي؟

- هل ثمة أشرطة تحتفظين بها في مكان ما؟

- لا، أبداً، هنا كل ما يلزم، لماذا تطرح هذا السؤال؟

- لأن ثمة نقصاً في تسلسل الأشرطة!

- كلا، لا أكاد أن أصدق، هل فتشت جيداً؟

غادرت غرفة المكتب.. فيما ظلت جورجيت في داخله، تبحث عن الأشرطة المفقودة بنفسها، تناولت كأساً من المارتيني الممزوج بالليمون وأشعلت غيلوني وأنا أستمع لعزف الكلب "بوب" الذي يبدو أنه قد ألفنا أكثر من الجيران، فيما سحابة كثيفة من طيور الدخان، كانت تحلق فوق رأسي، حاملة معها تلك الأفكار السوداء التي بدأت تتكاثر وتمطر في دواخلي، لتبل كل شيء بالقطران، كيف حدث هذا؟ لا أدري، فحقيبة الأشرطة كانت بعهدة جورجيت منذ مغادرة لندن، وحتى الآن، ولكن الأمر الذي كان مقلماً، هو لم تعلن هي عن النقص في بعض الأشرطة؟ هل هي لم تنتبه لذلك حقاً؟ أم أنها حاولت تلافي مشكلة عويصة من هذا النوع؟

وضعت أسطوانة المغنية "ويتني هيوستن" ليعدني صوتها الصافي عن غابة الشوك التي بدأت تضغط على أعصابي بشكل سيء، هكذا فعلت، وأنا أقلب صورة سونيتا التي لم تثبت في ذاكرتي، أرسماها، لأستعيد ملامحها ولغة عينيها والخطوط العامة لحركاتها خلال وجودي في منزل ثريا.

مع إنتهاء الأغنية قررت الإتصال بثريا، لنزع الفتيل قبل إشتعالي غضباً من جورجيت.

"بيدو أنني وقعت بالصنارة اللعينة، فكيف الخروج من الورطة يا ثريا؟"

"أنت تحاول ابتزازي يا ماوردي!" هذا أول ما ستقوله لك ثريا، بعدما تخبرها عن ضياع بعض الأشرطة.

"ولم لا يكون تسلسل أرقام الأشرطة غلطاً؟ قد تخبرك ثريا بصحة هذه الفكرة، فلا يعود من ورطة وتوريط هناك.

"حاول أن تشك بسونيتا ياموردي، فقد تكون هي من فعل ذلك، فقد استطاعت تلك الفرنسية، وبموجب عملها وتقلاتها المكوكية ما بين القاهرة وباريس وبيروت ولندن وبغداد، كمراسلة صحفية، أن تبني الكثير من العلاقات المهمة مع الكثير من رجال السياسة والأعمال والصحافة والمال والجيش والحشيش والبودرا"

"كلا يا ماوردي، لم لا تبحث في العلاقة ما بين سونيتا وجورجيت؟ ألم تقل بأنك لم تستنتف تلك العلاقة غير الطبيعية؟! سل ثريا عن ذلك، فقد تكشف لك المزيد من الفضائح"

- ثريا.. نحن في مايشبه الورطة، لقد وجدنا بعض النقص في تسلسل الأشرطة، هل ثمة أمل لنا بالعثور عليها لديك؟

- ماذا؟! يا للمصيبة.. هل نتكلم بجد يا ماوردي؟

- أرجوك يا سيدة ثريا.. خذي الأمر بشيء من الهدوء، فقد نجد الطريق لإستعادتها سوية.

- مستحيل، وأين في جهنم الحمرا؟

- قد يكون مفيداً الإستفسار من سونيتا، فقد يكون لديها فكرة عن ذلك؟

- سونيتا! وأين أجدها هذه السونيتا؟! لقد رحلت إلى باريس بعد مغادرتكما بيوم، إنتظر مني إتصلاً، فقد أتدبر الأمر.

ظلت كلمات ثريا عن رحيل سونيا ترن في رأسي، وهو ما دفعني لإطلاق كلب الشك، ليتبع أثرها، إلا أنني منحت سفرها في الوقت نفسه، تبريراً منطقياً يتعلق بفراق جورجيت عنها، وهو ما دفع بها لمغادرة المنزل، للبحث عن علاقة مابديلة، أو ما شابه ذلك.

فالنساء اللاتي من أمثال سونيا، لا يستطعن تقطيع الوقت بأسنانهن!!

"ولم لا تفكر بطريقة أخرى: سونيا ذهبت بالأشرطة من أجل أن تقبض الثمن؟!"

"سوف لن يصدقها أولئك الرجال، فاستنساخ الأشرطة عمل يتم بسرعة البرق هذه الأيام، ولا بد أن تكون ثريا قد استعدت لمثل هذه الحالات بالتأكد، لأن الأشرطة حياتها"

"وما أدراك أنها فعلت ذلك، فلو كانت تحتفظ بنسخ أخرى لما قامت بسحب الأشرطة من البنك؟".

....

كانت الخطوات سريعة لإنجاز جريدة الجيب، كل شيء يسير بوتيرة عالية، السيرة الذاتية للراقصة ثريا، والسيرة الذاتية للهداريس في الدانمارك، ولا فرق بين عالم أولئك، وعالم هؤلاء، فالعمل مع هكذا فضاء ليس شاقاً، بقدر ما هو منعش مع التكنولوجيا الحديثة: عندما يكون بين يديك الكمبيوتر والطابعة وماكنة الإستنساخ في المنزل، المهم وجود الرغبة: ليس من أجل الفضح وحسب، بل من أجل الدعوة لتصحيح المسارات، فهداريس الباشوات من أعيان السلطة ومرزقتها، وبال هناك! وهداريس المهجر من نصابين وأذال ومدعين ومزورين ولصوص كارثة هنا، لأنهم يحاولون أن يصنعوا لأقدامهم أحذية من الذهب!

أولئك لهم رقصهم الخاص على الجثث، وهؤلاء لهم رقص سيجعل منا جثثاً تحت أقدام العنصرين، وهؤلاء يدركون بأن أظافرهم، إنما تحفر قبراً جماعياً، يستوعب اللاجئين والمقيمين من الأجانب وحاملي الجنسية، فلا قيمة عند الهداريس سوى نزع الإنتقاخ غير الطبيعي، وبالسرعة التي تجعل من لحظة الانفجار، ثم التلاشي عن الخريطة تماماً.

أصبحت جورجيت متحفظة مني بعض الشيء، تواصل النهار بالليل، عملاً للإنتهاء من تفريغ الأشرطة التي تبلغ العشرين شريطاً بعد المائة، حيث لم يبق منها سوى أشرطة بعدد الأصابع، لذلك أحسست بضرورة تفريغها من شحنات خوفها الداخلي الذي تعيشه فدعوتهام للقضاء السهرة في مطعم ما في العاصمة، إلا أن رغبتني تلك، سرعان ما أصطدمت بالرغبتني الذي عبرت عنه جورجيت قائلة:

- أهي سهرة من أجل التحقيق بشأن ضياع تلك الأشرطة، أم ماذا؟

- كلا يا سيدتي، لا من أجل التحقيق ولا من أجل الأشرطة، فقد تم تلافي النقص، وانتهى الموضوع قبل أسابيع.

- وكيف حدث ذلك؟ قالتها وكأن صدمة كهربائية صعقتها فجأة.

- بسهولة.

- وهل استطاعت السيدة ثريا الوصول إلى مكان سونيا؟ سألت بتعجب وذهول.

- لأعرف، ولكن ثريا عوضتنا عن ذلك بالمعلومات اللازمة لتلافي الثغرة في سيرتها الذاتية.

قلت لها ذلك، وأنا أقرأ ما كان يظهر على وجهها من كتابات سريعة، كنتك التي تمنحنا إياها إعلانات النيون الضوئية، فيما نهضت جورجيت من مقعدها، وهي تعلن إستعدادها لتلبية الدعوة لتناول العشاء في المدينة، وبشكل مفاجيء، أثار الريبة في نفسي بشكل ملفت للنظر.

- سنكمل حديثنا هناك يا ماوردي.

- أجل، ولم لا؟ فالكلام جميل على رنين الكاسات، أليس صحيحاً يا عزيزتي جورجيت؟

سألتها وأنا أهيء نفسي لتقمص دور السكران الذي سيفضي بما في داخله عن كيفية العثور على الأشرطة المسروقة!! إبتدعت هذه الفكرة، بهدف الدخول إلى أعماق جورجيت فبعض النساء مثل الدهاليز المعتمة، فكل ما قمت به، هو كتابة المذكرات وارسال أوراقها يوماً بيوم إلى ثريا بواسطة الفاكس، كي تملأ الفراغ بالمعلومات التي ما تزال تحتفظ بها ذهنياً، فتلك أفضل طريقة لتلافي الورطة، وبعد أن تقوم ثريا بقراءة وإضافة المعلومات التي تريدها مع ماكنت قد كتبت، تعيد إلي الأوراق مع المعلومات الجديدة لتتم صياغتها مرة أخرى، وهذا الأمر جعلني أكثر قرباً لثريا من سونيتا وجورجيت، فقد أحست الراقصة، بأن للأنتين دوراً في عملية لطش بعض الأشرطة، وهكذا إستطعنا تلافي ذلك بواسطة الفاكس دون إنقطاع، فكان بمثابة الخط الأحمر الذي يستخدمه القادة أثناء الحرب الباردة ما بين الدول الكبرى، أو عند حدوث أزمة ما بين الجبهات المضادة.

لم تكن جورجيت تعرف بان سونيتا قد أصبحت في الدانمارك. و هي تسكن الآن في غرفة من غرف فندق <<الساس>>.

لذلك كانت دعوتي لجورجيت، ليست من أجل تناول الطعام في مطعم المدينة المجاورة، بل للسهر سوية على طاولة واحدة. و بالضبط في الفندق الذي تقيم فيه سونيتا!

أصاب جورجيت الهلع و الذهول و هي ترى سونيتا متوجهة نحو الطاولة التي كنا نجلس إليها. فقلت لها مستدركاً:

- ها. أنتما معاً. وجهاً لوجه! فتلعثمت جورجيت قائلة لسونيتا بشيء من الذهول:

- كيف وصلت إلى هنا بحق الشيطان؟ فردت عليها سونيتا و هي تمسك بيدها و تضحك:

- من أجلك يا عزيزتي. لم أقدر على فراقك أكثر من مائة يوم أسود مضى. ألا تشاطريني الإحساس نفسه يا جورجيت؟

لم تجب جورجيت على سؤالها. فقد راحت تنتظر في وجهها بامتعاض، و هي تحمل كأس النبيذ بيدها. الأمر الذي دفع الحيرة بسونيتا إلى أقصى حدودها، كأن تضع رأسها بين يديها و تغرق بالصمت. فيما كنت أتأمل المشهد الذي أمامي: جورجيت المشتعلة خوفاً و امتعاضاً. و سونيتا العاشقة المحبطة. حاملة الأخبار و الأسرار، و التي لم تستطع تمالك نفسها جراء إهمال جورجيت لها. فقد كانت الصفحة قوية.

- ها. ما أخبار مشروعك يا ماوردي؟ سألت سونيتا.

- أي منهم؟ قلت بشيء من السخرية.

- مذكرات السيدة ثريا أقصد.. و ليس غير.

- قد لا يستغرق الأمر طويلاً. هل لك فكرة عن الأشرطة المسروقة؟

- أبداً. فقد أخبرتني السيدة ثريا عن ذلك للأسف. فنظرت جورجيت إلى سونيتا و قالت لها:

- لقد تم ترتيب كل شيء لتلافي ما كان قد حدث.

- كيف؟! سألت سونيتا باستغراب و دهشة.

- لا أعرف الطريقة. لكن إسألني السيد الماوردي فقد يعطيك فكرة واضحة عن ذلك. أجابتها جورجيت:

- سيد ماوردي. ما رأيك بالإبتعاد عن مشروع المذكرات، و العمل الفوري رئيساً لتحرير

مجلة في لندن؟

- هل هي صفقة يا سونيتا؟ أجابها الماوردي دون أكثرات.

- كلا. مجرد عرض طيب يقدمه لصديق لا يريدون فقده. و إذا لم يكن منصب المجلة

مريضاً. فهناك معونة مالية كبيرة، ستكون تحت تصرفك، لتنفيذ المشروع الذي ترغب فيه.

- فقدانه! و من هؤلاء الذين يريدون ذلك، و ليس لي معرفة بأحدهم؟ سأل الماوردي باستغراب.

- لا عليك. إنهم يقدمون المساعدة من أجل دفن مذكرات ثريا فقط. هل فهمتني يا سيد؟

- لم يكن أمامي إلا الإنسحاب. فقد فهمت الرسالة التي قامت سونيتا بحملها لي. و عندما غادرت الفندق عائداً إلى المنزل، لحقت بي جورجيت و الدموع تترقرق في عينيها. فسألتني إن كنت أوافق على مجيئها معي للمنزل أم لا. فأجبتُها أن تذهب هي و صديقَتها سونيتا إلى جهنم. و لكنها ألحت بالرجاء، دون أن تترك لي إلا فرصة الموافقة على ذلك.

إعترفت جورجيت، و نحن في الطريق إلى المنزل، بأنها خارج دائرة اللعبة التي تديرها سونيتا. و أقسمت كثيراً إلى حدود البكاء التافه. و كل ما تفكر هي فيه، الهرب من العواطف الشاذة لسونيتا التي تدير أكثر الألعاب قذارة. هكذا لفظت جملتها الأخيرة قبل أن تهبط أقدامنا من القطار.

- ربّ حلم يقتل نفسه من كثرة الطيران.
- العادة السيئة ذاتها، و ها أنت تتأمل شكلها كغانية بين الكلمات.
- و لكن. ما من أرض للكلمات أفضل من أراضي النساء. لأن التاريخ هنا أشبه بالعجري العاري.
- الكلمات.. الكلمات. أليس من صورة فوتوغرافية للعالم غير هذه التي تقول؟
<<حاولت أن أجلس إلى تلك المخيلة، لأتبع نورها>>
لكن الماوردي الذي هدم قلاعه و مشى في قوافل الليل دون ليل، اربك نفسه مثلما أربك إغترابه هنا. ففي هذا الممر الذي تزدهم فيه الهياكل و الأرواح المنشقة عن أجسادها، تكمن رائحة لطير لم يحصل على اسم بعد. و لكنه يطير بشكل مختلف تماماً عن ذلك الطيران الذي تمارسه المخلوقات المُنجحة.
"سأدخل هذا المستقبل، دون أن أتلمس ثيابه بيدي"
<<أنت تفعل ذلك لأنك خصب>>
نهض الماوردي مخلفاً نهر النوم في السرير. و دون إيضاحات كالعادة.

كيف يكون اليوم الأول من العام الجديد؟

هذا ما خطر على بالي و أنا أتبضع إستعداداً لليلة القادمة:ليلة رأس السنة. ولم تمض ثوان حتى وجدت الجواب يتحرك على شاشة الذهن. الحب لا الحرب يا ماوردي. فقد أنجزت الكثير خلال هذا العام. ولكي تتخلص من متاعب المجلة و مذكرات ثريا التي إنتهيت منها، فإنك تكون بحاجة إلى مليون ساعة من الكسل، لالتقاط أنفاسك فقط!

فأذا لم تفكر بشيء الآن، لا تفكر بشيء آخر. لا بأس من مضي قوافل الأيام على هذه أو تلك الشاكلة. فعادة ما يكون التفكير بالمستقبل مرضاً بالنسبة لك. و لذلك فقد فعلت أجمل الفضائل، عندما أقلعت عن تلك العادة منذ زمن ليس بالقصير. فالإكتفاء بالعمل الآتي، و عدم جعل الهوة سحيقة ما بين اليوم و الغد، هو الآخر ممارسة لبناء عالم من طراز آخر. لا نقل لديّ اعتراض على أولئك الذي يخططون لحياتهم من المهد إلى اللحد. لأنهم غالباً ما لا ينجزون شيئاً بسبب إنشغالهم بالتفكير وكتابة المشاريع. دع نفسك قنبلة لا تخضع لإشرا ف أولئك الذين مهنتهم التفجير. تريد الإنفجار؟ إنزع صمام الأمان في الوقت الذي تشاء، و السلام!!

أسرعت لتناول القهوة في المقهى المجاورة للسوبرماركت، و النظر إلى النساء برغبة تفور إلى حدود الغليان. ففي بعض الأوقات، أشعر بأن رجلاً يغلي في جسدي. كأنني لم أرى امرأة في حياتي. ايمكنني أن أسمى ذلك توحشاً شبقياً أم شوق لبعض النساء اللائي تحتفل الذاكرة بصورهن، و قبل رؤيتهن حتى؟

تذكرت مورغ التي غابت دون سابق إنذار. و مرت بخاطري جورجيت التي لم تستطع ملء غياب مورغ. و سرعان ما انكمش النظر في عيني كورق السلوفان، لتقلعهما الأجناف فجأة. هل كانت تلك اللحظات نوماً للعقل الباطني أم ماذا؟

تركت المقهى لأقفل عائداً إلى المنزل الريفى. حيث لم يترك الثلج ممراً سالكاً ما بين الطريق الفرعي و المنزل. مما اضطرني أن أقوم بسحب أكياس بضاعتي زحلقة على الثلج، و هي عادة، غالباً ما يمارسها الأطفال في ألعابهم الشتوية في هذا البلد. و الذي كان يحقني أكثر، هو طريقة نط الكلب <حبوب> عليّ، كلما شاهدني مقبلاً باتجاه المنزل. فقد أصبح هذا الحيوان صديقاً رائعاً، أغنى عني الكثير من الصداقات خلال وجودي في الريف.

كانت الدعوات التي تلقيتها للمشاركة في حفلات رأس السنة لهذا العام، قليلة بالقياس للأعوام الماضية. بسبب الانتقال للريف و عدم معرفة أغلب الأصدقاء من عرب و دانماركيين، لعنواني الجديد و لا لرقم الهاتف كذلك. و لفرط انشغالاتي بالعمل خلال العزلة التي ضربتها على نفسي طوعاً. لذلك فضلت البقاء هنا، لأمضي السهرة برفقة ذاتي. فيما كان <حبوب> ينبج بين الحين و الآخر، إحتجاجاً على مغادرة الجار و زو جته للبيت، للسهر في الخارج، و تركه وحيداً هناك.

كانت برامج التلفزيون صاخبة قبل انتصاف الليل.

يرن الهاتف... فيأتي صوت مورغ ليمطر في القامة ذاك المطر الساخن. لم أكن مصدقاً لما حدث في تلك اللحظات.

- أين كنت أيّتها.....؟

- في أفريقيا. لقد وصلت قبل ساعات. و لم أعرّك على أثر في البيت. لذلك اتصلت بالدكتور الوراق و أخذت منه رقم الهاتف و العنوان. هل أصبحت فلاحاً جيداً في الريف يا ماوردي؟

- و يحرث في الضباب أيضاً.. ألا تأتئين فوراً يا مورغ. إطردي التعب عنك و تعالي الآن بحق الملائكة و الشياطين معاً؟

- سأكون معك الليلة بالتأكيد. لكن المسافة ستستغرق ثلاث ساعات. أليس كذلك؟

- ليس بالضبط. سأنتظرك بفارغ الصبر.

- إذن. إلى اللقاء.

>> في أفريقيا! كان هذا ما ينقصنا. و عنا ماذا؟ نحن اسكندناف! أليست كل القارات بين أيديكن أيّتها الملائكة الزرق؟<<

نهضت مسرعاً لإجراء بعض الترتيبات في البيت، و لتنظيم الطاولة و إعداد الأظعمة. فشيء جميل أن تكون عودة مورغ بهذه الطريقة المفاجئة، و بالضبط الليلة. و هو أمر لم أتوقع حدوثه. نظرت إلى الساعة المعلقة على الجدار، فرأيت عقاربها و كأنها لا تزحف على الإطلاق. فقلت لنفسي ربما لفظ الزمن أنفاسه، و لم يعد يرغب بالتحرك. و لكن لا فائدة من أن يخدع المرء نفسه بهذه الطريقة الفارغة. فالعمر يجري سريعاً. و ها هي البشرية تقيم الإحتفالات لإنتصار الزمن عليها، مثلما يحدث كل عام. أوليست ليلة رأس السنة مقصداً هائلاً نحتفل فيه ببرودة أعصاب، فيما هو مشغول بتقطيع أجسادنا دون الشعور بالإثم؟

سمعت صيحات بوب. فقلت لا بد و أن تكون مورغ قد وصلت الآن. بوب يفعل ذلك، كلما رأى سيارة تتوقف أمام المنزل أو على جانب الطريق الفرعي المشترك الذي يفضي إلى منزل الجبران و منزلنا. كنت قد وضعت شمعة منارة طويلة على مدخل الباب الرئيسي في الخارج، تعبيراً مني للإحتفاء بقدم مورغ. بالإضافة إلى الشموع المنارة على الطاولة في الداخل. إلا أن أحداً لم يضغط على زر الجرس بعد مضي أكثر من ثلاث دقائق على توقف السيارة. فيما بوب لم يكف عن النباح الذي يشبه الصيحات في هذه المرة.

فقررت الخروج من المنزل، لأستطلع الأمر بنفسي. معتقداً بأن مورغ لم تستدل على المنزل بالضبط، نتيجة للعتمة. أو ربما قد يكون حدث لها مكروه بسبب تزلزل قدميها على الجليد.

و فيما أنا غارق في أفكار التشاؤمية، فتحت الباب. فإذا بشخصين يرتديان قناعين على وجهيهما و يسدان عليّ الطريق للخارج. يا للهول!

كنت قد أحسست بضربتين فقط. الأولى عندما قاما بسحبي إلى الداخل و أقفلا الباب. و الثانية عندما رفع الإثنان جسدي عالياً، ليفنفا به إلى حافة الموقد الحجرية. أما الضربات المتتالية، فلم أشعر بشيء منها إطلاقاً. و لا عددها بالضبط!!

>> الآن.. كل شيء ناصع البياض. الذهن والعالم و الأشياء. فكل ما تراه بلا تاريخ أو ذكريات. فهل خرجت للتو من رحم ساخن عميق، كان لساعات قليلة ماضية، أشبه بالمقبرة التي تحيط بها أشجار تلك الغيبوبة السوداء و الرطبة؟

أم هي ولادتك الأولى، كونك لم تكن قبل الآن على هذه الأرض؟

ألا تريد أن تقول شيئاً عن النور و الكائنات و الشوارع و الأسواق و النساء و الدنيا الجديدة؟
أم لأن الكلمات ما تزال في طور النمو، و أنت تحاول اختيار اللغة المناسبة التي تعيد خلقك
بحرية أكبر؟

كل شيء متوقع الحدوث و ممكن. و لذلك تجد نفسك غير متوتر و غير مضطر للإستعجال.
ستبقى هادئاً من أجل أن تتأمل فقط. و من أجل أن تكون فكرة أولية عن هذا العالم الذي خرجت
إليه دون أن تعرف واحداً مشاكساً من طراز الموردي. فاسمك هو الآخر ذاب و انتهى. و لم تبقى
لك منه حتى رائحته، تلك التي يتعين عليك عدم الإقتراب منها، فيما لو صادفتها تجري مع عاصفة
ما، ذات يوم من الأيام. فثمة بشر لا تستطيع إدراك أعماقهم حتى لو سيرت جلودهم بكل نبال
المعارف. فسماكة جدران النتانة، تقدر على تحطيم كل شيء هنا، كونها مصفحة بالعهز الذي
يهزما بمادته الصفراء. هل تعرف كيف يجري تركيب تلك المادة؟

لا تتيح لنفسك فرصة للتذكر بعد هذه اللحظات. سيمنونك اسماً جديداً. و مهنة أخرى،
سيدربونك على فنونها، من أجل أن تمارسها بغبطة طفولية مطلقة. فها أنت في طريق الحضانة
يا..... هذا الذي لا يعرف اسمه الآن!!<<

تقرير البوليس بعد الحادث بيوم:

إدعت الأنسة مورغ بأنها كانت على موعد مع الماوردي في ليلة رأس السنة، من العام الماضي. و عندما وصلت إلى بيت المجني عليه، في تمام الساعة الثانية عشر إلا ربع. وجدت الباب مفتوحاً. فدخلت المنزل لترى الماوردي ملقى على الأرض، قرب الموقد الخشبي و هو ينزف دون حراك. فيما كان المنزل يعج بالفوضى، بفعل تناثر الأوراق و الكتب و حطام الزجاجات على الملابس و أشرطة التسجيل و الأثاث و أغطية النوم. إلى جانب حطام الكمبيوتر و الطابعة و الفاكس و جهاز التصوير و الاستساخ.

تم التحقيق مع مورغ. و أطلق سراحها كشاهدة. و حفظت القضية.

تقرير المستشفى بعد أربعة شهور من الحادث:

نحن الأطباء الموقعون أدناه

هنس بيتر .. طبيب جراح في الجملة العصبية

ماك روجرس .. طبيب عظام

سوزانا لاودغوب .. طبيبة نفسية

نشهد بأن المجني عليه الماوردي، قد تعرض إلى كسور في الجمجمة و نزيف في الدماغ. و إلى كسور متفرقة في العنق و الذراع الأيمن. كما وجدت كدمات على وجهه و ظهره و ساقيه، جراء استخدام بعض المواد الصلبة الحادة. حالته الآن غير مقلقة. و يمكنه استعادة ذاكرته من خلال التمرين!

للمؤلف :

- ذبحت الوردة .. هل ذبحت الحلم / شعر - دار الشبيبة .١٩٧٧.
- صخب طيور مشاكسة / شعر / اتحاد الكتاب العرب ١٩٧٨ .
- أولمبياد اللغة المؤجلة / شعر / دار الكرمل ١٩٨٠ .
- ليس للرسم فواصل .. ليس للخطينة شاشة / شعر / دار الكرمل ١٩٨٠ .
- نسخة الذهب الأولى / شعر / دار نصوص ١٩٨٨ .
- طيران فوق النهار / شعر / اصدار خاص ١٩٩٥ .
- الامبراطور / شعر / اصدار خاص ١٩٩٥ .

□□□

رقم الايداع فى مكتبة الأسد:

التأليف بين طبقات الليل : رواية / أسعد الجبوري -
دمشق : اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٧ - ٢٢١ ص ٢٥٤ سم

١ - ٨١٣,٠٣ ج ب و ت .

٢ - ٨١٣,٠٠٩٥٦٣ ج ب و ت .

٣ - العنوان

٤ - الجبوري

مكتبة الأسد

ع ١٩٩٧/٦/٨٥٧